

أنور المجدى

مقدم

الاستشراق والمستشرقون

في العلوم الإسلامية

مكتبة الزاوية
القاهرة

دار الجليل
بيروت

سَمُومُ الْأَسْثَرِاقِ وَالْمَسْثَرِقِينَ

تأليف
أنور الجندى

مكتبة الزلازل
القاهرة

دار الجيل
بيروت

حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م



مجموع الاستزاد والمشتريين

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

(وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم
عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) •

[الانعام]



بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

أخطار المراجع الزائفة

والمصادر المسمومة

إن أخطر ما يواجه الباحث المسلم في مجال الأدب والتاريخ والثقافة :
تعدد المراجع ذات المصادر المختلفة من عربية أصيلة أو غربية وافدة ، سواء
أكانت مستقاة من المصادر المنحرفة أو أجنبية أساسا ، وهو إزاء حاجته الى
اعداد بحثه يسأل عن المراجع فيجد أقربها إلى يده تلك المراجع الفاضلة
الهوية ، فلا يعرف ما اذا كانت سليمة وموثقة وصالحة لأن تكون مرجعا
للبحث أم لا ؟ واذا صلحت للبحث فهل هي توصل الى الحقيقة ، وهل تمثل
جوهر المفاهيم الإسلامية الأصيلة ؟ ذلك أن هناك محاذير عديدة في هذا
المجال ، هي أن قوى غربية ومتعددة ، حاولت من وقت بعيد مراجعة التراث
الإسلامي بقصد واضح وهدف مدبر . فعملت على ابراز جوانب منه
والاغضاء عن جوانب ، وعلى ضوء هذا الهدف المسموم المدبر الذي يرمى
الى ابراز جوانب الضعف والاغضاء عن جوانب القوة ، كتبت الموسوعات
الأوربية في الشرق والغرب عن الإسلام ، فادخلت أشياء كثيرة من الشبهات
والروايات الضعيفة ، وحرفت جوانب أخرى من النصوص ، وقد جرى هذا
كنه من أجل اقرار أشياء خطيرة من أهمها :

اولا : القول بأن فلسطين كانت فيها لليهود آثار وتاريخ وحضارة ،
وذلك لتأييد الدعوى الباطلة التي حمل لواءها (هرتزل) ومن جاء بعده من
دعاة الصهيونية ، وهو خطأ محض .

ثانيا : القول بأن العرب كانوا يعيشون في مرحلة (الانحطاط) ، حتى

جاءت الحملة الفرنسية وجاء الغربيون فكانوا هم ، وكانت مؤسساتهم التبشيرية وارسالياتهم ، هي مصدر اليقظة ، وهو افتراء محض .

ثالثا : ان العرب عاشوا في ظلال الاحتلال اليونانى والرومانى سنوات طويلة ، وقالوا للمصريين انهم احتلوا من قبل العرب ، كما أججوا الخلاف بين الفرس والترك ، وبين العرب والترك ، وبين البربر والعرب ، وأثاروا النزعات القديمة وبعثوا الفرعونية والفينيقية والآشورية والبابلية ، لتمزيق وحدة العرب وجماعة المسلمين .

رابعا : الدعوى بأن الفكر الإسلامى يستمد بعض مقوماته من الفلسفة اليونانية والقانون الرومانى ، حتى النثر الفنى والنحو والبلاغة ، حاولوا نسبها الى الفرس واليونان وهو زيف القول .

خامسا : إثارة الشبهات حول البطولات الإسلامية ، وإذاعة اتهامات الشعبوية الباطنية وخصوم الإسلام حول هذه البطولات وحول المواقف التاريخية ، وليس هذا صحيحا على إطلاقه .

هذه بعض المادة التى أوردها الغربيون فى دوائر معارفهم وفى أبحاثهم العديدة ، التى نشروها باللغات المختلفة (التى ترجم منها الى اللغة العربية عدد كبير) وكانت مقدمة لعملية الغزو الفكرى والسياسى للعالم الإسلامى ، ثم كان توجيه المدارس والجامعات والمعاهد ذات الولاء الاستعماري والإرساليات الى هذه الجوانب ، ومن ثم تضمنتها مناهج المدارس الوطنية التى نقلت منهاجها من معاهد الإرساليات ، وكان يشرف عليها خبراء أجنبية هم فى الأصل قسس وعلماء لاهوت ، ومن ثم تضمنتها مناهج الأدب والتاريخ والفلسفة واللغة .

ثم عرضت الدراسات الحديثة خالية من أثر الإسلام فيها ، منكرة هذا الأثر الواضح فى دراسات القانون والعلوم التجريبية والنفس والأخلاق والتربية والاقتصاد والسياسة ، فأصبحت هذه العلوم تدرس على أنها

نتاج أوربي خالص . في حين تنكشف الحقيقة العلمية عن دور ضخم للفكر الإسلامي في هذه المجالات كلها .

وقد عجز المتصدرون للثقافة الإسلامية أن يجعلوا لهذه المناهج مقدمات تفضح زيف التغريب والاستشراق ، وتقدم الحقائق الدامغة الدالة على مكان العرب والمسلمين ودورهم في بناء الفكر الانساني في مختلف مجالاته ، فضلا عن تقدير ما أهداه الإسلام للبشرية من ثمار جلى تتمثل في (مذهب المعرفة الانساني) ، في الفكر ، ومذهب (المنهج العلمى التجريبي) في العلوم ، ثم جاءت مناهج المدارس الوطنية في ظل النفوذ الاستعماري ، فأخذت مناهج المدارس الأجنبية فلم تجر فيها تعديلا كبيرا ، ثم كانت الجامعات وقد تولاهن أساتذة يؤمنون بوطنهم ، ولكن دراساتهم في مدارس الغرب قد أعجزتهم عن مطاولة أبعاد الفكر الإسلامي وأثره في الحضارة الحديثة والفكر الانساني المعاصر .

بل ان بعضهم قد تشكل نفسيا وفكريا تحت تأثير ظروف مختلفة تحط من قدر العرب والإسلام واللغة العربية جميعا مع إعلاء الآداب الغربية والبطولات الغربية ، وذلك نتيجة لما لقنوا من مراجع الأجانب وتحت تأثير الأساتذة الأجانب .

غير أن هذه الغفلة لم تستمر طويلا ، فقد كشفت زيفها حركة « اليقظة الإسلامية » ، وبدأ ضوء الحق ينفذ الى الفكر من جديد ، ومن أسف أنه جاء هذه المرة من بعض المنصفين من الغرب من أمثال جوستاف لوبون ، وتوماس كاريل ، وتوماس أرنولد ، وغيرهم كثيرون ، ثم بدا في الفترة الأخيرة من كتابات الدكتورة سجيريد هونكه : « شمس الله تشرق على الغرب » وما كشف عنه برنارد شو ، وليوبولد هابس ، وغيرهم ، من كشف عن عظمة الفكر الاسلامي ودوره الواضح في الفكر الغربي نفسه ومدى حاجة الانسانية اليه .

ومع ذلك فإن العرب والمسلمين لم يتمكنوا بعد من إعداد المصادر والمراجع ذات الأصالة التي تمكنهم من وضع هذه الحقائق بين أيدي شبابنا وطلابنا ، فمازال الأساتذة يرجعون مع الأسف الى دوائر المعارف الأجنبية التي ترجم بعضها الى اللغة العربية مع الأسف ، دون أن يحاط بتصحيح واضح أو مراجعة شاملة ، وهذا شأن من يقرأ دائرة المعارف الإسلامية أو قاموس المنجد ، ودائرة المعارف الميسرة .

وفي مجال الأدب ، نجد هناك من لازال يعتبر كتاب (الأغاني) مرجعاً ، وكتاب (ألف ليلة وليلة) مصدراً ، على الرغم من محاذير الاعتماد على مثل هذا النوع من التأليف أو غيرها من كتب المحاضرات ، ونحن في حاجة دائمة الى التذكير بمصادر هذه الكتب ، ومراجعة امر الذين قاموا على كتابتها وإعدادها ، فمؤلف الأغاني رجل تصفه المصادر بالإسفاف والاضطراب ، وقد وصفت خلقه وصفا يرده عن أن يكون مصدراً أميناً ، فقد كانت صلاته بالناس قائمة على البذاءة ، وكان وسخاً قذراً جشعاً ، وكان على غير مفهوم الإسلام الصحيح ، وكان من الباطنية الذين يحقدون على الإسلام ، وله جوانب حسية تبعده عن استواء الطبيعة ، فضلاً عن أن مصادره أيضاً قد اتهمت .

والى ذلك فإن كتاب (الأغاني) في حدود ما أورده صاحبه في مقدمته لا يعنى بتاريخ المجتمع الإسلامى ، ولكنه يركز على رسم صورة لأهل الغناء والدفء واللهو ، وحدهم ، وهذا يمثل جانباً واحداً من بين عدة جوانب أخرى كانت في المجتمع ، لم يتحدث عنها صاحب الأغاني ، منها : أهل العلم ومجالس الفقه ، وجماعات الصوفية ، ومدارس الأدب ومجامع العلوم ، ومن هنا فقد كان من الظلم أن يعتمد عليه الباحثون في رسم صورة للمجتمع الإسلامى في عصره ، فيقال في ضوءه : انه كان عصر شك ومجون ، اعتماداً على حياة جماعة من الماجنين من أمثال أبى نواس وبشار وغيرهم ، في حين ينسى عشرات من أعلام الفكر والفقهاء والأئمة ، أمثال الحسن البصرى والشافعى ومالك والبخارى وغيرهم .

ويأتى بعد ذلك ، كتاب (ألف ليلة) ، وكتاب (كليلة ودمنة) ، وهما كتابان فارسيان هنديان فى الأصل ، أضيف الى الأول اضافات كثيرة مما يرويه الرواة من أساطير وأقاصيص وخرافات ، ليست فى جوهرها عملاً محققاً ، ولا علماً موثقاً فكيف يمكن أن تكون مرجعاً .

الحق أن المستشرقين ودعاة التعريب هم الذين ألحوا على هذه الكتب وأبوها الاهتمام ، وأعادوا طبعها ، وأذاعوا بها ، وحرصوا أولياءهم من التعريبيين أن يتحدثوا عنها ، وأن يحرصوا الباحثين على اعتمادها مراجع ، وذلك لأنها تفسد الحقائق وترسم صورة غير صحيحة ، ولا صادقة للمجتمع الإسلامى .

ومن المصادر التى تحتاج الى انتباه ويقظة : كتاب الإمامة والسياسة ، وقد وصفه السيد محب الدين الخطيب بأنه كتاب لقيط مجهول النسب ، وأن مؤلفه (ابن قتيبة) برئ منه ، ولم يذكر له مترجموه كتاباً بهذا الاسم ، فضلاً عن أن أسلوب القول فيه يخالف أسلوب ابن قتيبة فى كتاب المعارف ، وفى سائر كتبه ، والكتاب يشعر بأن مؤلفه كان بدمشق — وابن قتيبة لم يخرج من بغداد — إلا الى الدينور .

والمؤلف يروى عن ابن أبى ليلى ، وأبو ليلى كان قاضياً بالكوفة قبل موند (ابن قتيبة) ، بنحو مائة وعشرين سنة ، ويذكر فتح موسى بن نصير لمراكش ، وهذه المدينة شيدها يوسف ابن تاشفين بعد ابن قتيبة بمائة سنة .

فكتاب (الإمامة والسياسة) لا يجوز لمؤلف أن يجعله من مصادره .

وكذلك كتاب (المصنوعون به على غير أهله) ، المنسوب الى الإمام الغزالى ، فهو مكذوب عليه ، وقد صحح ذلك السيد المرتضى الزبيدى فى شرح الإحياء (الجزء الأول ص ٤٤) ، حيث قال : اعلم أنه عزى الى الشيخ كتب منها (المصنوعون به على غير أهله) قال ابن السبكي : ذكر ابن

الصلاح أنه منسوب إليه ، وقال : معاذ الله أن يكون له ، وبين سبب كونه محتاقا عليه ، والأمر كما قال ، وقد اشتمل الكتاب المكذوب على الغزالي على التصريح ، بتقديم العالم ونفى علم القديم بالجزئيات ، وهو ما يخالف آراء الغزالي في صفوة كتبه .

أما كتاب (رسائل إخوان الصفا) فهو جدير بوقفة مستأنية : ذلك أن هذا الكتاب قد خدع الكثيرين ، وحاول دعاة التغريب إسباغ صورة من البطولة والكرامة على موضوعه وكتابه ، وهم ما زالوا يرددون القول عن أهمية هذه الرسائل ، هادفين إلى تصوير الفكر الإسلامي وهو مكبل بقيود الإغريق ، وسلاسل اليونان ، وإن هذه الرسائل كانت عصارة هذا التأثير البالغ .

ومن الحق أن يقال إن : (الفكر اليوناني) ، بعد أن ترجم إلى العربية قد أحدث أثرا وهز بعض القيم ، ولكن هل استمر ذلك طويلا . وهل انهزم الفكر الإسلامي أمام الفلسفة الإغريقية كما انهزم الفكر المسيحي ومن قبله الفكر اليهودي . الحقيقة أن الفكر الإسلامي قد حطم هذه الدخائل وأعاد سيطرته مرة أخرى ، وعاد إلى الأصالة المتمثلة في مذهب أهل السنة والجماعة .

هذا فضلا عما ارتبطت به هذه الرسائل من تلك النظريات الفلسفية بالخصومة التي حمل لواءها أعداء الإسلام من الباطنية وبقايا المجوس لهدم الإسلام من الداخل .

ولذلك فإن أي عرض لرسائل إخوان الصفا لابد أن يكون واضحا معها ، إن جماعة إخوان الصفا الذين ظهروا في القرن الرابع الهجري بانحصرة ، إنما هم جمعية سرية من الباطنية والمجوس والزنادقة الحاقدين على الإسلام واللغة العربية ، ولهم صلتهم المريبة بالحركات السرية التي كانت تعمل على تقويض المجتمع الإسلامي ، ولم يكن إخوان الصفا ،

وهم في في سبيل وضع منهجهم ، مخلصين للإسلام أو الدولة الإسلامية ، بل كانوا على العكس من ذلك يمهدون للقضاء عليها ، ولذلك فقد عمدوا الى الفلاسفة اليونانية وأخذوا يجمعون بين الآراء اليونانية ونظريات أفلاطون وأرسطو وأفلوطين وفيثاغورس وغيرها ، وبين العبادات الشرعية الإسلامية في دعوة باطلة ، تقول ان الشريعة قد دنست بالجهالات ولا سبيل الى غسلها وتطهيرها الا بالفلسفة ، ويصفهم (أبو حيان التوحيدى) في كتابه (الإمتاع والمؤانسة) فيقول : زعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، وقال : انهم كتموا أسماءهم وبثوا رسائلهم في انوراقين ، وهبوها للناس وحفوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية والأمثال الشرعية ، والحروف المحتملة والطرق الموهمة ، وقال انها : خرافات وكتابات وتلفيقات وتلزيقات . ويقول أبو حيان : ان هذه الرسائل مبثوثة في كل فن بلا اشباع ولا كفاية ، ينكرون البعث بالأجساد (الرسائل ج ٣ ص ٧٨ و ج ٤ ص ٤٠) ويفسرون الآخرة والجنة والنار ، خلافا لما تواتر عند المسلمين ويقولون : هي للنفوس الشهيرة الهائمة فيما دون فلك القمر مع إخوانها من النفوس التي جهلت ذواتها في الحياة الدنيا ، ويفسرون الكفر والعذاب باطنيا وفلسفيا ، وتشتمل (أى الرسائل) على كثير من الآراء الخيالية ، بعضها متلقف من اليونان وبعضها وليد الأذهان . وبعضها تراث الكهان ، كأسرار الأعداد والتنجيم والفأل والزجر والسحر والعزائم والإيمان بطوالع النجوم وتأثيرها ، وموسيقى الأفلاك ونغماتها . وتشتمل كذلك على عقيدة الوحي والإمام المستور والتقية ، وفيها إعداد النفوس والعقول لدولة جديدة ، وإخطار بانتهاء الدولة العباسية وزوالها .

وبالاختصار فهي مجموعة غريبة من الحكمة والديانة والشعوذة والكهانة والسياسة ، تقوم على أساس الفلسفة اليونانية الطبيعية ونظرياتها وأوهامها وتنهال بانهيائها وليس لها أهمية كبيرة . ولولا الاضطراب الفكرى الذى كان يسود العالم في القرنين الرابع والخامس لما نالت هذا الاهتمام .

وقد أكد الباحثون أن هذه الرسائل كانت محاولة لوضع نظام جديد يحل محل الشريعة الإسلامية ، وقد أخفقت هذه المحاولة إخفاقاً تاماً فلم تنتج نظاماً علمياً ولم تنشئ مجتمعا يقوم على أساسها ، وهى مجموعة من الآثار التاريخية العتيقة التى لا تأثير لها فى الحياة ، ولا محل لها إلا فى المتاحف والمكتبات ، ويشير كثير من الباحثين إلى الفرق بين عمل إخوان الصفا وبين عمل الفلاسفة من أمثال : ابن سينا والفارابى فإن هؤلاء الفلاسفة قد حرصوا على التوفيق بين الفلسفة اليونانية والإسلام فى ضوء القرآن ، أما إخوان الصفا فلم يأخذوا الإسلام أساساً ، بل خلطوا الفلسفة اليونانية بالاديان المختلفة ، ولم يلتزموا بمفاهيم الإسلام ، ولذلك جاء مفهومهم فى (ذات الله) سبحانه وتعالى مفهوماً فاسداً . وقد وصفهم كثير من الباحثين بأن آراءهم مفككة خلطت الفلسفة والعلوم الرياضية والطبيعية بخرافات السحر والتنجيم ، وأسماز الغالين وحكايات كيلة ودمنة ، وقد أشار التوحيدى إلى أنه حملها إلى أبى سليمان المنطقى السجستانى وعرضها عليه فنظر فيها أياما وتبحرها طويلا ، ثم ردما إلى وقال :

« تعبوا وما أغنوا ، ونصبوا وما أجروا ، وحاموا وما ورودا وغنوا وما أطربوا ونسجوا فهللوا ومشطوا ففللوا » ، وقد أكد الباحثون بأن فلسفة إخوان الصفا ليست مستمدة من المصادر الإسلامية الأصيلة ، ولكنها مستمدة من فلسفات اليونان من ناحية ، وفلسفات المجوس وعبدة النيران والكواكب ، وجماع الزرادشتية والماتوية والمزدكية . وهم ينظرون إلى الأنبياء نظرة ملحدة فيرونهم كالحكماء ، وقد ادعوا أنهم إنما يريدون إعادة الوحدة إلى المسلم والنصرانى والمجوسى واليهودى والأفلاطونى والمشائى والنشائغورى ، هم فى الأغلب يمجدون المجوسية ويجعلونها أفضل الأديان ومن هنا يبدو خطرهم وإفسادهم من حيث إن الإسلام هو الدين الخاتم ، دين التوحيد الخالص ، المحرر من الوثنيات القائم على النص الموثق .

وهناك مصدر آخر خطير غاية الخطر هو كتاب (انساب الاشراف) للبلاذرى فهذا الكتاب طبع منه جزء فى ألمانيا عام ١٨٨٣ ، ثم تولى أحمد

اليهود الصهيونيين طبع جزء آخر منه عام ١٩٣٦ ، طبعه في اورشليم ، وقدم له بالعبرية ، ومن هنا جاءت شبهة هذا الكتاب المضطرب الذي اعتمد عليه بعض الباحثين امثال طه حسين ، في القول بان شخصية (عبد الله بن سبأ) شخصية وهمية ، وهذا يتفق مع مخططات اليهود في إنكاره والتهوين من شأنه ، وهو ما جرى على القول به مؤلف الفتنة الكبرى •

الفصل الثانى

تحفظات على :

دائرة المعارف الإسلامية والمنجد ، والموسوعة الميسرة .

إن من أخطر ما يواجه المثقفين المسلمين اليوم أن يجدوا بين أيديهم موسوعات ومؤلفات تقدم لهم الفكر الإسلامى من وجهة نظر « غربية نصرانية » تختلف اختلافاً أساسياً عن مفهوم الإسلام الأصيل ، وقد كتبت هذه الدراسات والموسوعات من خلال هدف واضح هو « تغريب » الفكر الإسلامى وترتيب مفاهيمه وإثارة الشبهات حول حقائقه .

يتمثل هذا فى عدد من دوائر المعارف التى نجدها بين أيدينا الآن ، فى كل المكتبات العامة وفى مكتبات الجامعات وكليات الآداب واللغة العربية ، وفى المعاهد التى يتعلم فيها أبناؤنا ، ونجد هذه الموسوعات ميسرة فى أيدي شبابنا فى كل وقت ، ومن هنا يكون الخطر لأن هذه الموسوعات الميسرة مسمومة فى كثير من موادها ، ولأنها تفتقر إلى المفهوم الصحيح الذى يتمثله الإسلام فى جوهره الحقيقى .

لذلك فإننا يجب أن نكون على حذر شديد فى مواجهة هذه الموسوعات التى نجد الآن فى المكتبات العامة منها :

— دائرة المعارف الإسلامية .

— قاموس المنجد .

— الموسوعة العربية الميسرة .

— يقظة العرب •

— شمائل المصريين المحدثين •

هذه الموسوعات زائفة من حيث انها مقدمة بأقلام مستشرقين متحيزين ، لبعضهم صفة الولاء الكنسى ، والآخرون لهم صفة الولاء الاستعمارى والصهيونى والماركسى ، وهى قد كتبت أصلاً لتقدم للشباب العربى ، الذى يعدونه للعمل فى الأقطار العربية والإسلامية ، من حيث يشكلونه على مفاهيم معارضة لحقائق الإسلام ، ليكون ذلك وسيلة لعملهم فى تشويه حقائق الإسلام وإلقاء السموم وإثارة الشبهاب •

وقد غلبت عليها أهداف مضمرة وراء العرض الذى يحمل طابعاً علمياً زائفاً يمكن أن يصل — مع التحليل الواضح — الى أن يكون مجموعة من الأهداف التلمودية أو المطامع الماسونية وتعاليمها المبتوثة وراء الكلمات البراقة ، والعبارات الخادعة التى تستهوى نفوس الشباب الغض ، فى مرحلة سابقة لاكتمال ثقافته الإسلامية ونموه الأخلاقى ، كما اهتمت بإبراز البدع الدخيلة على الإسلام والتوسع فيها باستفاضة كبيرة ، كأنها أصول مقررة فى حين يبرأ الإسلام منها وما جاء إلا لمحاربتها •

أولا — دائرة المعارف الإسلامية :

وضعت دائرة المعارف باللغات الأوروبية فى دوائر الاستعمار والاستشراق والتبشير ، بهدف أساسى هو أن تكون مادة فى أيدي الخبراء والمبعوثين الذين ترسلهم دوائر وزارات الاستعمار الى عالم الإسلام والعروبة ، ولذلك فهى تنضح بالحق والتعصب والشكوك والاضطراب ، وقد كتبها جهابذة التبشير والاستشراق وحملوها كل خصوماتهم وأحقادهم •

وقد لفت الباحثون المنصفون النظر الى أخطاء دائرة المعارف عندما (م ٢ — سموم الاستشراق)

أراد أن يترجمها نفر من الكتاب في الثلاثينات ، فقد تصدى لهم أكثر من باحث منصف يعارض خطتهم ويطالبهم بتصحيح تلك الأخطاء في صلب البحث ، ولكنهم اكتفوا بالتعليق على هذه التسهات في الهوامش ، فقوتوا كثيراً من الحقائق على القارئ المتعجل الذي لا يعنى بالرجوع الى الهامش .

وقد أشار العلامة فريد وجدى الى ظاهرة خطيرة في هذه الموسوعة ومى : سيطرة البدع الدخيلة في الدين الاسلامى على مواد الموسوعة باستفاضة مثيرة ، حتى ليظن الباحث أنها من أصول الاسلام . وقد أمعن مؤلفو الدائرة في تسجيلها وشرحها كأنها حقائق مقررة ، في حين تسطر هذه البدع على أنها من المعارف الاسلامية . فان الاسلام يبرأ منها وهو ما جاء إلا لمحاربتها .

وأشار العلامة وجدى الى « القصد المتعمد في الجمع بين أساطير البدع وحقائق الشريعة وقال : ان أكثر كتاب الدائرة قسس مبشرون يهتمون أن يتحيفوا الاسلام لا أن ينصفوه ، وقليل منهم من يتصف بالشجاعة العلمية فيتغلب على عناصر التعصب ، وليس كتاب الدائرة وحدهم من هذا النمط ، بل جل المشتغلين بالدراسات الاسلامية في الغرب لا يتجاوزون صناعة التبشير تعرفهم من لحن القول ، ومنهم « توماس باترك هيوز » صاحب قاموس الإسلام ، وهو مرجع متداول لا تكاد تخلو منه مكتبة أوربية .

وقد قضى القس المؤلف في وظيفته التبشيرية ببلاد الهند بين المسلمين والبرهمنين والبوذيين أكثر من عشرين سنة ، وجمع ونشر معجمه هداية للموظفين الإنجليز الذين يتولون الحكم ببلاد الهند في أواخر القرن الماضي . ومساعدة للمبشرين بالنصرانية ممن يحاورون علماء الإسلام والباحثين في الأديان المقارنة .

وأشار الباحثون الى أن أهم نواحي الخطر في هذه الدائرة : أن ما يترجم منها لا يتعرض بالتحليل والإيضاح لما فيها من أخطاء وشبهات ،

وأعما تسطر البدع الدخيلة على الإسلام باستفاضة مثيرة ، وقد أمعن مؤلفو الدائرة في تسجيلها وشرحها وكأنها أصول مقررة لا بدعا دخيلة •

ومن المصادر التي اعتمدتها دائرة المعارف : كتاب شمائل المصريين الذي كتبه المستشرق إدوارد وليم لين عام ١٨٣٥ عن المصريين ، وقد أصبح هذا الكتاب أحد المراجع الهامة لمؤلفي دائرة المعارف ، ينقلون عنه الخرافات: وكأنها حقائق •

وقال أحمد أمين : إن نظرة المستشرقين في دائرة المعارف هي نظرة خاصة تختلف عن النظرة التي ينظرها المسلمون ، وبعضهم كان متعصبا يمزج تعصبه ببحث كما فعل الأب لامنس في بعض ما كتب •

وقال العلامة تقى الدين الهاللي : إن في دائرة المعارف الإسلامية أخطاء ودسائس ناشئة عن التعصب الأوربي وفي بركلمان مثل ذلك وأقبح •

وقد وجه دكتور محمد يوسف زايد النقد الى دائرة معارف البستاني فقال : إن الدائرة بشكلها الحاضر لم تحقق ما هدف اليه ناشرها ، وما ينتظره منها القارئ العادي الذي لا يستطيع أن يطمئن الى دقة معلوماتها ، كما أنه لا يجد في كثير من موادها الترابط بين الأجزاء الذي يسبغ على المادة وحدتها ، كما أنه أيضاً لا يجد المراجع الضرورية لبحثه فضلا عن المتخصص الذي لا تروى مواد الدائرة غلته بطبيعة الحال •

ويقول السيد محمد رشيد رضا : إن في هذه الدائرة عيوباً علمية وتاريخية ، أهمها : أنها لم تكتب لتحقيق المسائل التاريخية والعلمية لذاتها ، بل لأجل بيان آرائهم وأهوائهم والإعلام بما سبق لهم ولعلمائهم فيها من بحث وطقن في كتبهم ورسائلهم المتفرقة •

وكان على الذين شرعوا في ترجمة هذا المعجم وضع حواشي لتصحيح

ما فيها من الأغلاط التاريخية والعلمية والدينية ، وبيان الحق فيها دسوه فيها من عقائدهم وآرائهم الباطلة ، وذلك منوط بالعلماء الأخصائيين .

أقول ولا أخشى — لا آثمًا ولا مخالفًا — : إن نشر هذا المعجم باللغة العربية كما كتبه واضعوه بدون تطبيق على ما فيه من الأغلاط والمطاعن ومخالفة الحقائق هو أضر من شر كتب دعاة المبشرين وصحفهم ، لأن هذه كلها لا تخدع أحدا من أعلام المسلمين بما فيها من الباطل ، أما هذا المعجم المسمى بدائرة المعارف الإسلامية المعزو أكثر ما نقل فيه إلى كتب المسلمين ، فإنه يخدع أكثر القارئ له ممن يعدون من خواص المتطمنين ، لأنه يقل فيهم من يفرق بين الحق والباطل مما فيه ، ويقل فيهم من يعلم أن مؤلفي هذه الدائرة من خصوم العرب والإسلام واللغة العربية .

وقال الأستاذ : محمد كرد علي : إن هذه الكتب فاتتها كثير من رجال الإسلام المتقدمين والمتأخرين ، ومن هؤلاء من هم أحرىء أن يترجم لهم باطول مما ترجموا .

وإن في بعض المقالات نزعة من التعصب كمقالات البلجيكي (لامنس) والروسي (غرا تشكوفسكى) ومقالات (هوار الوتشي) الموجزة إيجازا مخلأ اليق بها أن تكون فهرسا من أن تنشر في مطبعة يقصد بها التقصى .

وقد فات هذه المطبعة كثير من رجال الإسلام ، ومنهم عبد الحميد الكاتب ، وأحمد بن يوسف الكاتب ، وأحمد بن يوسف (ابن الداية) ، وعمرو بن مسعدة ، وعبد القادر الجرجاني ، وعلى بن عبد العزيز وأبو عبيد القاسم ابن سلام ، وأبو هلال العسكري ، وأبو أحمد العسكري ، وصالح بن جناح ، وابن الحناط الكفيف ، وابن خاتمة الأندلسي ، وابن عنين ، وابن الصيرفي ، والوهراني ، وملك اليمن المؤلف عمر بن يوسف ، وعمارة بن حمزة ، وابن طولون الصالحى وابن عبد الهادى وغيرهم .

ثانيا : قاموس المنجد :

قاموس المنجد يشتمل على قاموسين : قاموس للألفاظ اللغوية وهذا ليس موضع المناقشة الآن وإن كان عليه لغوياً مآخذ كثيرة ، وقاموس أطلق عليه (معجم الآداب) إعداد فردنيان توتل ، وهو القاموس الحافل بالأخطاء والشبهات ، والذي عرض له عديد من الباحثين وكشفوا عن أخطائه ، وفي مقدمتهم العلامة عبد الله كنون الذي نشر في مجلة دعوة الحق المغربية أكثر من عشرة فصول عنه تضم أكثر من أربعمئة خطأ شائع ، تاريخي وعلمي ، وقد قرأت أول تخطئة للمنجد في مجلة الفتح عام ١٩٢٦ و ١٩٢٧ •

وقد أحصى المرحوم الأستاذ عبد الستار فراج في بحث له في مجلة العربي للمنجد مائة خطأ تاريخي ولغوي وجغرافي من الأخطاء الصارخة : مما يجب أن يحذف أو يصحح أو يصاغ بطريقة تبرئه من الشك والإبهام • وأشار الى أن المؤلف قد اعتمد على دائرة المعارف الإسلامية التي وضعها كبار المستشرقين وعلى كتاب التمدن الإسلامي لجرجي زيدان ، وعلى كتاب بروكلمان (تاريخ الشعوب الإسلامية) •

وأسوأ ما في القاموس مادة (محمد) صلى الله عليه وسلم ، وهي في عباراتها تتضح بالتعصب والحققد وفساد المنهج والبعد عن العملية والإنصاف •

يقول : محمد نبي المسلمين من بني هاشم تزوج من خديجة ورزق منها

فاطمة ، دعا الأعراب الى الإسلام ، وانتصر على المكين في بدر ولكنهم غلبوه في أحد فحاربهم في حنين ودخل مكة ظافرا (١) .

ولا شك أن قاموس المنجد من أخطر القواميس التي في كل الأيدي والمحملة بالأخطاء ، وخاصة فيما تحاول أن تدخله الى الألفاظ العربية من مصطلحات كنسية وطائفية ولاهوتية وهي ألفاظ ليست عربية أصلا ، فضلا عن أنه يفسرها تفسيراً لا يتفق مع مفاهيم الإسلام ، ويبدو من مراجعة المنجد في جانبيه اللغوي والتاريخي أن هناك محاولة خطيرة لإدخال تعابير واصطلاحات غير عربية ولا إسلامية ، وأغلبها كنسية ولاهوتية وفرضها على اللغة العربية ، ومن ذلك عبارة (جدف) وهو اصطلاح كهنوتي لم يذكره أهل اللغة ، وكلمة (قدس) وقداش مما يورده الكهان النصارى .

وفي دراسة مستوعبة للأستاذ عبد الله كنون صدرت تحت عنوان : « نظرة في منجد الآداب والعلوم » معهد الدراسات العربية عام ١٩٧٣ يقول : « وفي نظرنا أن المسئول عن الأخطاء الكثيرة التي يحتويها هذا المعجم هو المصادر التي اعتمد عليها المؤلف فهي جميعا مصادر غير أصيلة لأنها تتراوح بين مصادر أجنبية ومصادر محدثة » حيث اعتمد على دائرة المعارف الإسلامية ، ومجاني الأدب ، للأب شيخو ، وتاريخ التمدن الإسلامي لجرجي زيدان ، وتاريخ الآداب العربية لبروكلمان ، وهذه كلها مراجع غير موثوق بها . . . » .

وها نحن أولا نرى أنه ليس من بين هذه المصادر مرجع أصلي من الكتب العربية القديمة المعتمدة في كثير من المواد التي يشتمل عليها

(١) وهذا كله كلام مختلط حاقد لا صحة له تاريخيا .

المعجم ، أضيف الى ذلك أن الترجمة من المصادر الأجنبية كثيراً ما يغير بها لفظ الشيء المترجم ، وخاصة اذا كان اسم محل أو شخص غريب لا علماً للمترجم له فلا ينفع في هذه الحالة إلا الرجوع للمصادر الأصلية التي تورده على وجهه ، ولا يقال إن هذه هي أهم المصادر ، ثم مصادر لم يذكرها المؤلف ومن المحتمل أن تكون من الصنف الأصيل لأنه لو كان شيء منها معتمداً عنده لإشار له أو لبعضه على الأقل .

وقد أشار بعض الباحثين الى أن من أكبر أخطاء المنجد سكوته عن بعض الحقائق ، كموقفه من مسيئة الكذاب حيث يقول عنه : مسيئة من بنى حنيئة في اليمامة عاصر محمداً - صلى الله عليه وسلم - وعرض عليه أن يشاركه النبوة فقتل في موقعة عقرباء ، ولم يذكر أن نبوته كاذبة ، على سبيل التلميح بأنها صادقة ، أو ما يذكر عن جعفر بن يحيى البرمكي ويصفه بأنه زوج العباسة أخت الرشيد ، وهذا الزواج لا حقيقة له ، إنما هو أسطورة ظهرت بعد مقتل البرامكة بعشرات السنين .

ثالثاً : الموسوعة العربية الميسرة :

وجهت الى الموسوعة العربية الميسرة (التي قدم لها الأستاذ شفيق غريال) انتقادات شتى ، وجملة ما قيل عنها إنها دائرة معارف أجنبية (وهي في الواقع دائرة كولومبيا) ، وقد ترجمت الى اللغة العربية دون تقدير للتاريخ العربي الإسلامي وحقائقه ودون تقدير حاجة الباحث العربي ، فهي لا تحمل مطلقاً أى وجهة نظر عربية لما تناولته من موضوعات ، وهي تتنكر أساساً للسنة الهجرية والتاريخ الهجرى في كل ما تورده من مواد وخاصة فيما يتعلق بعصر النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء .

فاذا عرضنا للمواد الإسلامية ، وجدناها ضعيفة جداً وفاترة ومدرسية الى أبعد حد ، وليس فيها من السعة والعمق ما نجده في المواد التي لا حاجة للباحث العربي بها ، هذا بالإضافة الى غلبة طابع

السيطرة الصهيونية على المواد وخاصة فيما يتعلق بفلسطين وتاريخ الأديان •

ومن المقارنة بين مادة (مسجد) ومادة (مسرح) نجد أن المسجد قد كتب عنه خمسة عشر سطراً في حين كتب عن المسرح « ١٧٠ سطراً » أما تصويرها لمادة شريعة ومادة صلاة ومادة صوم فهو تصوير بدائي وساذج •

وتضم الموسوعة بعض المواد التي اعتمد فيها على الإسرائيليات والروايات التي تضمها الكتب غير العلمية كمادة إسرائيل وأسوأ ما في الموسوعة أنها تحمل وجهة نظر اليهود في مختلف المسائل ، فهي تحاول أن تفرض على الباحث العربي مفهوماً خطيراً بالنسبة لفلسطين لا يتفق مع حقائق التاريخ •

ومن عجب أن باب الأديان والعقائد قد حرر تحت إشراف إبراهيم مذكور وأحمد فؤاد الأهواني وغيرهما ، وأن ثلثة من الكتاب المسلمين والعرب ذكرت أسماؤهم في المقدمة كمحررين لفصول الموسوعة •

هذا وتتنكر الموسوعة العربية الميسرة للسنة الهجرية تنكراً تاماً في كل ما أورده من مواد إسلامية وخاصة فيما يتعلق بعصر النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين •

رابعا : يقظة العرب (لجورج انطونيوس) :

ويعد هذا الكتاب من الكتب الخطيرة التي يجب الحذر من الاعتماد عليها في كتابة تاريخ العرب والإسلام الحديث وقد أشار بعض المستشرقين ودعاة التغريب بالاعتماد عليه ، فأفسدوا كثيراً من أبحاث الباحثين ، وإن المراجع لوقائع حياة جورج أنطونيوس لا يدهش من أن يكون كتابه خدمة للتيارات العربية وتركيزاً على الوقائع المشبوهة ، فهو

من مواليد دير القمر بלבnan ، ومن خريجي كلية فيكتوريا بالإسكندرية ،
ومن رواد جامعة كمبريدج ، وكان ملتحقاً بدائرة المعارف في حكومة الاحتلال
البريطاني في فلسطين ، شأنه شأن نجيب غازوري الذي يركزون على كتابه
(يقظة الأمة العربية) •

وقد غالى أنطونيوس في تصوير الدور الذي لعبته الجمعية العلمية
السورية ، التي أنشأها النفوذ الاستعماري داخل الكلية السورية الإنجيلية ،
والذي عده عاملاً أساسياً في نشوء القومية العربية ، في حين كان الانصاف
يقتضيه أن يعتبر هذه الجمعية السرية هي أول عامل محرك لدفع اللبنانيين
الى الانتفاض على الدولة العثمانية ، والمطالبة بحكم خاص تحت نفوذ
الدول الأجنبية وخاصة فرنسا ، وإن رفع لواء العرب في هذا الوقت
لم يكن من أجل وحدة العرب ، بل من أجل الانفصال عن دولة الخلافة •

وأبرز أخطائه ناشئة من تعصبه ضد السلطان عبد الحميد واتهامه
بما هو منه براء ، والتنكر لموقفه من الصهيونية ومن هرتزل ، الذي هو
من أشرف المواقف التي لا تغمط ولا ينبغي أن يتجاهله المؤرخ المنصف ،
ومن العسير أن يطلب من مثل جورج أنطونيوس في ثقافته وعقائده الدينية
والفكرية أن ينصف الدولة العثمانية أو السلطان عبد الحميد •

ولقد كشفت الوثائق الكثيرة التي ظهرت في السنوات الأخيرة من
الحقائق ما يجعل الكثير مما ذهب اليه أنطونيوس زائفاً وخاطئاً ، وأبرز
أخطائه أنه اعتبر (ناصيف اليازجي وبطرس البستاني) مبدأ اليقظة
العربية فضلاً عن إسماعيل الى عبد الرحمن الكواكبي •

من أجل هذا أصبح كتاب يقظة العرب من مراجع التفریب ، وعلينا
أن نقرأه في حذر ولا نأخذ على أنه من المصادر العلمية •

خامسا : شمائل المصريين المحدثين (إدوارد وليم لين) :

من أسوأ الكتب التى وضعت للطعن فى أخلاق الإسلام فى المجتمع الإسلامى العربى ، والخط من قدر حضارتهم ومجتمعاتهم ومهمتهم الأساسية ، هذا الكتاب الذى ألفه المستشرق (إدوارد وليم لين) وقصد به الى التقاط كل ما يتعلق بالخرافات والأساطير والعادات وتلفيقها فى صورة زائفة يراد بها تقديم صورة للمجتمع المصرى ، وهى صورة ليس فيها شيء من الحق أو الإنصاف وليس فيها أى قدر من الصدق أو التحقيق العلمى ، وكان إدوارد لين قد قدم الى مصر عام ١٩٢٥ للعلاج من ذات الصدر ولدراسة آثار المصريين القدماء ، واتخذ له منزلا فى بعض الأحياء الشعبية وادعى الإسلام وألقى على نفسه اسم (منصور أفندى) ولبس ملابس الأتراك ، وبذلك أحاط نفسه بجو من الثقة مكّنه من خداع الوطنيين وتحقيق هدفه فى تجميع خيوط وهمية نسبها الى الإسلام ، فقد أخذ يتصل بالطرق الصوفية وموالد الأولياء ويجمع ما يردده العامة من أحاديث الخوارق والخرافات والبدع ، ثم صنع من هذا كله دراسة فى جزأين كبيرين شفعها بمجموعة من رسوم ريشته للأزياء والعمائر ، كانت كسبا ضخما لدوائر الاستشراق فى أوربا ، إذ بلغ الاهتمام بها قدرا كبيرا جدا ، وتناقلتها اللغات المختلفة واعتبرت لدى المستشرقين والمبشرين مرجعا يعتمدون عليه ، وقد عنيت دائرة المعارف الإسلامية التى أنشأها متعصبو الاستشراق بهذا الكتاب ، واعتبرته مرجعا تنقل منه الخرافات على أنها حقائق ، وقد جرى هذا الجرى الأستاذ أحمد أمين حين لبى نداء هؤلاء العتاة فى إنشاء قاموس « للعادات والتقاليد الشعبية » ونقل كثيرا مما كتبه « لين » وجرى مجراه فكان ذلك من الأمور الخطيرة الأثر البعيدة عن التحقيق العلمى .

الفصل الثالث

تفسير التاريخ الإسلامى

بمقاييس مادية وافدة ؟

هناك عدد من المذاهب العرقية تفسر التاريخ ، بعضها يعتمد على العوامل التاريخية أو الجغرافية أو الأجناس ، وكل تفسير من هذه التفسير يعطى قيمة معينة ، ويجعلها أساساً ومصدراً ، ويخفف من العوامل والقيم الأخرى •

وأشهر هذه المذاهب « التفسير المادى للتاريخ » ، الذى يعتبر أن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام ، والذى يرى أنه لا توجد قيم أصيلة أساسها الدين أو الأخلاق أو التقاليد ، وعيب هذا المذهب أنه يتجاهل جانب المعنويات الحقيقية ، والقوى الذاتية للشعوب •

أما تفسير الأجناس فيرد كل العوامل الى الدماء ، والرسوس (الأعراق) وتفاعلها •

نماذج من تفسير التاريخ :

١ - عند النصرانية :

وللعلامة « والفرد كانتول سميث » ، نظرة جديدة بالاعتبار فى التفريق بين النظرة المادية والنظرة الروحية والنظرة الإسلامية فى فهم التاريخ •

وعنده أن النظرة الروحية ، فى نطاق الاعتقاد النصرانى ، مثلاً ،

يعيش النصرانى فيها بشخصية مزدوجة ، أو عالمين منفصلين لا يربط بينهما رباط ، والمثل الأعلى عنده غير قابل للتطبيق ، والواقع البشرى المطبق في واقع الأرض منقطع عن المثل الأعلى المنشود . ويسير هذان الخطان في نفسه متجاورين أو متباعدين ، ولكن بغير اتصال أو التقاء ، والتاريخ في نظره هو نقطة ضعف البشر وهبوطه وانحرافه .

٢ - عند الهندوكية :

وفي مفهوم الهندوكية (وهى نظرة تعتبر جدلا روحية أيضاً) يقول إن الرجل الهندى لا يابى للتاريخ ولا يحس بوجوده ، لأن التاريخ هو ما سجله البشر من أعمال في عالم المادة وعالم الحس .

والهندى مشغول دائما بعالم الأرواح ، عالم اللانهاية ، ومن ثم فكل شيء في عالم الفناء المحدود لا قيمة له عنده ، ولا وزن ، والتاريخ بالنسبة له شيء ساقط من الحساب .

٣ - المادية الجدلية :

أما في المذاهب المادية كالماركسية مثلاً ، فهو الإيمان بحتمية التاريخ ، بمعنى أن كل مرحلة تؤدي الى المرحلة التالية بطريقة حتمية ، ولكن لا يؤمن إلا بهذا العالم ، المحسوس ، بل لا يؤمن في هذا العالم ، إلا بالمذهب الماركسى وحده ، وكل شيء عداه باطل ، والماركسى يتبع عجلة التاريخ ، ولكن لا يوجهها ، ولا يقيسها بأية مقاييس خارجة عنها .

تحليل الإسلام للتاريخ :

أما في الفكر الاسلامى ، فىرى « والفرد كانتول سميث » ، وهو صادق في هذا الراى : أن المسلم يحس بالتاريخ إحساساً جاداً ، إنه

يؤمن بأن الله قد وضع نظاما عمليا واقعيا ، يسير البشر في الأرض على مقتضاه ، يحاولون دائما أن يصوغوا واقع الأرض في إطاره ، ومن ثم فهو يعيش كل عمل فردى أو جماعى ، وكل شعور فردى أو جماعى بمقدار قربه أو بعده من واقع الأرض ، لأنه قابل للتحقيق .

والتاريخ في نظر المسلم : هو سجل المحاولة البشرية الدائمة لتحقيق ملكوت الله في الأرض ، ومن ثم فكل عمل وكل شعور — فرديا كان أو جماعيا — ذو أهمية بالغة ، لأن الحاضر نتيجة الماضى ، والمستقبل متوقف على الحاضر .

فالمفهوم الإسلامى واضح الإيجابية ، فبينما غير المسلم يضفى بنفسه لأنه لا يريد أن تمر عجلة التاريخ الخاطئة ، وهو حى وسامح لها بالمرور ، فهو يقف في طريقها حتى تدوسه وتقتله ، ويكون ذلك أعلى قربان يتقدم به الى الله .

فإن المسلم حين يضفى بنفسه ، ففى حسه أن هناك نظاما إلهيا يراد أن يطبق فى واقع الأرض ، وفى حسه وهو يضفى أنه يدفع عجلة هذا النظام خطوة الى الامام « ١٠ هـ ٠ » .

* * *

منابع التفسير الإسلامى :

ومن الحق أن يقال إن الفكر الإسلامى له تفسير للتاريخ يختلف عن التفسير الغربى المادى ، والشرقى الروحى ، على السواء ، وإن التفسير الغربى لا يصلح لفهم التاريخ الإسلامى .

فالتاريخ الإسلامى لا يمكن فهمه أو تفسيره إلا على ضوء النظرة الإسلامية للحياة الإنسانية ، وكل تفسير يقوم على غير هذا الأساس

فهو ضرب من الخطأ العلمى ، لا يجوز أن يرتكبه باحث جاد ، أو مؤرخ
يبتنى وجه الحق وحده .

ولذلك فإن كل مؤرخ عربى يفسر التاريخ الإسلامى وفق منهجه
الغربى ، يقع فى الخطأ ، الذى يتمثل فى بعده عن ظاهرة أساسية ،
هذه الظاهرة هى وحدة المناهج الإسلامية والفكر الإسلامى فى مختلف
فروعه وتكاملها .

بينما يؤمن الفكر الغربى بتجزئة هذه المفاهيم والفصل بين الله
والطبيعية والعلم والدين .

أما روح الفكر الإسلامى وحضارته وتاريخه فتقوم أساسا على وحدة
الكون وانسجام قوى الطبيعة وأقسامها كما قدرها خالقها ، وذلك
بحسبان أن الإسلام هو النظام الوحيد ، الذى يحقق هذا الانسجام
لأنه يجمع بين الإيمان بالروح والجسد فى نظام الدين والسماء والأرض
فى نظام الكون ، ويسلكها فى طريق واحد ، هو الطريق الى الله .

وإن الإسلام - والإسلام وحده - هو الذى يجمع بين العلم
والدين ، فى وحدة تامة غير متناقضة ، ومن هنا ، فإن تطبيق منهج
التجزئة الغربى يحول بين الباحث وبين الوصول الى الحقيقة ، ويجعل
الأمر أمامه مضطربة غامضة .

هذا من ناحية الفكر الغربى . أما المفهوم المادى ، فىرى ما يرى
الدكتور « تريتون » فى كتابه (الإسلام : عقيدته ومبادئه) : اذا صح
فى القول ، أن التفسير المادى يمكن أن يكون صالحاً فى تعليل بعض الظواهر
التاريخية الكبرى ، وبيان أسباب قيام الدول وسقوطها ، فإن هذا
التفسير المادى ، يفشل فشلا ذريعا حين يرغب فى أن يعكس وحدة
العرب وغلبتهم على غيرهم ، وقيام حضارتهم واتساع رقعتهم وثبات
أقدامهم ، فلم يبق أمام المؤرخين إلا أن ينظروا فى العلة الصحيحة

لهذه الظاهرة الفردية ليوا أنها تقع في هذا الشيء الجديد : ألا وهو الإسلام • ويقول (ايان وايد غراى) :

إن نظرة المسلمين الى التاريخ نظرة بناءة ، فهم يرون أن البشرية اذا اعتقدت تعاليم الوحي — القرآن — فإن إرادتها حينئذ تتطابق مع إرادة الله •



وحاول كتاب الماركسية تفسير التاريخ الإسلامى بمفهوم « صراع الطبقات » وفشلوا فى ذلك لأنهم — كما يقول الأستاذ محمد كسبة — لم يستوعبوا مضمون الرسالة الإسلامية •

إن الصراع الذى ثار بين المسلمين وبعضهم البعض ، والذى اتخذه الماركسيون دليلا على صحة دعواهم ، إنما كان صراعا ذا طابع سياسى ، ولم يكن صراعا طبقيًا تغلبت بموجبه طبقة على أخرى ، أو فئة على أخرى •

والخطأ الذى وقع فيه الشيوعيون أنهم نظروا الى التاريخ بنصف عين ، ذلك أنهم لم يقرءوا التاريخ الإسلامى كله ، كما أنهم لم يقرءوا التاريخ البشرى •

وكل الذى فعلوه أيهم ساروا على نهج إمامهم ماركس حين تخير أحداثا بعينها من تاريخ البشر ، وأطلقها على التاريخ كله ، فقد كانوا يقرءون ما كان يعينهم ، ويتفق مع أصول نظريتهم الأولى ، فى استخراج أفكارهم وأحكامهم وآرائهم ، فكل ما يثير انتباههم ، ويلفت أنظارهم ، هو منظر تلك الدماء التى تسيل على صفحات التاريخ •

ولم يكن ينفذ الى أنوفهم سوى رائحة الدم ، يسرون وراءها ، ويدللون عليها ، ويتبعون خيوطها ، ويستخرجون منها أحكاما ومبادئ ، وأفكاراً واستنتاجات يطلقونها على التاريخ كله ، مثلما فعل ماركس حين اعتمد في استنباط نظريته عن التاريخ ، على بعض مراحل التاريخ دون الأخرى .

وهنا سقطت دعوى اختلاق الصراع الطبقي وحتميته على المجتمع الإسلامى ، ذلك أن الإسلام لم يكن أساساً ، من إفراس النظام الطبقي في قريش ، ولم يكن الإسلام ديناً رجعياً يحفظ للظالمين والمستغلين أموالهم وامتنيازاتهم ، كما أنه لم يكن مخدراً للفقراء والمحتاجين والمعدمين يجعلهم في حالة تقبل ورضاً بفقرتهم وعجزهم ، بل دعا الى العمل والحركة والسعى على الرزق ، ومجاهدة النفس والمشركين والمستغلين .

وكان بحق حركة عدل ضد أعداء السماء والإنسان .

* * *

كذلك فإن الإسلام ما جاء نتيجة انقلاب عسكرى أو سياسى قام به مجموعة من الأفراد الذين يطلقون على أنفسهم ثواراً ، أو مجموعة من العسكر ، كما أنه ما جاء نتيجة انقلاب مناظر في توزيع الإنتاج وعلاقاته المتشابكة في قريش ، وإنما جاء كظاهرة فوقية مستقلة عن البيئة ، وجاء الإسلام من البداية مقررراً للمساواة في الفرص ، وضمان حق الكفاية لكل المواطنين ، وتحقيق التوازن الاقتصادى بين الفرد والمجتمع ، وجاء بمبدأ الملكية الخاصة والملكية العامة ، ومبدأ الاقتصاد الحر والموجه .

جاء بكل ذلك في لجزيرة العربية ، في وقت لم تكن ظروف الإنتاج وعلاقاته تدعو اليه بحيث يمكن أن يقال : إن ما حدث كان انبثاقاً من واقع اقتصادى وتحدى بذلك منطق الماركسيين التاريخى وحساباتهم المادية ، التى تحتم انبثاق كل انقلاب سياسى ، أو تغيير اجتماعى من انقلاب مناظر في نظام الإنتاج وعلاقاته .

وعليه فإن الصراع الذى ثار بين المسلمين يوماً ملاً ، ، والذى يتخذه الماركسيون حجة ودليلاً على صحة نظريتهم ، إنهم كان من أجل الحكم ، كان صراعاً سياسياً لا طبقياً ، ولا يقره الإسلام بحال من الأحوال ، فهو خارج عن منهج الإسلام وبعيد عن روحه السمحة ، ويبقى الإسلام بجوهره الأساسى الذى يشيع روح الإخاء والمصالحة بين المسلمين ، والذى يقرر فى صراحة : « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار » • ويقرر : (إنكما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم) [الحجرات : ١٠] •

ومن هنا فإن دعوى « صراع الطبقات ، التى يحاول دعاة الماركسية اليوم وأصحاب الفكر المادى والإلحادى إلصاقه بالإسلام ، وصولاً إلى تفريغ الدين الإسلامى من محتواه الروحى ، ومضمونه العقائدى ، إنما هى محاولة لن تجدى •

هذا من ناحية ، ومن ناحية القول بأثر العامل الاقتصادى فى توجيه التاريخ الإسلامى ، يقول الدكتور حسن شحاتة سفعان :

إن عوامل التقدم فى الشرق الأوسط إذا درست فى تطورها منذ العصور الإسلامية ، نجد أن العامل الاقتصادى فى هذا التأثير وفى تطورها ، لم يكن بأكثر أهمية من غيره ، بل على العكس كانت المثاليات الدينية والأخلاقية المستقاة من الإسلام أولاً ، ومن النصرانية ثانياً ، هى العامل الأول فى تشكيل النظم وتطويرها ، ثم يأتى العامل الاقتصادى كعامل ثانوى فى معظم الأحيان •

ويقول : إن نظرية ماركس فى المادية التاريخية خطأ محض ، فقد (م ٣ — سموم الاستشراف)

استنتج نظريته من استقراء بعض وقائع الاقتصاد الاجتماعى للدول الغربية • ويقول : إنه ينكر الدين والعوامل الروحية فى حين هما المحرك الأكبر لهذا التطور •

ومن خطئه الزعم بأن العوامل المادية هى العوامل التى تحدث الأثر الأكبر فى تشكيل النظم الاجتماعية الأخرى ، من دينية وسياسية وأخلاقية وتربوية •

ويقول : إن نظرية ماركس لا تنطبق على دول الشرق الأوسط وإن الدول الغربية إن صح أنها تطورت بحيث وصلت فى العصور الحديثة إلى دول تقدر المادة ، فإن ثمة دولاً بالعكس لم يطرأ عليها تطور يجعلها تضحي بالمثاليات الأخلاقية والدينية تحت تأثير العوامل المادية •



ومن أخطر الشبهات التى طرحها الماركسيون ، محاولة تصوير عهد الرسول — صلى الله عليه وسلم — والخلفاء الراشدين ، بأنها كانت بسبب الصراع بين اليمين واليسار فى الإسلام ، والاهتمام بالعمل الاقتصادى وتقديره فى النظر إلى أحدث التاريخ ، وعجزهم عن تعميق مفهوم التفسير الجامع للتاريخ الذى تؤثر فيه عوامل عديدة — الاقتصاد — واحد منها ولكنه ليس أهمها على التحقيق •

والإسلام له تفسيره التاريخى الذى يختلف عن التفسير المادى للتاريخ الذى قدمه ماركس ، وأخذت به الشيوعية ، والتفسير الدينى للتاريخ الذى قدمه (توينبى) ، والذى يقوم على استعلاء الحضارة

الغربية بالنصرانية ، وتفسير الأحداث وسير الأجيال في ضوء هذه التبعية ،
ومن هنا فقد وقف التفسيران من الإسلام موقفاً ظالماً •

ومن أخطاء تفسير توينبى : أنه يرى المجتمع الإسلامى حصيلة
اندماج مجتمعين متميزين فى الأصل ، هما الإيرانى والعربى ، ولو أنه
قال إن الإسلام صهر كل من آمن به فى مجتمع جديد ، وإنه استصفى
خير ما فى الحضارات القديمة مما يتفق مع مفهوم التوحيد ، لكان قوله
قريباً من الحق •

ولاشك أن أبرز مفاهيم التفسير الإسلامى للتاريخ ، هو إقامة
التوحيد والعدل والرحمة والإخاء البشرى ، وقيام المجتمع على أساس
الأخلاق دون تفرقة بين العناصر والدماء ، والقضاء على صراعها
والتفاخر بها •

ولقد كان من أخطاء التفسير الماركسى ، هذه التفرقة بين اليمين
واليسار ، وهى تفرقة لم يعرفها الإسلام •

الإسلام دعوة وليس ثورة

ومن أخطاء التفسير المادى للتاريخ تصور الإسلام على أنه
« ثورة » اجتماعية أو اقتصادية ، فى حين أنه كان الإسلام دعوة ربانية
وليست بشرية ، لها صفة المنهج الجامع الإنسانى الطابع •

ولذلك كان من أخطاء (عبد الرحمن الشرقاوى) ، تصور النبى —
صلى الله عليه وسلم — على أنه (رسول الحرية) ، أو أن الإسلام حركة
اجتماعية ، كما حاول (طه حسين) فى كتاب الفتنة الكبرى •

لقد أغفل عبد الرحمن الشرقاوى حادثة خروج النبى — صلى الله
عليه وسلم — من بيته ليلة تأمرت به قريش ، وحادثة التجائه إلى غار .

ثور ، ووضع الآية القرآنية مبتورة على ظاهر كتابة : (قل إنما أنا بشر مثلكم) فقط والحقيقة أن يكملها (يوحى إلى) وقصرها على كلمة : (مثلكم) إنكار للوحى ، ولا شك أن تجريد سيرة النبى — صلى الله عليه وسلم — من الوقائع المتواترة ، هو عمل من أعمال الغش الثقافى ، التى يراد بها إيجاد فرصة للتشكيك والارتياب ، فضلا عن أنه لم يورد كلمة (الوحى) إطلاقا فى كتابه ، ولم يذكر أن سر انتصار دعوة الإسلام هو أن قوة عليا تؤيدها وتساندها .

* * *

التفسير المادى للتاريخ

ويحاول التفسير المادى (الاقتصادى) للتاريخ أن يصور للناس أن ارتقاء المبادئ يسير إلى جنب الارتقاء فى الوسائل المادية . بينما واقع التاريخ يبين لنا خلاف هذا الأمر فى بعض الأحيان . بل فى كثير منها .

فإن تعلم الوسائل المادية والمعلومات العلمية يسير على خط غير الخط الذى تسير عليه المبادئ فى ارتقائها المزعوم .

ومصادقا لذلك نرى المبادئ البشرية تنتكس انتكاسات فظيعة . وبعضها ينادى بالهمجية الأولى وسبب الانتكاسات الفظيعة فى المبادئ البشرية أن الجماعة الأولى التى تمثل المبدأ البشرى الأول عندما تعلن الحرب على الجماعة الثانية التى تمثل المبدأ البشرى الثانى ، تشوه كافة أقطار المبدأ للجماعة الثانية ، فى حين تستفيد من الوسائل المادية والمعلومات العلمية ، بل قد تستعمل نفس الوسائل التى حصلت عليها فى حربها مع الجماعة الأخرى .

ذلك أنه ليس من مهمة الإنسان أن يقوم بوضع المبادئ والنظم حتى لا يحطم البشرية ، خصوصاً وأنه لم يخلق لهذا الأمر ، ولكن من المفروض أن تظل مبادئه في مستواها على الأقل إن لم تتقدم قليلاً ، بل الأصح أن تتقدم ولو قليلاً جداً ، وتستمر في تصحيح أخطائها كلما وانتها الفرصة ، وعند مراجعة ما قامت به بعض الجهات الإقليمية ذات الهوى والغرض بكتابة تاريخ الإسلام نجد أنها وقعت في مجموعة من الأخطاء التي يجب التنبيه عليها . وقد جمعها أحد الباحثين على هذا النحو :

أولاً : خطر التوسع في الأمور الصغيرة ذات الصفة الشخصية .
في حين تختصر الأعمال الكبرى العامة .

ثانياً : سيطرة الروح القومية على مفهوم التاريخ الإسلامى الجامع .

ثالثاً : التحدث عن الرسول — صلى الله عليه وسلم — كالتحدث عن نابليون وأخضاتون .

رابعاً : وضع كلمة (العرب) و (العروبة) بدلا من كلمة (الإسلام والمسلمين) . وهى توحى بتكرارها أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إنما بعث للعرب وحدهم . وتجريد النبى — صلى الله عليه وسلم — من طبيعته حتى يبدو وكأنه ليس أكثر من داعية أو مصلح سياسى أو اجتماعى ، وأن رسالة الإسلام لا تعدو أن تكون حركة إصلاحية .

ولا ريب أن روح العنصرية في كتابة التاريخ الإسلامى ، تتناقض تنافضاً تاماً مع الحقائق الأساسية ، لأن تاريخ الإسلام في عصر الراشدين والأمويين . كان تاريخاً للمسلمين كلهم . ولم يكن تاريخ العرب وحدهم وكان من أدوات بطولته البربر والأتراك و

خامساً : تجريد الدعوة الإسلامية من أساسها الفكري ورسالتها الأساسية ، وأعنى بها العقيدة الإلهية •

سادساً : اخفاء الروح الإسلامى التى لها أثرها التربوى فى النشء المسلم •

سابعاً : تجريد الممارك الإسلامية من نفحات النبى - صلى الله عليه وسلم - ومن تأييد الله - تبارك وتعالى - وقياسها بمقاييس مادية بحتة •

ثامناً : فى الهجرة ، أغفل المؤلفون جوانب رعاية الله ، وركزوا على عنصر الاختفاء ، وغفلة قريش ، وعدم رؤية أحد النبى - صلى الله عليه وسلم •

تاسعاً : فى موقعة عين جالوت تجاهل المؤلفون نداء : (وإسلاماه) •
عاشراً : عند الحديث عن معارضة قريش للإسلام ، ذكر أن السبب فى ذلك هو خوف قريش على مركزها التجارى وهذا تحليل ماركسى - فان قريشاً عرضت على الرسول صلى الله عليه وسلم التنازل عن كل شئ له ، على أن يتوقف عن دعوته الى توحيد الله ، ولكنه رفض ، ولقد كان الصراع صراع عقيدة ولم يكن الأمر اقتصادا •

حادى عشر : التركيز على الممارك وأهمال الجوانب الأخلاقية والحضارية الإسلامية ، فبدا تاريخ الإسلام وكأنه تاريخ غزوات وحروب •

ثانى عشر : حشد عدد كبير من الخلافات وتكثيفها ، وخاصة تلك الخلافات التى جرت بين على ومعاوية رضى الله عنهما ، وقد نتج عن هذا سبب بعض الصحابة رضى الله عنهم دون تمحيص علم ، ودون معرفة بالظروف كلها •

ثالثاً : تناول الحركات الانفصالية ، كحركة ابن طولون وابن

طنج الاخشيدى فى مصر على أنها حركات استقلالية ، والأولى تناول هذه الحركات على أنها حركات انفصالية يقف وراءها أشخاص مغامرون •

رابع عشر : يقولون : (التوسع العربى) ، وكأن الفتوحات الإسلامية توسعات استعمارية ، مع أن هناك فروقا كبيرة بين هذه وتلك •

خامس عشر : يقولون إن عمر بن الخطاب ولى عمرو بن العاص مصر مكافأة له ، فهل هكذا كان ييسوس عمر الأمور ، أم أن عمرو بن العاص كان جديراً بحكم مصر ؟ !! •

من هذا المنطلق ، يجب أن ننظر الى وقائع كثيرة فى تاريخ الإسلام •

الفصل الرابع

أخطاء في تفسير التاريخ الإسلامي الحديث والمعاصر

حاول كتاب الغرب تقديم تفسير مغلوط لوقائع كثيرة في التاريخ الإسلامي الحديث المعاصر كما عمدوا الى تصوير بعض الأحداث في التاريخ الغربى المعاصر بصورة تتعارض مع صورتها الحقيقية •

أما بالنسبة للقسم الأول : فقد حاول الغرب تصوير عصر ما قبل العصر الحديث بأنه عصر الانحطاط ، أو تصوير حركات التبشير في السيطرة على بعض البلاد الإفريقية ، بأنها نوع من الكشف الجغرافى ، أو الادعاء بأن مكتبة الإسكندرية حرقها المسلمون ، أو محاولة الدعوة إلى توحيد الأديان •

أما بالنسبة للقسم الثانى : فذلك فى محاولتهم خداع المسلمين والعرب للدخول فى الماسونية ، على أنها حركة تحرير ، أو تصوير الثورة الفرنسية على أنها حركة إخاء وحرية ومساواة حتى أعلن كمال أتاتورك نفس الشعار لحركته الانقلابية ضد الخلافة فى تركيا •

هذه المحاولات كلها يجب أن تكون واضحة فى أذهان شبابنا المسلم ، حتى لا تخدعه كتابات بعض التغريبين ، وبالرغم من أن هذه القضايا قد كتب عن حقيقتها كثير من كتاب حركة اليقظة الإسلامية ، فإن أقلام الشعبوية والماركسية ما تزال تردد هذه السموم ، وتجدد بثها واذاعتها ، ومن ثم يجب إعادة التذكير بوجه الحق فيها •

١ - عصر الانحطاط

وقد كان يمكن أن يطلق على ذلك العصر : عصر الضعف والتخلف ، غير أن هذا العصر بالرغم من تقاصر الخطوات الحضارية فيه • فقد حفل بنتاج ثقافى عظيم ، فثبت أن هذا العصر جمع بين عوامل الضعف وعوامل القوة •

حاول التغريب والفكر الاستعماري الغربى ، أن يصف مرحلة القرون الثلاثة السابقة للقرن العشرين بأنها عصر الانحطاط ، وهو تعبير قاس ظالم استخدمه بعض المبشرين المتعصبين ، وكان أول من ردهه فى الكتابات العربية (جرجى زيدان) •

أما وجوه الضعف فهو فى تأثير الفكر الإسلامى بالفلسفات الهندية والفارسية والمجوسية التى حملت مفاهيم معقدة مضطربة ، من أمثال وحدة الوجود وال طول والاتحاد ، وغيرها من المذاهب التى لا تتفق مع جوهر التوحيد الإسلامى ، والمفروض أن يحاكم الفكر الإسلامى الى أصوله الأولى وإلى إنتاج أعلامه الرواد ، ولا يحاكم الى إنتاج فترة الضعف التى توقف فيها الإبداع والتجديد والاجتهاد وغلب طابع التقليد فى كثير من الأحيان •

فالفكر الإسلامى فى جوهره الأصيل ما زال مضيئاً ايجابياً مشراً ، معطياً للأمم المختلفة والعصور المتعددة دفعات التقدم والبناء والحيوية •

أما وجوه القوة فهى تتمثل فى عملية « التجميع » التى قام بها المفكرون حيث ظهرت فى هذه الفترة « الموسوعات » التى جمعت الآثار المختلفة الموزعة على عديد من فنون الأدب والفقه والاجتماع ، وهى عملية رد فعل لما حدث نتيجة الغزو الصليبي والتترى من حرق وتدمير آثار الفكر العربى الإسلامى ، فقد عمد العلماء والأدباء الى عملية التجميع

كوسيلة لمقاومة هناء الفكر الإسلامى ، وهو عمل نافع إيجابى يدل على القوة لا على الضعف ، وإن وجه إليه النقد بأنه لم يحرر من وجهة التنسيق الفنى أو التحقيق العلمى • ولكن التقدير المنصف لاطار هذه الفترة وظروفها من شأنه أن ينصف العاملين فى هذه المرحلة ويقدر لهم هذا الجهد على اطلاقه •

٢- فتننة سنة ١٨٦٠ :

تحاول كتب التاريخ العربية وبحوث القوميات وغيرها أن تذكر فتننة سنة ١٨٦٠ على انها مؤامرة وقعت بين المسلمين والمارون ، اضطرت الدول الأوروبية إلى التدخل لإقامة نظام خاص فى لبنان •

ومن الحق أن يقال إن هذا التصور خاطئ من أساسه ، فلم يكن قبل بواذر النفوذ الأجنبى هناك أى خلاف من شأنه أن يوقع بين عناصر الأمة ، فقد كان المسلمون يرعون مختلف الطوائف والاقليات ، ويتيحون لهم حماية كافية لأداء طقوسهم ورعاية مصالحهم •

ولكن الحقيقة الأكيدة فى فتننة سنة ١٨٦٠ أنها مؤامرة دبرتها الدول الكبرى لعزل لبنان عن الدولة العثمانية وإعدادها كمنطلق لإتمام عزل العالم الإسلامى والبلاد العربية وإسقاط الدولة العثمانية •

وقد أكد هذا المعنى كثير من المؤرخين المنصفين فقد احتفت فرنسا بالموارنة وثبتت بريطانيا الدروز ، ووقفت كل دولة وراء واحدة من هذه القوى ، وأمدتها بالأسلحة وأغررتها بالطوائف الأخرى ، وأثارت بينها الخلاقات التى أجمت (فتنة ١٨٦٠) فلما وقعت الواقعة بين الموارنة والدروز

وقتل من قتل ، تدخلت فرنسا وبريطانيا باسم وقف المذابح وأرسلت بريطانيا وحدة مكونة من (١٢ ألف جندي) فسارعت فرنسا وأرسلت حملة قوامها (سبعة آلاف جندي) وفرض على الدولة العثمانية إقامة نظام خاص في لبنان يمنحه الاستقلال الذاتى تحت رئاسة حاكم نصرانى تختاره الدول الأوروبية ، ويصدق عليه السلطان العثمانى .

وقد ثبت ذلك كله فى تقرير السير ريتشارد وود قنصل إنجلترا إلى ناظر الخارجية ، الذى نشرته الدولة الإنجليزية فى الكتاب الأزرق سنة ١٨٧٨ •

قال : « والذى يبحث بحثاً دقيقاً فى أسباب الفتنة التى سفكت فيها الدماء فى المشرق ، يعلم أن الباعث الوحيد على حدوثها ، هو منبع السياسة الأجنبية التى تنتهز الفرص لإيقاد نار الفتنة بين ذوى الأحقاد ، ولو لم يكن أولئك المفسرون يحسبون أن هذه الفتنة تجر إلى القتل والفظائع •

ومن هذا القبيل واقعة « الدروز والموارنة » وواقعة الصقلية والبلغاريين وقد تبين أن الاعتداء إنما كان يبتدىء من جانب النصارى •

هذا والمعروف أنه لم تلبث البعثات التبشيرية بعد هذا الحادث أن هرعت الى بيروت وأقامت معاهدا وإرسالياتها فى محاولة لفرض نفوذ ثقافى غربى على أبناء المارون •

وقد بدأت الإرساليات الفرنسية هذا العمل ولحقت بها البعثات الأمريكية ولم تلبث بعد قليل أن أصبحت مصدراً خطيراً لصدور صحفيين وكتاب إلى مصر ومختلف أنحاء العالم العربى ، ومما يذكر أن سركييس وصروف ونمر ومكاريوس وزيدان وفرح انطون وشبلى شميل كانوا هم الدفعة الأولى من خريجى هذه المعاهد ، وهم الذين تصدروا الصحافة العربية فى مصر وسوريا ولبنان وكانوا أصحاب الحملة العنيفة

على الدولة العثمانية وعلى السلطان عبد الحميد ، وهم الذين مهدوا
للفوز الاستعماري والصهيونية ولفصل العرب عن الترك وتقسيم
البلاد العربية بين الصهيونية وفرنسا وإنجلترا .

٣- مؤامرة الكشف الجغرافي :

أطلق الغربيون تعبير الاستكشاف على الحملات الاستعمارية
والتبشيرية التي قامت بها فرنسا وإنجلترا وغيرها في القارة الإفريقية ،
بدعوى أنها كانت مناطق مجهولة ، وأن أمثال « ولفنجستون » و « صمويل
بيكر » وغيرها إنما كانوا مكتشفين رواداً ، في حين تؤكد الحقائق أن
المؤرخين العرب قد جاسوا خلال تلك المناطق وكتبوا عنها في مؤلفاتهم ،
فقد وصل « ابن بطوطة » إلى أعلى نهر النيجر وإلى تمبكتو وسكوتو ،
قبل أن يصل إليها (الرواد الأوروبيون) وكان أول من أشار إليها
وذلك بنحو ثلاثة قرون .

ويحاول الاستعماريون أن يرددوا هذه الشبهة وأن يفرضوها على
كتب المدارس في البلاد المستعمرة ، مدعين أنهم اكتشفوا الهند مثلاً ،
وكانت الهند معروفة في القارة الأوربية في العصور القديمة ، وذلك قبل
وصول « ماركبولو » ١٢٥٤ - ١٣٢٤م الذي وصل إلى فارس وأفغانستان
وبكين والتبت ، أو فاسكودي جاما الذي أبحر حول إفريقيا ١٤٩٧م ومنها
إلى الهند يضاف إلى هذا ذلك الادعاء الذي رددته الاستعمار من أن
(صمويل بيكر) هو الذي اكتشف منابع النيل الأبيض ، مع أن هذه المنابع
لم تكن مجهولة في وقت ما ، وكانت الحقيقة تفرض أن يقال إنه أول
من وصف هذه الأصقاع ، أما الذين قادوه إليها فهم رجال الحملة
المصرية .

والواقع أن ما وصف بأنه رحلات الكشف هذه لم يكن إلا خطة
الاستعمار التي فرضتها الدول الأوربية وفي مقدمتها (إسبانيا والبرتغال)

بعد تحررها من النفوذ الإسلامي في الأندلس في محاولة الانتقام بتطويق عالم الإسلام وتشويه تاريخه .

وقد أشار ولفنجستون في إحدى كتاباته إلى هذا المعنى حين قال :
« إن نهاية الاكتشاف الجغرافي هي بداية العمل التبشيري » فإن الإرساليات التبشيرية كانت تتحرك وراء هؤلاء الرحالة ، الذين كانوا في الأصل دعاة ومبشرين ، وليس هذا استنتاجاً وإنما هو نص من مصادر تاريخية مدعومة بالأسانيد . يقول رولاند أوليفر في كتابه (العامل التبشيري في شرق إفريقيا) ما يأتي بالنص :

« ولقد أعد ولفنجستون نفسه منذ سنواته الأولى حينما كان يعمل في جمعية التبشير اللندنية للاضطلاع بمشاغل التبشير الخاصة بإفريقية الاستوائية ، وبالفعل بين شعوب فطرية في بلاد لم يكن قد سكنها الأوروبيون ، وفي عام ١٨٤٩ كان ولفنجستون لا يزال يفكر بطبيعة الحال في التجارة أكثر من الاستعمار ، وبما أنه كان أولاً وقبل كل شيء مبشراً نصرانياً ، فلقد اختار كعضو في هذه الحركة التبشيرية أن يبحث عن نهر تستطيع السفن أن تمر فيه إلى داخل البلاد ، ولقد أراد ولفنجستون أن يستكشف طرقاتاً في إفريقيا للمبشرين لا للمدينة وكان ولفنجستون مبشراً قبل أن يكون رحالة ولم تكن رحلته المشهورة إلا تمهيداً للبعثات التبشيرية » .

أما فاسكودي جاما فقد لقي في كتبنا المدرسية . اهتماماً كبيراً وصور بصورة البطولة في حين تكشف الحقيقة عن صورة بشعة لأعمال فاسكودي جاما وغيره من طلائع الاحتلال الأوربي والاستعمار ، وما قاموا به من ظلم وبطش ، وتصف الكتب التاريخية الموثوق بها (دى جاما) بأنه من أقصى خصوم المسلمين ، ففي رحلاته إلى آسيا ضرب بمدافعه الثقيلة المراكب العزلاء التي تنقل الحجاج إلى مكة فأحرقها ، بعد نقل أموال أهلها وأمتعتهم إلى أسطوله وبعد أن حذر على رجاله إنقاذ العرقى

ومنهم النساء والرجال حتى هلكوا جميعا إلا عشرين طفلا بعث بهم
(دى جاما) الى البرتغال حيث حملوا على إعتناق النصرانية •

هذه واحدة مما فعله (دى جاما) الذى تحاول كتب التاريخ
المدرسية فى العالم العربى أن تصوره على أنه مكتشف عظيم ، فى حين
أن (دى جاما) لم يكتشف شيئا ، وهو لم يصل فى حياته الى (كالكوئا)
ولم يستبقه الحاكم الهندى لأن البرتغالى (بارتلمى دياز) كان قد بلغ
رأس الرجاء الصالح قبل فاسكودى جاما بعشر سنين ، فضلا عن أن
عور المحيط من سواحل أفريقيا الشرقية الى آسيا كان معروفا من التجار
العرب والهنود منذ قرون (عن الدكتور بدر الدين قاسم) •

أما هنرى الملاح البرتغالى (١٣٩٤ — ١٤٦٠) فإن حقه على
العرب والمسلمين واضح صريح ، فقد حمل فى ريعان شبابه على مدينة
(سبته) التى انطلق منها طارق بن زياد الى الأندلس ، ثم تصدى
لمدينة (طنجة) المسلمة فرد على أعقابها ، وأسس مدرسة بحرية ضمت
رجالا حملوا لواء تجديد الحروب الصليبية وخوله البابا نيقولا الخامس
حق الاحتلال النصرانى والاستيلاء على جميع البلاد حتى الهند •

أما الرحالة (البوكرك) فقد كتب الى ملكه يفخر بأنه ذبح جميع
مسلمى مدينة جوا ، وجعلهم أكداسا فى المساجد ثم أحرقها ، وأنه أشعل
النار فى سفن المسلمين ، ومع ذلك فإن هذا السفاح يذكر فى كتب
التاريخ العربية على أنه فاتح منتصر •

٤ — مكتبة الإسكندرية :

جرت محاولة التغريب على إصاق حريق مكتبة الإسكندرية
بالمسلمين ، وجارى المستشرقين فى هذه الدعوى نفر من الكتاب فى
مقدمتهم جرجى زيدان وطه حسين ، فى حين دافع عن المسلمين بعض كتاب

الغرب وفي مقدمتهم العلامة جيبون في كتابه (سقوط الدولة الرومانية) حيث قال : إن هذه الفرية لقمها على المسلمين « أبو الفتح العبرى » في كتابه (مختصر الدول) وقد ترجم الى اللغة اللاتينية سلفها اهل الغرض من الفرنجة فاذاعوها ، فاشار جيبون الى براءة عمر بن الخطاب وعمر بن العاص من التآمر على حريق مكتبة الإسكندرية ، وأثبت ان الذى حرقها إنما هم الرومان بمراكبهم الحربية فى حصارها لجيوش كلوباترا بقيادة يوليوس قيصر .

قال جيبون : تأكد لى أنها أحرقت قبل الإسلام بمائتى عام ، وأن أبو الفرج ابن العبرى لفق الفرية بعد الإسلام بنحو ستمائة سنة ، ولم يتعرض قبل أبى الفرج مؤرخ واحد لذلك ، حتى إن بطريق الإسكندرية (افتيكوس) مع توسعه فى الكلام عن استيلاء المسلمين على ثغر الإسكندرية ، لم يذكر كلمة واحدة عن حريق عمرو بن العاص لهذه الخزانة .

وكان الرحالة البغدادى قد زار مصر فى عهد الملك الكامل الأيوبي فنقل هذه التهمة وقد طبعت رحلته فى أكسفورد عام ١٨٠٠ وهى محشوة بالخرافات والأكاذيب ، قال لطفى جمعة إنه كان أفاقاً — يعنى ممن لا يعتد بعلمه — نظنه ينتمى الى حلب ويسمونه (التيس الملتحى) وقد نقض هذه الرواية (واشنطون أرفنج) و (فلييه) ، وغيرهم كما نقضها أرنست رينان الذى قال فى خطاب له فى المجتمع العلمى الفرنسى : إنه لا يعتقد أن (عمرو) هو الذى أحرق خزانة الإسكندرية لأنها أحرقت قبله بزمان طويل .

٥ — خدمة الماسونية :

قامت الماسونية بدور خفى طول فترة طويلة فى البلاد العربية قبل أن ينكشف أمرها ، وقد اقترن تاريخ الماسونية فى البلاد العربية بتاريخ

الاستعمار فيها ، وقد انتشرت المحافل في مصر وسوريا ولبنان وتركزت في فلسطين ، بهدف إعادة بناء هيكل سليمان الذي هو الهدف الحقيقي للماسونية .

وفي العقد الثاني من القرن العشرين كانت شبكة المحافل الماسونية تضم جميع مدن فلسطين وقصباتها ومنها القدس ويافا وغزة ، وكان رجال هذه المحافل يتولون أعلى المناصب في فلسطين ، وكان المندوبون البريطانيون في البلاد العربية « ماسون » وهم الذين يقومون بالعمل ، وكان ولسلى القائد البريطاني الذي فتح مصر وقضى على ثورة عرابي عام ١٨٨٢ ماسونيا وقد سجل أثر الماسونية في نجاح خطته فقال : إنني استسملت الصعب وسخرت من الأحوال في كل البلاد لأنني حيث توجهت كنت ألقى إخوانا من الماسون يرحبون بي ويساعدونني على ما أريد ، ولست أرتاب في نجاحي لأنني أستاذ في الماسونية .

وقد استطاعت الماسونية أن تسيطر على الكنيسة وبعض أتباع المسيحية ، وكان أكبر انتصاراتها اعتراف الكنيسة الكاثوليكية بها ، وكانت الكنيسة الكاثوليكية تنبذ كل فرد نصراني يثبت لديها اشتراكه في عضوية المحافل الماسونية وتسقط عنه الإيمان المسيحي ، باعتبار أن الماسونية عقيدة صهيونية يهودية ، والغرض منها محاربة الأديان ، وتطويع المعتنقات الأخرى للسيطرة اليهودية ، غير أنها ما لبثت أن خضعت لنفوذ الصهيونية .

وقد تحقق ذلك بعد عمل متصل ، فقد استطاع اليهود في خلال السنوات المائة الأخيرة من السيطرة على العقلية الدينية النصرانية وأمكنها تحقيق ما أطلق عليه (ظاهرة تهويد النصارى) خاصة فيما يتعلق بطبيعة القضية الفلسطينية من الناحية الدينية ، وقد كان توزيع الأساقفة الكاثوليك في روما بياناً بالسماح للكاثوليك بالانضمام للمحافل الماسونية

دليلا على استئراء النفوذ الصهيونى داخل الكنيسة وكيف بدأ تهويد العقلية النصرانية ومسح تقليدها الدينى .

وهكذا تكشفت أهداف الماسونية التى كانت خفية فى العقود الأولى من القرن الميلادى الحاضر حين اتصل بها بعض المصلحين والمفكرين ، ظنا بأنها حركة مناهضة للاستعمار ومحقة للحرية ، وكانت هذه هى الخدعة التى استطاع بها يهود إدخال عدد كبير من المسلمين فى محافلهم .

وكان من أخطر هذا الإغراء ما حدث فى الدولة العثمانية عندما نشأ حزب الاتحاد والترقى (تركيا الفتاة) واستطاعت الماسونية ورجالها من الدونمة (١) فى سالونيك فى احتواء هذه الجماعة وإخضاعها لأهدافها ، وعن طريقها وبواسطة زعماء من الدونمة مثل كمال أتاتورك أمكن إسقاط السلطان عبد الحميد وإلغاء الخلافة الإسلامية وتيسير وصول اليهود الى فلسطين ، وتسليم طرابلس الغرب لاطاليا .

٦ - الثورة الفرنسية :

سيطرت على الصحافة العربية والثقافة العربية فى فترة الثلاثينات من هذا القرن والى اليوم ، فكرة البطولة الخارقة التى حققتها الثورة الفرنسية ، وكان هذا من خداع الصهيونية البالغ ، فقد عدها الكثيرون من أولياء الثقافة الفرنسية والصهيونية مصدر النهضة واليقظة . فالمعروف أن الثورة الفرنسية كانت الاداة التى مكنت اليهود من الخروج من الجيتو ، وكسر قيود الكنيسة التى كانت تحول دون اتصالهم بالمجتمع ودون التزاوج منهم أو الامتزاج المؤثر فيهم ، فهم التى حققت لهم وضعاً اجتماعياً مساوياً لوضع النصارى ، وأزالت فكرة الدين وأحلت

(١) الدونمة هم أحفاد يهود اسبانيا الذين أخرجوا منها بعد الاسترداد النصرانى لاندلس وسكنوا سالونيك فى البلقان بعد التظاهر بالاسلام .

محلها فكرة الوطن ، فلم يعد يقال مسيحي ويهودي ، بل يقال فرنسي وإنجليزي .

بدأت الثورة في فرنسا بما هيأت له الأذهان كتابات : فولتير وروسو وديدرو وسائر رجال الإنسكلوبنديا فجاءت الثورة وفي الأذهان تربية صالحة لها ، وكانت الثورة الفرنسية وما تلاها من ثورات في أوروبا قد قضت على الوحدة النصرانية الجامعة . وأحلت بدلا منها صراع القوميات ، وكسب اليهود من ذلك السيطرة الاقتصادية والاجتماعية في كل قطر وأن « الحرية والإخاء والمساواة » شعار الثورة الفرنسية هي شعار الماسونية التي مهدت للثورة الفرنسية لتحقيق هدف اليهود .

٧ — الحملة الفرنسية :

هناك محاولة دائبة من جانب دعاة التغريب ، للقول بأن : الشرق الإسلامي لم يعرف « اليقظة » إلا بقدوم الحملة الفرنسية ، وهي دعوى باطلة بواقع التاريخ نفسه ، وهذه الدعوى إنما تستهدف القول بأن العالم الإسلامي لم ينهض إلا بفضل الغرب ونفوذه ، وأنه لم يستيقظ حتى أيقظه الغرب ، وهو خطأ صريح حيث لا سند تاريخياً أو علمياً له ، فإن العالم الإسلامي والأمة العربية قد استيقظا قبل الحملة الفرنسية بأمد طويل .

ومن قبل وصول الحملة الفرنسية كانت حركة العلماء في الأزهر — بقيادة الإمام أحمد الدردير — فقد وضعت أول وثيقة لحقوق الإنسان حينما أخذت العهد المكتوب على الأمراء المماليك بالآل يظلموا الرعية ولا يفرضوا عليها أى ضرائب أو قيسود .

فاذا كان ذلك كذلك فإن القول بإعلاء الحملة الفرنسية ليس إلا من دعاوى المستعربين والمستعمرين ، التي ملأت الكتب المدرسية بفضل

نفوذهم ، في حين أن جميع المراجع الصحيحة تقرر أن الحملة الفرنسية لم تكن مصدر نهضة بقدر ما كانت عامل تقويض للنهضة الأصلية .

والأمم لا تتجدد من خارجها وإنما تتجدد من مصادر فكرها من أعماق روحها .

ذلك أن الحملة الفرنسية ولدت المعاهد التبشيرية في سواحل الشام وبيروت ، كما يقول الدكتور شكرى فيصل ، ومن المستحيل القول بأن الشرق كان سيظل نائماً ، لأن لهذا الشعب تاريخاً في الحضارة وقدماً في التمدن وجذورية عريقة ، وعندى أنه لولا الحملة الفرنسية لاستطاع الشرق العربى أن ينهض نهضة حقيقية والشرق له تقبل ذاتى للحضارة ، ليس مفروضاً عليه من الخارج ، ولم يعرف المسلمون الموت بل الانحدار والضعف فقط وقد مرت بهم كما مرت بغيرهم أدوار الخمول .

٨ - توحيد الأديان :

ارتفعت على فترات طويلة دعوة اتحاد الأديان أو توحيد الإسلام والنصرانية وفي عام ١٨٨٣ كان القمص إسحق تيلور يقوم بالدعاية لتوحيد الإسلام والنصرانية على قاعدة التوحيد الموجودة في الإسلام والموجودة عند الكنيسة الإنجيلية ، وقد اتصل عن طريق صديق فارسى هو (فيزابكو) بالأستاذ محمد عبده وهو في منفاه في دمشق ، وقد تجدد هذا الموقف مرات ومرات ، وكان هناك من يدعى خريستفو جباره الذى كان يحمل لواء هذه الدعوة في مصر .

وقد هاجمه رجال الكنيسة وقال القمص سرجيوس : إنه أراد أن يجعل النصارى مسلمين ينكرون لاهوت المسيح الذى هو أساس دينهم ، والذى تتركز فيه كل عقائدهم ، كما أنه أراد أن يجعل المسلمون نصارى يعترفون بصحة الإنجيل ، الأمر الذى إذا سلم به المسلمون لوجب

ألا يقبلوا كتابا آخر غير الإنجيل ، وأن يعترفوا بلاهوت المسيح ، كما أنه أراد أن يجعل اليهود نصارى لأنه طلب إليهم أن يعترفوا بأن المسيح قد جاء الى العالم ، ولو اعترف اليهود بمجيء المسيح لهجروا بلقوسهم اليهودية وعاداتها وصاروا نصارى لأن المسيح هو محور نبوتهم ، ومعنى هذا استحالة هذا التوحيد بين الأديان .

وهناك محاولة أخرى موضع الشك والريبة هي محاولة البهائية التي تتظاهر بتوحيد الأديان وهي تهدف حقيقة الى هدم الأديان لتحل محلها النحلة البهائية .

ومعنى هذا عبر المحاولات المختلفة أن من ورائها هدفا سياسيا استعماريا أو صهيونيا من أهداف تلك الدعوات العاملة على تفويض المجتمعات الإنسانية ، وليس في مفهوم الإسلام نفسه هذا المفهوم ، وإنما فيه تساند أتباع الكتب التي أصلها سماوى على مقاومة الالحاد والإباحية ...

الفصل الخامس

قضايا مثارة في ضوء

التفسير الإسلامى للتاريخ

في ضوء التفسير الإسلامى للتاريخ ، يجب أن ينظر المثقف المسلم الى مختلف وقائع التاريخ الإسلامى وأحداثه ، وأن يكون حذر من الوقوع تحت برائن النظريات الوافدة ، سواء النظرية الغربية المادية أو النظرية الماركسية الاقتصادية .

وعلى المثقف المسلم ان يضع المفهوم الإسلامى للتاريخ أمام ناظره وهو يقرأ كتابات الغربيين عن الإسلام ، وكتابات المسلمين أنفسهم عن تاريخهم .

ومنهم الإسلام واضح : هو المفهوم الجامع بين المادة والروح ، والقلب والعقل ، والدنيا والآخرة ، والذي يهدف الى إقامة المجتمع الإسلامى والحضارة الإسلامية على هدى من توجيهات القرآن : مجتمعا ربانيا وحضارة ربانية خالصة ، لا تريد علواً فى الأرض ولا فساداً ، وهناك عدة قضايا نحاول أن نفصل فيها القول :

أولاً — ما دار حول القرامطة والحلاج والباطنية :

في مقدمة هذه الشبهات : ما دار حول القرامطة والحلاج والباطنية :

فقد تعددت أبحاث فى هذا العصر تحاول أن تصف حركة القرامطة بأنها حركة العدل الاجتماعى فى الإسلام ، أشار الى هذا الدكتور طه حسين فى مجلة « الكاتب المصرى » التى كان يصدرها لحساب اليهود فى أواخر الأربعينات ، وقد أضاف إليها حركة الزنج أيضاً ، وتحدث

عن هذا الكاتب الفرنسي جارودى — قبل اسلامه — حين ربط بين نحلة القرامطة وبين العدالة الاجتماعية في الإسلام •

وكانت الصهيونية العالمية قد عقدت (مؤتمر بلتيمور) في الولايات المتحدة في هذه الفترة ، من أجل (تزييف تاريخ الإسلام) وإثارة الجدل حول قضايا الشعوبية والباطنية ، وعلى أثر ذلك صدرت في البلاد العربية عدة مؤلفات لهذا الغرض ، تصف القرامطة والزنج وحركات الانتفاض على الدولة الإسلامية ، بأنها حركات العدالة الاجتماعية •

وقد كتب كثيرون في دحض هذه الشبهات المفتراة ، في مقدمتهم الدكتور محمود قاسم ، الذى قال :

« إن دعوة القرامطة لم تكن تسعى في الحقيقة الى تحقيق كرامة الإنسان وتمهد لاحترامها ، بل كانت حركة انفصالية تمت في عصر تحلل الدولة العباسية الى دويلات ، فكانت حركة القرامطة استمراراً لثورة الزنج التى قامت قبل منتصف القرن الثالث الهجرى ، وكانت نوعاً من الأخذ بالنار ، وقد حرص هؤلاء العبيد الذين حرروا أنفسهم ، على إذلال العرب عن طريق استرقاقهم والتنكيل بهم •

أما حركة القرامطة التى قامت في الشمال الغربى لبلاد العراق ، فقد اتخذت مراكز لها في منطقة الكوفة وفي بعض بلاد الشام وفي سواحل الجزيرة العربية المطلة على الخليج العربى ، ثم استقرت آخر الأمر في البحرين •••

فقد كانت على صلة وثيقة بالحركة الإسماعيلية في دور الستر ، وإن اختلفت معها في دور الظهور ، فإن العبيديين الذين تسموا باسم الفاطميين ، رأوا بعد ظهور دولتهم في المغرب أن يستهلوا بتوجيه السياسة في ذلك العصر بإسقاط الدولة العباسية •

ومن جانب آخر يمكن القول بأن الصلاح المتصوف المشهور ، كان من أكبر الدعاة لتحطيم الدولة العباسية إذ كان على صلة بالقرامطة ، وقد روى عنه أنه أقسم على ذلك في أحد أحاديثه القدسية التى يزعمها لنفسه لسنة ٢٩٢ هجرية وهى السنة التى شهدت ثورة القرامطة الكبرى •

ولقد كانت حركة القرامطة حركة طائفية ، فقد أقر القرامطة شيوع المال فى مجتمعهم ، ولكن طبع العبيد الذى يتكون من الأسر لم يكن يتعامل على قدم المساواة مع الطباع الأخرى • وقد تظاهر أصحاب هذه الحركة بالتشيع والميل الى البيت العلوى ، ولكنهم سلكوا من الناحية الأخرى سلوكا ينفى ذلك اذ اعتدوا على الأماكن المقدسة وجرحوا صحابة الرسول بل الرسول نفسه — صلى الله عليه وسلم — وقتلوا نحواً من ثلاثين ألفاً من الحجاج وانتزعوا الحجر الأسود من الكعبة صرفاً للناس عن الحج •

٢ - ثورة الزنج :

ومن ناحية أخرى فقد استغل دعاة التفسير المادى للتاريخ ، بعض المواقف الهدامة فى التاريخ الإسلامى ، لمحاولة وصفها بأنها حركة تقدمية أو ثورية ، ويولون (ثورة الزنج) نفس الاهتمام (بحركة القرامطة) • وقد أضفوا صفة البطولة على (على بن محمد) الذى تجمع المصادر على عدم صحة ما ادعاه من نسب علوى ، ويرون أنه إنما ادعى هذا النسب خدمة لمآربه ، وليضفى على حركته طابع الشرعية ، وقد بدأ حياته مشعوذاً يشتغل بالتنجيم والسحر ، وانتقل من سامرا الى البحرين ، وجعل منطقة البصرة مركز نشاطه ، فجمع حوله (الزنج) فى البصرة فى ثورة عارمة أشعل نارها سنة ٢٥٥ هـ وادعى خلال ذلك أنه المهدي المنتظر ، كما ادعى النبوة بعد ذلك ، وقد استطاع أن يخدع أناسا كثيرين بهذه الدعاوى ، فأطاعوه فيما ذهب اليه وأحرقوا البصرة ، وأعملوا السيف فى أهلها واستباحوها ثلاثة أيام •

وصعد الزنج في حركتهم نحو بغداد فدخلوا واسط عام ٢٦٤ والنعمانية فأحرقوها ، واستمر لغتهم عشر سنوات ، وهم يحتلون منطقة شاسعة تمتد من الأهواز وواسط وتصل الى مشارف بغداد ، وقد شملت الحركة بتخريبها ، الزراعة والتجارة والمواصلات ولكن الأمر انتهى بأن سقطت عاصمة الزنج : « المختارة » بعد أن دافعوا عنها وبعد أن قتل على بن محمد .

ولا يمكن لمنصف ولا لمتقف أن يؤمن بأن مثل ثورة الزنج أو فئة القرامطة يمكن أن تمثل منهجا إسلامياً أصيلاً ، فالإسلام لا يقر مثل هذا النوع من المؤامرات أو المظالم ، ولم يكن لكلاهما منهج واضح للإصلاح ، ولم تقم إحداهما (منهج الإسلام في المجتمع) ولا في نفوس القائمين بها ، بل وقعتا في نفس الخطأ الذي قامت من أجله ، إذ أقبل الزنج بعد نجاحهم المؤقت على اقتناء القصور واسترقاق النساء واستبعاد ساداتهم ، وكذلك فعل القرامطة ، فقد خدعوا الناس عن طريق الادعاء بأنهم من آل البيت .

وكانت أشنع أعمالهم « الفارة على مكة » وقتل الناس وسرقة الحجر الأسود ، وكانت دعوتهم إلى (شيوع الأموال) كما أسقطوا الحدود بين الحلال والحرام ، وأحلوا زواج الأخوات وتقديس الخمر .

وكانت لهم تفسيرات باطنية للقرآن والحديث . وقد لعب اليهود وراء هذه الحركات وكانت الإسرائيليات مادة فكرهم ، ويذهب بعض المؤرخين الى أن القرامطة وغيرها من الدعوات الباطنية يهودية الأصل والفروع .

٣ - رسائل إخوان الصفا ودعواهم :

يتردد كثيراً بين الباحثين الحديث عن رسائل إخوان الصفا ، على نحو يوحي بأنها جزء من التاريخ الثقافي الإسلامي ، وقد أولى

المستشرقين والمبشرين والدكتور طه حسين ، مثل هذه الأعمال المشبوهة اهتماما ، وأعادوا طبعها ونشرها ، ودفعوا كثيرا من الباحثين المسلمين الذين يسافرون الى الغرب — على حساب بعثات التبشير والاستشراق — الى دراستها ، والى تبني وجهة نظرهم فيها ، واستغل ذلك لخدمة أهواء الفكر اللبيريالى والماركسى على السواء .

والحقيقة التى كشف عنها الباحثون النصفون هى : فساد هذه الدعوى وأن العلاقة بين إخوان الصفا والباطنية وثيقة الصلة حتى قال المستشرق كازنوف : (إننى على اتم الثقة من أن آراء إخوان الصفا هى برمتها آراء الإسماعيلية) ، ومحور هذه الآراء يتصل بوحدة الكون (أى وحدة الوجود وما يتصل بها من الاتحاد والحلول مما يتنافى مع مفهوم الإسلام الصحيح) .

ويعتقد (جواد زيهري) : أن رسائل إخوان الصفا كانت الأساس الذى بنيت عليه معتقدات الباطنية وأن هناك اتفاقا بينهما فى مذهب الحلول ، وتفسير القرآن تفسيراً غير ما يدل عليه ظاهر اللفظ ، وهو الأسلوب الباطن الذى عرف عنهم .

ويقول إخوان الصفا فى رسائلهم : « واعلم أن للكتب الإلهية تنزيلات ظاهرة هى الألفاظ المعهودة المحدثثة ولكن لها تأويلات خفية باطنة ، وهى المعانى المفهومة والمعقولة .

وقد أفاض الباحثون فى الكشف عن وجهة الإسماعيلية الملقين بالحشاشين ، فقد أتاحوا لتابعيهم كل أنواع اللذات وأطلقوا لشهواتهم العنان وأباحوا لهم زواج الأخوات وكل من يحرم الدين الزواج بهن .

كما عكفت على تعاظم الحشيش فئة طاغية مجرمة ، تحلل المحرمات وتحض على المسكرات وترى فى القتل عملاً مشروعاً يثاب عليه غاعله .

وفي أثناء الحروب الصليبية كان لهم يد سوداء ، قاموا في أثناءها بأفظع الأعمال الوحشية ، فأطلق عليهم الفرنجة اسم (أساسين) (١) وجعلوه لكل قاتل مجرم ، وقد قاموا بعدد من فظائع الأعمال رسمت بلون الدم الأحمر ، وقد أشار المسعودي وأبو الفداء إلى أنه بلغ من جرأة الحشاشين أنهم كانوا يخطفون الناس من الشوارع والحارات بأغرب الطرق . وقد توفي الحسن الصباح ٥١٨ هـ وظلت الزعامة قائمة في قلعة الموت حتى ٦٥٤ نحو قرنين .

٤ — الحكومة الشيوقراطية :

من الأخطاء التي ينسبها الغربيون ظلما للتاريخ الإسلامى ، اتهامه بأنه أقام (الدولة الشيوقراطية) أو يدعو الى اقامتها ، وتعنى الدولة الشيوقراطية : الحكومة الدينية فى المجتمع الغربى .

ومن الحقائق الواضحة الأكيدة أن الإسلام لم يقم الدولة الشيوقراطية — على المفهوم الذى عرفه البابوات فى حكومتهم — فالدولة فى المفهوم الإسلامى : تجعل جميع المواطنين متساوين أمام القانون فى الحقوق والواجبات ، ولكل مواطن الحق فى ارتقاء أعلى المناصب ، وحرية العبادة فى الدولة الإسلامية مكفولة لجميع المواطنين ، والمبادئ الاجتماعية فى الدستور الأساسى توافق جميع الديانات وإن احتوى بنوداً تشجع نمو العقيدة الإسلامية دونما تمييز للمسلمين عن سواهم بمنافع خاصة .

ومفهوم الدولة الشيوقراطية (أى الدولة الدينية) لا يقوم فى العالم الإسلامى قط ، لأن الإسلام ليس عبادة وتديناً ، ولكنه أسلوب صالح

(١) تعتبر كلمة ASSASSIN فى اللغات الأوربية ، محرقة من كلمة خشاشين ، ولكننا استعملت للدلالة على الاغتيالات ، التى اتصف بها الاسماعيلية الباطنية فى حقبة الحروب الصليبية ، وكانت كلها اغتيالات موجهة ضد قواد المسلمين الذين وقفوا فى وجه الصليبيين أمثال نور الدين محمود وصلاح الدين ، وأن فشلوا فى قتل هذين .

للحياة الكريمة تسوده الأصالة ، ويتفوق فيه الجوهر على المظهر ، والدولة
التيوقراطية — التي يتولى أمرها رجال الدين — على المعنى المتعارف عليه
في الغرب لا توجد في الإسلام ، وشريعته السمحاء لا تقر وجود
ما يسمى (رجل الدين) بل (عالم الدين) والعلمانية والتيوقراطية لا وجود
لهما في الإسلام ، حيث في الدول الإسلامية يتساوى المواطنون أمام
القانون في الحقوق والواجبات ، وحيث حرية العبادة مكفولة لجميع
المواطنين على السواء •

ومن هنا فإن ما يردده دعاة التغريب من وصف الحكومة الإسلامية
بالدولة التيوقراطية ليس صحيحاً على إطلاقه حيث لا توجد في الإسلام
سلطة للكهانة •

وقد حاولت قوى التغريب إثارة شبهة القول بأن الحكومة الإسلامية
كانت حكومة ثيوقراطية على النحو الذي عرفتة أوروبا لإلقاء الكراهية
والفرع من أن يحكم الإسلام ، كما كشف علماء السنة بقوة واستفاضة
عن مبدأ « الاختيار » في إقامة إمام المسلمين لأنه لا يوجد في الإسلام
ذلك المسلك الكهنوتي الذي عرفه الغرب •

٥ — مفهوم البطولة الإسلامية :

كذلك فقد حاولت دراسات الغربيين المغرضة للتاريخ الإسلامي ،
تزييف مفهوم البطولة الإسلامية ، وقد أدخلت على المسلمين في العدر
الحديث مفاهيم واغدة نحو البطولة ، أخذت تتمثل في إقامة التماثيل ،
وفي تمجيد الأفراد وإسباغ صفات القداسة ، وامتناع الخطأ عن بعض
البشر ، على النحو الذي يخرج البطل من دائرة الإنسان الذي يخطئ
ويصيب •

والإسلام يكرم البطولة تكريماً معنوياً بتكريم العمل الذي قدمه

البطل ونشر الفكر وإعزاز الرأي ، وهو تخليد معنوى يقوم على تقدير الكلمة ، ولا ينصب أبداً على تقدير الفرد لذاته أو تقديسه ، أو وضعه في صورة يبدو منها في مجال التقديس ، على النحو الذى عرفه الإغريق قديماً ، حين رفعوا أبطالهم إلى مصاف الآلهة وأنصاف الآلهة •

ونحن لا نجارى الأمم الغربية في نظرتها في تقديس الأبطال ، هذه النظرة المستمدة من تراثها الإغريقى القديم وطابعها الوثنى ، ذلك أن الإسلام له طابعه ومفهومه لهذه القيمة الإنسانية ، فبطولة الإسلام بطولة فكر لا بطولة تماثيل وأحجار ، وليس في الإسلام هياكل تدمر ولا بعليك ولا الأهرام •

ويقول الدكتور عبد السلام العجيلي : « إن فن العمارة العربية لم يتميز بالضخامة والرسوخ ، في حين يتميز بالجمال والدقة وخفة الظل ، فهو لم يقصد به أن يطاول الدهر ، وإنما أريد به أن يكون متعة للعين والروح ، ومعنى هذا غلبة المعنويات على الماديات في طابع الفن والبطولة » •

وحيث ينقسم العالم إلى نظريتين في البطولة : النظرية الفردية في الغرب ، والنظرية الاجتماعية في الشرق ، فإن الإسلام يقف جامعاً بين المفهومين رابطاً في دقة ويسر بين الأمرين ، فالبطل يأتى نتيجة لحاجة المجتمع ثم هو يصنع المجتمع والتاريخ ، أما النبوة فشئ خارج عن نطاق البطولة البشرية العامة ، فهي من أمر الله تبارك وتعالى واصطفائه لخلقه •

والبطولة في الإسلام تتمثل في النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو قد أخرجته الجزيرة العربية ، ثم أخرج هو الجزيرة العربية وغيرها من الظلمات إلى النور ، وغير وجه العالم كله ، غير قيمة ومفاهيم القيم ، وجاء برسالة تحمل مفهوماً جديداً لكل شئ ، فيه الفطرة والربانية والأصالة •

ولقد كانت البطولة العربية قبل الإسلام : بطولة الكرم والشجاعة والنجدة ، فاحتفظ لها بهذه القيم ، ولكنه غير مفاهيمها حيث كان الكرم من أجل الفخر ، والشجاعة والنجدة من أجل المباهاة ، فوجه هدف الكرم والشجاعة والنجدة جميعا إلى التماس مرضاة الله ، ونقاها من زيف الفخر والمباهاة •

ومن هنا فإن تكريم الأبطال في الإسلام يختلف عن تكريمهم في الأمم المختلفة ، وهو تكريم للبطولة لا للبطل وللعمل لا للفرد ، ولا يحمل شيئا من ضروب الوثنية أو التجسيم ، أو إعلاء البطل عن إنسانيته •

وقد آمن المسلمون بأن البطولة للفكرة لا للفرد ، فعزل عمر بن الخطاب خالداً من قيادة الجيش ، هو في أوج البطولة ، وهو الذي لم يهزم في معركة وقال كلمته التي تمثل مفهوم البطولة في الإسلام : خشيت أن يفتن الناس به فأردت أن يعلموا أن الله هو الصانع •

كذلك فإن البطل المسلم يجب أن يلتصق وجهه الله وحده ولا ينسب إلى نفسه شيئا من الفخر ، وقصة صاحب النقب وغيره في هذا معروفة مشهورة •

٦ - الفتح الإسلامي :

حاولت كتابات المستشرقين الغربيين عن الفتح الإسلامي إثارة الطعن في « عظمة الفتح الإسلامي » وتزيف مفهوم « انتشار الإسلام » بتفسيرات مادية مضللة ، والحقيقة أن الفتوح الإسلامية لم تكن حركة توسعية ولا حرباً صليبية ضد المسيحية ، وإنما كانت رسالة تمدنية حضارية لا تهدف إلى أي لون من ألوان الاستغلال •

وفي هذا المعنى يقول سامي اليافي في كتابه (الحضارة الإنسانية بين الشرق والغرب) : إن القول بأن انتصار العرب - يقصد المسلمين - المذهل

مردده ضعف الدولة البيزنطية ، بعد أن استغرقت الحروب الفارسية مواردها . هذه مغالطة صارخة ، لأن الإمبراطور هرقل قد أنهى حرب الفرس بالنصر الباهر عام ٦٠٨ م (٦٢٩ م) ثم تمتع خمس سنوات من السلم الشاه ، قبل أن يفاجأ بالفتح الإسلامى ، وقد أعد العدة بنفسه وعين أخاه ستودور لقيادة الجيش الذى دحره المسلمون فى أجنادين ، ولا ريب أن انتشار الإسلام فى هذه المرحلة القليلة التى لم تزد على ثمانين عاما قد أدهش المؤرخين ، ولأنهم جاءوا على الأثر المعنوى والروحى والنفسى للإسلام فى البلاد التى دخلها ، فقد ذهبوا مذاهب مختلفة فى التعليل .

* * *

والواقع أن التفسير الإسلامى للتاريخ هو وحده القادر على طرح المفهوم الأصيل لهذه الظاهرة . ولقد اجمع المؤرخون على أن سرعة « انتشار الإسلام » أمر فريد عجيب على مدى التاريخ ، لأن المسلمين لم يكونوا من الكثرة العددية ولا من قوة العدة والسلاح ، ولا من حيث استيلاء الفنون العسكرية ، ولا من حيث حضارة العلم والمدنية بهذه المثابة .

غير أن التفسير الصحيح والسليم أن سرعة انتشار الإسلام : إنما ترجع إلى أنه كان أفضل نظام اجتماعى وسياسى تمخضت عنه العصور ، وأن سعادته ترجع إلى أنه وجد فى كل مكان ذهب إليه أمما استولى عليها الخمول ، ونشأ فيها النهب والعسف .

فلما جاءها الإسلام لم يجد إلا حكومات مستعبدة مستاثرة متقطعة للروابط بينها وبين رعاياها ، وكان نظام رأس المال فى الإمبراطورية الرومانية مبينا على الاسترقاق ، وكانت الآداب والثقافة الاجتماعية أخذة فى الانحلال — بل كانت منحة لأنها تمجد الفحش وتكافئ على البطولة

بالفواحش — ومن ثم وجدت جماهير الأمم في الإسلام منقذاً ومحرراً ،
ذلك لأنه أقام العدل ، ولكنه لم يفرض عقيدته بل ترك الناس يدخلون فيه
باختيارهم ، وقد دخلوا في هذا الدين حين تبين لهم صدق الداعين إليه •

أما تلك التفسيرات التي تقول بأن قسوة الحياة المادية والاقتصادية ،
هي التي دفعتهم إلى التطلع إلى ما في البلاد التي فتحوها ، من موارد
اقتصادية فإنه باطل : لأنه لو صح لاقتصر المسلمون على فتح البلاد
الخصبة الغنية التي حولهم ولما ذهبت جيوشهم وقبائلهم الزاحفة إلى
البلاد الفقيرة الشحيحة انثائية عن مواطنهم ، ولكن الحقيقة هي أنهم
كانوا يهدفون أساساً إلى نشر كلمة الله تبارك وتعالى ورسالته إلى
الناس كافة وفي كل مكان ، مهما احتملوا في سبيل ذلك من العسر
والمشقة ، ولو كان لهذا التفسير المادى أى ظل من الحقيقة لأسرع الخلفاء
الراشدون الأولون الموجهون لتلك الفتوح الى نقل مقار سلطانهم
وحكومتهم من مكة والمدينة وصحراء الجزيرة العربية إلى غيرها من البلاد
المفتوحة •

الفصل السادس

تحفظات على مناهج

دراسة العلوم

على طريق تاصيل المناهج المصروحه فى افق التعميم والثقافه الإسلاميين العربيتين ، وتحريرها من الانحرافات والاطءاء وما يتصل بوجهات نظر الغرب إليها ، او ما وضعه حاسلوب لمواجهة تحديات مجتمعه ، او لما تاتر به نتيجة لمفاهيمه الدينية او لظبه الفكر الوطنى والمادى على هذه المناهج ، ينحتم علينا أن ننظر إلى مناهج دراسة العلوم •

والواقع أن منهج دراسة العلوم : فى كليات العلوم والطب وغيرها فيه نقص وفيه انحراف عن المنهج الإسلامى •

أما النقص فهو ذلك العجز الواضح عن « تاصيل المناهج » بإثبات دور المسلمين فى بناء هذه العلوم وتقديم المنهج التجريبي •

أما الانحراف فهو فى اعتبار فروض العلماء أمثال دارون ولامارك وغيرها من العلماء : حقائق مسلماً بها وخاصة فى مسألة خلق الكون والإنسان التى لم يستطع العلم أن يصل فيها إلى شئ موثوق به •

المقدمات الأساسية :

ومن هنا فإن دراسات العلوم فى حاجة إلى مقدمات أساسية :

أولاً : ان نظريات العلم هى فروض قدمها العلماء ، وهى تقبل الصواب والخطأ ، وأنها تتغير دوماً وماتزال تتغير كلما اكتشف العلم شيئاً جديداً ، وأن الحقائق العلمية فيها قليلة جداً ، وما بقى فما زال فى دور البحث والتجربة حتى يصل فيه العلم إلى حقيقة ثابتة •

ثانيا : أن نظريات كثيرة ظهرت في القرن التاسع عشر ، كانت دعامة من دعائم النظرية العلمية قد تجاوزتها الكشوف الجديدة وغيرت وضعها ، وخاصة فيما يتعلق بنظرية (الجوهر الفرد) و (التطور المطلق) وغيره .

وقد ظهرت في السنوات الأخيرة أبحاث علمية دقيقة كشفت عن الأخطاء التي وقع فيها دارون ولامارك وهكسلي والتي اعتبرت في وقت من الأوقات حقائق علمية ثابتة .

ثالثا : أن كثيراً من النظريات والفروض العلمية التي جاءت في دائرة العلم البيولوجي ، قد تجاوزها الفلاسفة إلى مجالات نظرية تختلف عن منهج العلم نفسه (كالذي قام به سبنسر) ، بل إن هناك وثائق تكشف عن تثبت أن بعض القوى العالمية كان لها أثرها في تبني بعض النظريات العلمية للتأثير بها في مجال المجتمعات البشرية وهدمها (راجع بروتوكولات صهيون) .

رابعا : أن الخلاف بين العلم والدين في الغرب ، كان له أثره الواضح في الحملة على الدين بصفة عامة ، مع أن الخلاف كان بين العلماء وبين تفسيرات دين الغرب نفسه ، ليس الدين بمجموعه ، فضلا عن أن علماء الغرب لم يكونوا قد أحاطوا تماما بمفهوم العلم في الإسلام .
أو لم يكونوا قد استوعبوه فهو يختلف اختلافا كبيرا عما يدينون به .

خامسا : أن العلم قد مر بعدة مراحل : حين غالى أولا في قدرته على فهم الحياة واستكناه أسرار الوجود ثم حين عاد فأعلن عجزه عن ذلك وحدد هدفه بأنه تفسير الظواهر ، وأن مهمته محدودة بالعالم المادى المحسوس وحده وأن ما سوى ذلك هو من شأن الفلسفة .

سادسا : عندما وصل العلم إلى انفلاق الذرة حدث تحول خطير في طريق العلم ، فقد تكشف الأمر عن حقائق مغايرة للنظرية المادية . بل لقد قررت الحقائق العلمية الأصيلة أن العلوم الطبيعية لا تستطيع أن تدرك (م ٥ — سموم الاستشراق)

كنه الدين في مجالاته الروحية والاجتماعية ، لأن العلوم الطبيعية مادية لا تستطيع أن تمارس غير المحسوس والملموس .

وفي نظام الكون وفي طبيعة النفس البشرية إحساسات ومشاعر لا تخضع للمحسوس ، ومن هنا يظهر خطأ خضوع المفاهيم الاجتماعية والنفسية والأخلاقية وغيرها من الدراسات الإنسانية لمناهج العلوم الطبيعية والتجريبية ، أو محاولة إخضاع الظواهر الاجتماعية لقوانين معينة على نمط قوانين الطبيعة في علم الفيزياء .

سابعاً : عجز العلم عن حل كل المشاكل ، وخاصة حاجة النفس الإنسانية ، وقد كان الإنسان في الغرب يظن أن العلم سيكشف له أسرار الكون ، ولكن العلم عجز إلا عن تفسير بعض الظواهر .

وكان الإنسان يظن أن العلم سيرد إليه الاطمئنان والسكينة ويدعم الصلة بينه وبين خالق الكون ، ولكن العلم فارق الارتباط بالحقائق الأساسية فأنعزل عن الحقيقة الإلهية ، كما انفصل عن الالتزام الأخلاقي ، ومن ثم فإن تقدم العلوم أدى إلى الإلحاد وإلى انحطاط الأخلاق . وهذه مسئولية الذين فصلوا بين الروح والمادة والعلم والدين .

ثامناً : أن العلم يظل قاصراً لعدم اعترافه بعدد من الحقائق والمعاني التي أهملها العلماء أهمالاً تاماً (غير المادة والشحنات الكهربائية) .

يقول ويتهد في محاولة التقريب بين العلم والفلسفة في كتابه (مقدمة في الفلسفة المادية) : « إن هذه الحقائق الأخرى أعطت العالم صورته المعروفة وخلقت ما فيه من قيم ومثل ، وإن العلم بعدم اعترافه بهذه الحقائق يقف حجر عثرة في وجه المبادئ الإنسانية والقيم الأخلاقية والمبادئ الدينية »

ويقول ويتهد : « إن خطأ العلم أنه يدرس الأشياء بعد عزلها

وتجريدتها من كل صفاتها وعلاقاتها مع الأشياء الأخرى ، ومنها التفرقة بين المادة وصفاتها وبين الشيء ومحيطه ، وبين العقل والجسم وبين الحياة والمادة ، هذا التفريق يعطى صورة مشوهة للعلم ، وهذا التفريق بين العقل والجسم والحياة والمادة هو التجريد أو العزل اللذان يشوهان الحقيقة الكونية ويحولان دون معرفة حقيقتها ، وأن الأشياء الكونية مرتبطة بنفسها بعلاقات ونظم دقيقة فهي مرتبطة بماضيها وحاضرها ومستقبلها ومحيطها فضلا عن ارتباطها بغيرها من الأشياء أن الحياة والحس والعقل صفات من صفات العضوية ولا يجوز اعتبارها جوهرًا مستقلا عن المادة مطلقا » .

تاسعا : خطأ النظرة المادية في النظر للإنسان : تلك النظرة التي تجعله أقرب إلى الحيوان ، لتترك عليه النوازع الروحية والمثل العليا ، وتحصره في محيط ضيق لا يتعدى مطالب الجسد ومدركات الحس .

ومعنى هذا أنه لا يؤمن إلا بالجانب المادي في الإنسان ، وكذلك خطأ القول بالجبرية المادية التي لا تجعل الإنسان أمامها فرصة للاختيار والإرادة الحرة .

عاشرا : كشف العلم أخيرا عن حقيقة خطيرة لها أثرها في تحول الفكر العلمي كله : فقد أثبت العلم أن كل ما كنا نتصوره ضدّين متقابلين : (المادة والطاقة) ليس صحيحا ، فليس هناك طاقة ومادة ، وإنما هناك طاقة مجمدة تأخذ صورة المادة ، ومادة مشعة تأخذ صورة الطاقة ، والانتقال من إحدى الصورتين إلى الأخرى مستمر ومتواصل ، ويخضع لقانون ثابت ، فالأصل الأولى للمادة أو للطاقة هي الإشعاع والإشعاع أحد عناصر الضوء فالضوء في الأصل نقطة الابتداء فالوجود كله مشتق من الضوء . وهكذا تؤدي بنا الطرق كلها إلى قيام جوهر واحدة وقوة واحدة .

ويصدق على هذا قول القرآن الكريم : (الله نور السموات والارض)
وهكذا تنهدم النظرية المادية التي يدرسها الطلاب في الجامعات « على
طول البلاد العربية والإسلامية وعرضها » هدمًا تامًا وتكتشف عن خطأ
نظرية الجوهر للفرد (١) .

حادى عشر : إن أخطر ما منى به الفكر العلمى الغربى هو : الانقسام
والتمزق بين العقل والوجدان من حيث استقلال العلم بالطبيعة وما
انتهت إليه من تطوير الحياة تطويراً جعل للآلة والتقنيات مكان الصدارة .
في حين ازور عن الجانب الآخر وأشاح عنه ، والنزعتان هما في الحقيقة
وليدتا أم واحدة ، ومن ثم وقع الايفصال تدريجياً بين العام والخاص
والكل والجزء والجماعة والفرد ، ويوفق الإسلام في نظرتة إلى العلم بين
العقل والإيمان والروح والعقل والقلب .

كذلك فإن الإسلام لا يعطى العقل أكثر من حقه الطبيعى ، ولا يرفعه
إلى مرتبة القداسة ولا يرى أن العقل أداة مطلقة للوصول الى العلوم
جميعا : وقد كشف الفلاسفة عن ذلك بوضوح حين قال (برجسون) : إن
العقل ليس أداة صالحة لإدراك حقيقة الكون ، لأن نهاية مجهوده أن
يقف عند ظواهر الأشياء وهو يجزئ الوجود ليتمكن من دراسته جزءاً
جزءاً مع أن الوجود في حقيقته وحدة موصولة الأطراف .

ويقول (برتراند رسل) : إن التعارض بين أحكام العقل وأحكام
البصيرة وهم وليس له وجود ، وإن كليهما ضرورى للوصول الإنسان
إلى الحقائق .

ومن هذا كله نعرف أن (العلم) لا يستطيع أن يستقل وحده بتقديم
نظرية عامة للكون والحياة وأنه يقصر عن ذلك لأن أدواته لا تمكنه من
التحرك إلا في حدود الملموس .

ثانى عشر : نظريتان سقطتا :

- (أ) نظرية ثبات العلم •
- (ب) ونظرية كمال العلم •

يقول ول ديورانت : « أين ذهبت اليوم قوانين نيوتن العظيم حين قلب انشتين وميكوفسكى وغيرهما الكون رأسا على عقب ، وبمذهب النسبية غير المفهوم وأين مكان نظرية عدم فناء المادة بقاء الطاقة في الميتافيزيقيا المعاصرة وما يكتنفها من فوضى وتنازع مما أصاب علومنا ، وهل فقدت فجأة قداستها وما فيها من حقائق أزلية ؟ أيمن أن تكون قوانين الطبيعة سوى فروض إنسانية ، هذه الحقيقة الناصعة التي يجهلها الكثيرون : وهى أن القواعد العلمية الحديثة ليست سوى فروض قام الإنسان بوضعها لتفسير الغوامض التي تحيط به من كل جانب ، وقد يكون نصيبها النجاح أو الفشل ، وإذا أصابها النجاح فإلى أى مدى وزمن مقدر ، عندما ظهرت النظريات الجديدة التي أثبت العلم وجودها ببراهين رآها العلماء مقنعة ونسخت النظريات القديمة وحلت محلها ، فاذا بالجديدة تعجز عن تعليل بعض الظاهر !!

ويقول الكونت دى نوى ، إن القوانين العلمية قوانين نسبية للإنسان الذى هو الآلة المفكرة التي تعبر عن الرابطة الموجودة بينه وبين السبب الخارجى وهى تصف تتابع الحالات النفسية التي تنتج عن هذه القوانين بالضرورة : نسبية وذهنية ، وصلاحتها يرتبط بالإنسان ويعتمد على تماثل الانعكاسات لدى مختلف الأشخاص لنفس المنبهات الخارجية •

ومن هنا يتضح أن بعض التعابير كالحقيقة العلمية يجب أن تؤخذ بحدود ضيقة وليس بالمعنى الحرفى كما يظن العامة ، فليست هناك حقيقة علمية بالمعنى المطلق •

وإذا كان العالم فى القرن التاسع عشر لديه الجرأة لأن يقول إن

الحالة (أ) تتبع الحالة (ب) والحالة (د) تتبع الحالة (ج) ، فإن العالم في القرن العشرين أكثر تحفظاً وأقرب إلى التواضع منه إلى الغرور ولا يجزم بشيء .

ويقول : « إن التغير لا الثبوت هو الطابع الذى يتميز به العلم (اليوم) وإن أبحاث العلماء وأقوالهم تؤكد نقص العلم البشرى ، وإن هذه النظرية الجديدة هى الصحيحة التى تعبر عن الحقيقة والواقع ، وتساهم بدفع العلم إلى الإمام ، بعكس النظرية القديمة التى تشكل أكبر عقبة فى طريق ازدهار العلم وقطف ثماره » . وقد قرر القرآن الكريم قبل أربعة عشر قرناً قصور العلم (وما أوتيتم من العلم الا قليلاً) .

ثالث عشر : إن العلماء استغلوا العلم بعيداً عن قوى الروح والقلب وحكموا العقل فى القلب ، كما حكموا العلم فى الدين ، فنتجت عن ذلك أخطار فاستأسدت الفرائز ، وأسرفت المطامع ، فإذا آلة العلم نتجه نحو التدمير والتخريب والفتك والتقتيل ، حتى أصبحت القوة مقياس تقدم الأمم وعظمتها ، ولو تدخل القلب واتجهت آلة العلم نحو البناء والإثمار لسمت المدنية وارتفع شأن الإنسانية .

إن التقدم الذى وصل إليه الإنسان بالعلم لم ينج بالإنسانية من الأهوال ولم يقض على المشاكل العديدة التى يعانىها المجتمع .

إن العلم قد وضع فى أيدي الإنسان قوة عظيمة إذا لم يحطها بسياج من الخلق والروح والقلب تحولت إلى قوة هدامة مدمرة ، كذلك فهم نظروا إلى الظواهر ولم ينظروا إلى صانعها وخالقها وإلى ما وراءها .

رابع عشر : خطأ القول بأن العلم سيقضى على الدين أو أنهما لا يعيشان معاً ، والحقيقة أن العلم لن يقضى على الدين بل إن العلم سوف يؤكد الدين ، فالدين أوسع إطاراً من العلم ، لأنه يرسم الطريق الذى تتحرك فيه القوى كلها ومن بينها العلم (وذلك بمفهوم الإسلام

للمدين لا بمفهوم الأديان الأخرى) فإذا تحرر العلم من روح الدين كان وبالا على الإنسانية ، إن روح العلم في الإسلام هي في صميمها التجرد للحق والصدق فيه • وقد وجه الإسلام المسلمين لابتغاء الحقيقة ، لا ابتغاء المنفعة • ولقد قررت الحقائق العلمية الأصيلة : أن العلوم الطبيعية لا تستطيع أن تدرك كنه الدين في مجالاته الروحية لأن العلوم الطبيعية مادية لا تستطيع أن تمارس غير المحسوس والملموس ، وفي نظام الكون وفي طبيعة النفس البشرية إحساسات ومشاعر لا تخضع للمحسوس

ومن هنا كان خطأ إخضاع المفاهيم الاجتماعية والنفسية والأخلاقية وغيرها من الدراسات الإنسانية لمناهج العلوم الطبيعية والتجريبية ، ومحاولة إخضاع الظواهر الاجتماعية لقوانين معينة على نمط قوانين الطبيعة في علم الفيزياء •

خامس عشر : ان خطوات العلم القائمة الآن تتجه كلها إلى كشف الحقائق التي ظلت « المادية » تروجها عشرات السنين ، وخاصة فكرة الحقيقة العلمية ، فقد أثار الكونت ذي نوى في كتابه (مصير البشرية) : « أن بعض التعابير كالحقيقة العلمية مثلاً يجب أن تؤخذ بحدود ضيقة وليس بالمعنى الحرفي كما يظن العامة ، فليس هناك (حقيقة علمية) بالمعنى المطلق • وأن السير نحو الحقيقة بواسطة العلم قول باطل ، فهناك فقد مجموعات من الإحساسات التي وجدنا بالتجربة أنها تتبع بعضها البعض بترتيب معين ، والتي تدعى أنها ستتوالى على نفس النمط في فترة مستقبلية محددة ، تلك هي روح حقيقتها العلمية » •

وفي مسألة المادة والأثير يقول الأستاذ (ادنجتون) : « ليس الأثير نوعاً من المادة فهو لا مادي ، ومعنى هذا أن شيئاً (مادياً) يحيل نفسه إلى (مادة) بواسطة بعض الالتواء العاوض أو دوامات ، ويصبح ذلك الذي لم يكن له (بعد) أو (ثقل) بإضافة أجزاء منه بعضها إلى بعض مادة متميزة ويمكن أن توزن •

والعلم يقول الآن : « إلّا الجاذبية ليست إلّا فرضاً من الفروض ، وأن الأثير فضاء أو كالفضاء ، وهذه هى معركة الكهرباء والذرن : فقد أفلتت المادة من بين أيدي العلماء ، وأفلتت من المادة كل شئ ثابت أو كانوا يحسبونه مضرب المثل في الثبوت • وقد تقدم العلم بالكهرباء ، والذرة ، فإذا بالمادة كلها كهارب وذرات ، وإذا بالذرات تنفلق فتنتطلق شعاعاً كشعاع النور •

وكذلك فقد دخل الشك الى فرضية سبق المادة للفكر أو سبق الفكر للمادة •

وقد أخذ العلماء يتراجعون خطوة وراء خطوة بعد أن تخلوا عن البحث في أولية المادة والفكر ، ثم بعد أن تخلوا عن البحث في أولية التأثير المتبادل بينهما وانتهوا إلى الوقوف عند النشاط الإنساني •

ولاشك أن تنازلهم عن الإصرار على أن المادة أولا سيفقدهم القدرة على الإصرار على أن المادة هى المؤثر الحاسم في عملية التطور ومن هذا وصل العلماء إلى إقتناع كامل أن الإنسان ليس من صنع المادة — كما تقول النظرية المادية — لأن المصنوع لا يحيط بصانعه والإنسان قد أحاط بكل صور المادة وخرج منها إلى دائرة أوسع منها هى دائرة الأثير •

وإذا تحولت المادة إلى حسبة رياضية يحتويها الفكر فإن ذلك يجعل المنطق القائل بأن المادة أسبق في الوجود على الفكر في مازق علمي شديد التناقض مع العلم الجديد • وفي مازق أشد حرجا مع مسلمات الماركسية التى قامت على أساس صحة هذا الافتراض وما ارتبط به بعد ذلك من مصالح سياسية كبرى •

سادس عشر : يقول الدكتور كارل في كتابه (تجديد الإنسان) : إن معالمنا غير وافية ، فنحن نعلم كثيرا عن الشموس والمجرات ولكننا

عاجزون عن الملائمة بين نفوسنا والعالم الميكانيكى الذى خلقناه ، ولذلك يتعذر أن نعيش فى سلام ، لقد فرقت الحضارة منذ اليوم الأول بين المادة والروح ، واعتمدت على المادة ، ففرق جاليلو بين خواص الأجسام الأولية كالأبعاد والوزن وهى مما يسهل قياسه و الخواص الثانوية كاللون والرائحة وهى مما لا يقاس ، حصر اتباع جاليلو همهم فى الكم وأهملوا النوع ، أن حماسهم فى سبيل الوزن والقياس حولت الإنسان إلى عوالم الطبيعة والرياضة والكيمياء ، هذا الخطأ يجب إصلاحه قبل أن يتمكن العالم من إنقاذ الحضارة ، لأن فى الإنسان شيئا أكثر من الطبيعة والكيمياء ونواميسها ، كذلك فصل ديكارت الأشياء المادية عن الأشياء الروحية فأصبحت مظاهر العقل بعد هذا التفريق مما لا يمكن تفسيره . وغدا بناء الجسم وطريقة مقامه لوظائفه المختلفة فى نظرهم أشد ثبوتا من الفكرة والنشوة والحزن والجمال : هذا الخطأ حول الحضارة إلى الطريق الذى أغضت إلى انتصار العلم وانحطاط الإنسان . وإن منقذى العالم يجب أن يتوافروا على دراسة الإنسان من ناحيته الكمية والنوعية معا .

سابع عشر : ظهرت حقائق كثيرة تشكك فى نظرية التناقض ، التى يراها بعض الماديين حتمية بين التطور والثبات فإن الثبات يبدو نظريا لأول وهلة نقيض التطور والحركة ، ولكننا إذا تعمقنا وجدنا أن للتطور أو الحركة ضوابط : هذه الضوابط بطبيعتها ثابتة .



هذه المجموعة من الحقائق يجب أن تكون بين يدي أبنائنا فى الدراسات العلمية فى الجامعات والكليات العلمية ، لتضىء الطريق لهم أمام شبهات النظرية المادية التى تحاول السيطرة على العلم التجريبي وتزاحمه ، وفى ضوء الإسلام نجد الحقائق الاصلية .

المنهج العلمى فى ضوء الإسلام

العلم الحديث انما هو كاشف لحقيقة صنع الله وليس منشأ لخلق من خلقه ، والعلم الحديث يركز أساسا الى القانون الإلهى : (لا تبديل لخلق الله) ومن هنا جاءت طريقة العلم الحديث فى الملاحظة والتجربة التى تتحول إلى نظرية ، فإذا ما ثبتت النظرية على كل الوجوه من العلماء والباحثين ، وأصبحت حقيقة يقينية فهى فى هذه الحالة وحدها تكشف عن حقيقة علمية لو بحث الباحثون لوجدوا أنها حقيقة ثابتة فى العلم القرآنى ، وكل ما يثبت كشفه فى العلوم الحديثة إنما جاء كاشفا ومقرراً لحقيقة من حقائق خلق الله قال بها كتاب الله صراحة أو إيماء •

والعلم الحديث أخذ هذه الطريقة من علماء المسلمين ، وقد اعترف علماء الغرب بأنهم أخذوا طريقهم من علماء العرب المسلمين ، وكانوا يعرفون نجاح طريقهم إلى اجتماع عبادة الله والإيمان به مع البحث العلمى والتجارب العلمية فى فكر العالم الإسلامى واجتهاده •

فقد ارتقى المسلمون إلى درجة علمية أساسها (التجربة والملاحظة) وهى الأساس فى إرساء المناهج العلمية الحديثة ، ولم يبتدع المسلمون هذه الطريقة ولكنهم أخذوها من منهج القران فى طرح العلم القرآنى ، ومن ثم فإن منهج العلم الحديث يتفق مع العلم القرآنى • فالعالم فى بحثه إنما يتجه إلى الملاحظة والفرض ، ثم التجربة والنظرية ، حتى تبلغ الوقائع المفسرة بهذه النظرية من الكثرة ما يجعلها (حقيقة يقينية) فتكون قانوناً عاماً كاشفا لقانون الفطرة : أى سنن الله فى الكون ، وإذا تأيدت انطبقت على القانون الطبيعى (الفطرة) • فإذا تنافرت معها فهى لا تكون حقيقة ثابتة بل تخضع للتغيير •

ثانيا : التجربة والتجريب :

يقول الدكتور عبد الباسط محمد حسن فى كتابه (أصول البحث

الاجتماعي) : لقد كان نصيب العرب (يقصد المسلمون) في خلق المنهج العلمي كبيراً ، فالفكر العربي في جوهره كان فكراً تجريبياً ، تجاوز الحدود الصورية لمنطق أرسطو ، واتخذ الملاحظة والتجريب مصدراً لعلمه .

وكان هذا الفكر التجريبي يربط بين التأمل النظري والممارسة العلمية ويتجه إلى التحديد الكمي (وهذا هو التكامل) .

وقد اختلف منهج العرب عن منهج الإغريق اختلافاً بينياً ، وهذا هو ما تحقق بالفعل ، فقد عارض العرب المنهج القياسي وخرجوا من حدوده الى حدود الملاحظة والتجربة ، ذلك لأن الأقيسة المنطقية كما قال ابن خلدون أحكام ذهنية والموجودات الخارجية متشخصة . فالتطابق بينهما غير يقيني لأن المادة تحول دونه . اللهم إلا ما يشهد به الحس من ذلك ، فدليله شهوده ، لا تلك البراهين المنطقية .

وقد اهتم العرب بالعلوم التي تصطنع منهج الاستقراء واتخذوا الملاحظة والتجربة أداة لتحصيل المعارف العلمية واستعانوا بالأدوات العلمية في القياس ليحصلوا على نتائج جديدة .

وقد عملوا في الفلك والطبيعة والكيمياء والطب وظهرت منهم أسماء لامعة في هذه الميادين : (البيروني ، الخازن ، البصري ، الحسن بن الهيثم ، جابر بن حيان ، أبو بكر الرازي ، ابن سينا) وقد اصطنع هؤلاء المنهج الاستقرائي .

قال (جابر بن حيان) عن قيمة التجربة : « إن واجب المشتغل في الطبيعيات ولاكيمياء هو العمل واجراء التجارب . وإن المعرفة الحقيقية لا تحصل إلا بها » .

وحدد (الحسن بن الهيثم) أصول المنهج الاستقرائي تحديداً دقيقاً حين قال : « نبتدىء في البحث باستقراء الموجودات ونتصفح حال المبصرات ونتميز خواص الجزئيات » .

وكلفوا يسمون التجربة (الاعتبار) وقد بينوا أهميتها في دراسة الظواهر تحت ظروف مختلفة [لتجعل غرضنا في جميع ما نستقره ونتصفحه استعمال العدل ، لا اتباع الهوى ، ونتحرى في سائر ما نميز وننفذه طلب الحق لا الميل مع الآراء] •

دراسة الحالة :

وقد قاموا بإجراء التجارب على الحيوانات فتجرت القردة الزئبق ، واختبروا آثار الأدوية عليها وسجلوا جميع ما شاهدوه تسجيلا دقيقا ، كما عرفوا منهج : (دراسة الحالة) فكانوا يدعون المريض إلى رواية تاريخ حياته ويسأل عن أحوله الحاضرة والظروف الاجتماعية المحيطة به •

وقد استعان الأوروبيون بما نقلوه عن العرب ، وفصل العلماء بين القياسى (اليونانى) والاستقراء (العربى) ملاحظين أن الثانى هو سبيل الوصول إلى المعرفة العلمية ، على حين أن الأول يقوم على حقائق معروفة من قبل ، لذلك نادوا باستخدام الملاحظة والتجربة للوصول إلى الحقائق •

وفى مقدمة من أرسى دعائم التفكير العلمى فى أوربا (روجر بيكون • ١٢٩٤ م) الذى دعا إلى استخدام الملاحظة والتجربة وفرض الفروض للوصول الى الحقائق العلمية ، ثم حمل فرنسيس بيكون على المنهج القياسى حملة قاسية ، ودعا إلى استخدام التجربة التى يعتبرها المعلم الصادق والوسيلة الناجحة لفهم ظواهر الحياة • ووضع كتابه (الاركانون الجديد) ليفضل فيه قواعد المنهج التجريبي وخطواته الذى كشف فيه عن (١) أوهام الجنس التى ترجع إلى نقص العقل الإنسانى (٢) وأوهام الكهف التى هى ضرب من الضعف العقلى ، فلكل فرد مغارته وكهفه الخاص ، (٣) وأوهام السوق وهى التى تنشأ من الاخطاء الناشئة عن التخاطب والتعامل مع الناس (٤) وأوهام المسرح وهى التى تنشأ عما يقوله الفلاسفة والعلماء دون تمحيص •

وأوضح ببيكون أن أصول المنهج التجريبي الصحيح هي : جمع الحقائق وتقسيمها إلى طوائف منفصلة والمقارنة بينها وموازنة بعضها ببعض والتحقق من النتائج ، وهذا كله مستمد مما كتب جابر وابن الهيثم وغيرهم ثم جاء جون ستوارت مل فصاغ المنهج التجريبي في قالب أشمل وحدد شروط التجربة ، ووضع القوانين التي تمكن من صدق الفروض العلمية أو خطئها ، ثم دعا كلود برنارد إلى استخدام المنهج التجريبي على أوسع نطاق ، وهاجم استقراء الحقائق من الأدلة النقلية وحذر من الاطمئنان إلى شهرة السابقين .

هذا الذي أورده الدكتور عبد الباسط يكشف بوضوح الخلفية الأصلية وراء (مناهج العلوم) التي يزدهى بها الغرب والتي تدرس في جامعاتنا على أنها من علم الغرب والتي تبدأ عادة بما كتبه ببيكون وروجر وفرنسيس ، وهو استهلال ناقص وظالم في نفس الوقت : ذلك أن ما قدمه هؤلاء العلماء إنما جاء بعد دراسة واستيعاب لكل ما كتبه علماء المسلمين الذين سبقوا على الطريق والذين تعدوا القواعد في منهج البحث التجريبي وفي طليعتهم عشرون عالماً .

(ابن سينا ، ابن الهيثم ، البيروني ، جابر بن حيان ، ابن النفيس ، الخوارزمي ، الخازن ، ابن يونس الصوفي ، الزهراوي ، ثابت بن قرة ، البوزجاني ، البغدادي ، ابن البيطار ، ابن ماجد ، المجريطي ، الغافقي ، ابن مسكويه ، ابن خلدون ، المقدسي) .

هؤلاء الذين حين بدعوا صححوا أخطاء بطليموس وإقليدس وأرشميدس وجالينوس ، ثم انطلقوا صوب الإبداع والإضافة الواسعة في مختلف المجالات (الرياضيات ، الفلك ، الحساب ، الجبر ، الكيمياء ، الطب ، الصيدلة ، النبات ، الحيوان ، المعادن) .

وقد اعترف علماء الغرب اعترافاً واضحاً جازماً بأكثر من صيغة وعصر وكتاب ، بأنه لولا أعمال العلماء المسلمين لاضطر علماء النهضة

الاوروبية أن يبعوا من حيث بدأ أولئك ، ولتأخر سير المدينة عدة قرون ،
وقالوا :

كان لا بد من ظهور ابن الهيثم والصوفي والبيروني وأمثالهم لكي
يظهر : جاليلو وكبلر وكوبر نيك ونيوتن من أعلام النهضة الاوروبية .

ومن هنا وجب إحقاقا للحق واعترافاً بالأمانة العلمية أن يقدم هذا
اندور في دراسات الجامعات الإسلامية والعربية وأن يسبق دراسات
الحضارة المعاصرة ، ونحن حين نفعل هذا إنما نقرر حقيقة أصبح
الآن معترفاً بها في مختلف دوائر العلم الغربية ، من أن أوربا مدينة
للمسلمين وان المسلمين هم أساتذة الغرب في مختلف العلوم .

وقد أشار كثير علماء الغرب إلى أن كثيراً من النظريات « حسبها من
صنعنا وإذا بالعرب قد سبقونا إليها » .

وكما قدم المسلمون منهج العلم التجريبي ، فقد قدموا منهج صياغة
العلماء وقد عرف العلماء المسلمون بالتواضع والارتفاع بعلمهم عن
الغرض وزهدهم في الترف والسلطان ، وعزوفهم عن الصفائر ، مما
أعلى شأنهم إلى جانب استعدادهم الذهني وجلدهم العجيب على العمل ،
ومثابرتهم وما أتيج لهم من حرية في الفكر العلمي ولعدم الحجر على
آرائهم العلمية أو اضطهادهم بسبب تلك الآراء ، كل ذلك هيا لهم الإبداع
الفكري وغزارة الإنتاج . . وبذلك كانوا هم بناة منهج « صياغة
العلماء » كما كانوا المنشئون لـ : « المنهج العلمي التجريبي » .

ثالثا : كانت نظرتهم الى العلم تقوم على إيمان صادق بالله تبارك
وتعالى ، ويقين بأن العلم كله والعمل كله موجه إليه تبارك وتعالى ،
خالصاً ، لا يلتبس به مطمع ولا جزاء لا شهرة ، وإنما يراد به خدمة
الإنسانية والمجتمع والناس .

ثم ان هذا العلم ليس علما دينياً خالصاً ، ولكنه علم فى مختلف مجالاته مستمد من القرآن متصل به ، فالقرآن هو الذى أعطى المسلمين ذلك الضوء الكاشف الذى هداهم إلى النظر فى الطبيعية والبحث فى الأرض ، وهو الذى مضى بهم حتى أنشؤا « المنهج العلمى التجريبي » الذى كشف آفاق المجهول فقدموا من خلاله إضافات جديدة تقدمت بها الإنسانية حين نمتها باسم الحضارة الحديثة •

ولقد ظلت أوروبا خمسة قرون كاملة تنكر هذه الأسبقية الأصلية فى بناء العلم ، وقد خلت كتبها من الإشارة إلى هذا العمل الضخم الذى قدم القواعد التى بنوا عليها عملهم من بعد ، ولما دخل الاستعمار بلادنا فرضت علينا فى المدارس • والجامعات مناهج لا تعترف بهذا الدور كله ، وتنكره تماماً ولا تشير إليه أية إشارة ، حتى يخيل للطالب والباحث أن هذا العلم غربى الأصل والمنزع ، وأن المسلمين لم يكن لهم شأن فيه — أى شأن — ولقد ظل علماء كثيرون غربيون يتجاهلون هذا الإنجاز البعيد المدى ، الذى أحدثه الإسلام فى النهضة الأوروبية الحديثة وفى الحضارة العالمية ، بل إن هذه الاستهلاكات الإسلامية لكثير من العلوم والإصناف قد جرى تجريدها من إطار الإسلام حتى تصبح من إبداع الفلاسفة والعلماء الغربيين •

وفى السنوات الأخيرة تحدث مجموعة من المؤرخين والباحثين عن هذه الحقيقة المهضومة التى ما كان لها أن تظل فى طى الخفاء سنوات طويلة ، وفى مقدمة هؤلاء : جوستاف لوبون فى (حضارة العرب) وتوماس كارليل فى (الأبطال) وبريفولت فى (بناء الإنسانية) ودرابر فى (مقدمة العلوم) وكان آخر هذه الصيحات وأعمقها كتاب (أوروبا ولدت فى آسيا) وكتاب (شمس الله تشرق على الغرب) للدكتورة سجيريد هونكه ، ويجىء الانصاف ليشير إلى دور المسلمين فى الكيمياء والطب والفلك والعلوم الرياضية ، ولكن المراجعة الدقيقة للدور الذى قام به الإسلام وحضارته وفكره ، يكشف عن أثر أبعد عمقا ، فالفكر الإسلامى لم يقف إضافته

عند العلوم وحدها ولكنه أضاف إلى الاجتماع والسياسة والاقتصاد .

ومن هنا فإن هناك ضرورة ملحة أن تنصدر دراسات العلوم في جامعاتنا العربية والإسلامية مقدمة تكشف عن حقيقة هذا الدور وتضعه في مكانه الصحيح تاريخ العلم الحديث . ونحن نعرف أن تدريس العلوم إنما يتم بناء على المنهج الإنجليزى أو المنهج الفرنسى ، وأنه تجرى دراسة المذاهب الفكرية العالمية شرقية وغربية مع تجاهل كامل للمنهج الإسلامى ، وذلك فيما يتصل بفلسفة العلم نفسه ومفهوم الإسلام له .

وعندما أنشئت كلية العلوم بالجامعة الاصرية عام ١٩٢٥ سيطر على مناهجها مجموعة من العلماء الغربيين (أوليفر هوجيوم ، بنجهام ، نيو وغيرهم) وأن الجماعة الأولى من العلماء الذين برزت شهرتهم : محمد خليل عبد الخالق ، ومشرقة ، وأحمد زكى ، وعلى إبراهيم ومصطفى نظيف ، ومحمد رضا مدور ، وحسن صادق ، وقد حاول كثير منهم أن يقدم المنهج الإسلامى للعلم ، ولكن ذلك لم يتحقق على الوجه الأمثل .

هذا ومن أهم ما يعترض مفهوم العلم الطبيعى فى السنوات الأخيرة ويغير كثيراً من المسلمات : أن نظرية دارون (التى ما تزال تدرس فى المدارس والجامعات العربية) قد تكشف فسادها بعد أن أثبتت التجارب أنه لا علاقة بين الجنس البشرى والأجناس الحيوانية ، وأنه لا توجد علاقة مشتركة بين الجنسين .

وقد أعلن الدكتور رونالد جونسون أستاذ علوم الأجناس البشرية عام ١٩٧٤ : أن العلماء يستطيعون الآن أن يقولوا بعد دراسات وتجارب امتدت سنوات طويلة بنسبة ٩٩.٩ بالمائة من الدقة ان الإنسان سار منتسباً على قدميه منذ أن وجد على الأرض ، أى أنه بدأ تاريخه الإنسانى منذ أكثر من ثلاثة ملايين سنة . بعد أن عثر على مجموعة من العظام يرجع تاريخها إلى ثلاثة ملايين سنة .

وكلك ظهرت عظام ترجع إلى خمسة ملايين سنة وكل هذا يشير إلى أن الإنسان القديم كان يسير منتصب القامة منذ ذلك الوقت .

ويؤكد العالم الفرنسى جان بيفتو — رئيس المجمع العلمى الفرنسى سابقا — بعد أن أوقف من عمره نصف قرن لدراسة أصل الإنسان : « إن الإنسان ليست له علاقة تجانس بالقرد ، وإن كل التشابهات بين القرد والإنسان غير كافية لتجزم بوجود أصل واحد للإنسان والقرد » وهو يرفض هذا الافتراض لاعتقاده أن الإنسان لم يظهر على الأرض بمجرد مصادقة بل إنما كان الهدف الأخير من تنظيم الكون ولذلك جاء مركبا في أكمل تقويم » .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فما تزال قضية تعليم العلوم باللغة العربية عقبة كبيرة يقيمها خصوم الإسلام والعاملون على الحيلولة دون دخول المسلمين دائرة العلم ، وهى عقبة يجب القضاء عليها خاصة بعد أن أفرزت الجامعات اللغوية مئات المصطلحات القيمة التى تمكن العلماء اليوم من تقديم دراستهم باللغة العربية وهى ضرورة أساسية في بناء المنهج العلمى الإسلامى الجديد .

(١) لا يجوز شرعا نسبة النور بمفهومه المادى الى الله تبارك وتعالى فهو سبحانه منزّه عن الشعاع وغيره من آثار الماديات ويترتب على هذا انه من الخطأ الاعتقاد بأن الكون مخلوق من بعض نور الله ، أو انه صدر عن ذات الله تعالى نور تشكل منه الكون كما يرى أصحاب نظرية الفيض والحق انه لا تشابه بين الخالق والمخلوق ، والكون مخلوق الله لا جزء منه اذ التجزئ محال على الله تبارك وتعالى .

الفصل السابع

مناهج الإسلام

في العلوم السياسية والفكر السياسى الإسلامى

فوارق عميقة بين الشورى الإسلامية والديمقراطية الغربية :

تدرس الجامعات الفكر السياسى والعلوم السياسية دراسة غربية خالصة ، سواء في مجال الليبرالية والديمقراطية ، أو الوطنية القومية ، أو الرأسمالية والماركسية ، أو في مجال السياق التاريخى الذى يدرس العلوم السياسية على أساس تطبيقها في المجتمع الأوربى والأمريكى ، خلال مراحل العصور القديمة والوسطى الحديثة ، دون أن يدرس ما سبق ذلك وما صاحبه من مفهوم العلوم السياسية في المجتمع الإسلامى ، منذ ظهور الإسلام إلى اليوم .

ظهور حركات الاستقلال والمثل العليا :

ومنذ الاحتلال الغربى للأقطار العربية بدأت فكرة التحرر من الاستعمار ، من خلال الحركات الوطنية مرتبطة بالنظام الغربى (الديمقراطية والليبرالية) على أنها المثل الأعلى لإقامة حياة سياسية عصرية على أساس الدستور والانتخاب والنظام البرلمانى ، وقد عدت هذه الأقطار تطبيق النظام الغربى الديمراطى كسباً كبيراً حققتة .

ومن ثم فقد نشأت هذه الأجيال في إطار المفاهيم السياسية الوافدة دون أن تعرف كثيراً عن العلوم السياسية الإسلامية أو النظام السياسى الإسلامى ، أو تتعمق وجوه الخلاف الواسع بين الدين والدولة في مفهوم الإسلام ، في حين تتفصل النظرية الغربية عن هذه القيم .

أصول النظرية الغربية :

هذا فضلا عن أن النظرية السياسية الغربية ، التي تفرق الآن مجالات التعليم والدراسة والصحافة ، نظرية قائمة على الأصول اليونانية والرومانية القديمة ، التي كانت تجعل الحرية والديمقراطية والعدل للسلادة وحدهم ، في حين لا يطبق هذا على المجموعات العامة من العبيد •

وقد انبعثت هذه المفاهيم في الفكر السياسي الغربي حين قدم « ميكافيلي » نظرية السياسة التي اعتنقتها أوروبا منذ ذلك الوقت ، وما زالت تؤمن بها وتطبقها ، دعا ميكافيلي في كتابه « الأمير » إلى فصل السياسة عن الأخلاق ، واستقلال السياسة وأولويتها على الأخلاق •

وكان هذا الاتجاه من ميكافيلي والسياسة الغربية مناقضا للمفكرة النصرانية وللمفهوم الإنساني بعامة ، ولم يقف أمر ميكافيلي عند هذا الحد بل إنه دعا إلى القسر في حمل الناس على معتقده • •

وقد اعتبر الفكر السياسي الغربي كتاب « الأمير » إنجيلا لأصحاب السلطة السياسية ، ومنه خط واضح في الفكر السياسي والفلسفة السياسية الأوروبية •

فقد جحد ميكافيلي تعاليم الدين النصراني ، وتنكر لمبادئ الأخلاق ، ونظر إلى السياسة نظرة واقعية مجردة ، فهو يرى أن الغاية تبرر الوسطة وأن السياسة لا خلق لها ، وأنه على الأمير أن يحقق رغبته دون النظر إلى مبادئ الأخلاق ، بل ينظر فقط إلى الوسائل التي يحافظ بها على المركز الذي يصل إليه •

يقول ميكافيلي : « على الحاكم أن يكون رجلا له بأس وخطر وشدة ، لا تحجزها رهبة ولا يصل إليها تردد ، فهو يعمل لينجح ، ثم يحافظ

على هذا النجاح » وأكبر تناقض يهن الحاكم عنده هو ضعف الإرادة أو التبرير •

وقد مضى على الأساس الذى وضعه ميكافيلى للفكر السياسى الغربى فلاسفة آخرون ، فصلوا وعمقوا ووسعوا هذه المفاهيم : منهم نيتشه وجيتى وابسن ، بل إن المؤرخين يؤكدن أن تدبير مذبحة « سنت بارتلمى » ترجع إلى تأثير هذا الكتاب على كاترين دى ميديتشى •

أما هيجل فقد أيد ميكافيلى ولكنه كان ينكر أى خلاف بين السياسة والأخلاق بحسبان أن الحكومة هى التى تحقق الفكرة الأخلاقية ، وأنها غاية فى نفسها ، وليس لها واجب أكثر من المحافظة على كيانها •

وفى رأى ميكافيلى أن الإنسان مطبوع على الشر ، وأنه أقرب إلى الحيوانات منه إلى الملائكة ، وعنده أن السياسة لا تقوم إلا على الدسائس والمؤمرات لنيل القوة •

وقد ألف ميكافيلى كتابه فى مطلع القرن السادس عشر الميلادى متأثراً بواقع أزلماته ، ثم كانت نظريته بعيدة الأثر فى الفكر الغربى كله ، وخاصة فى الفكر السياسى •

ويختلف الفكر الغربى السياسى فى هذا المفهوم ، عن الفكر الإسلامى الذى يربط بين السياسة الأخلاق (كما يربط بين القيم المختلفة) ، إذ يقر الفكر الإسلامى إخضاع أعمال وسلوك الإنسان لامقياس الخلقى ، للتمييز بين الأعمال السياسية القائمة على النفع ، والقائمة على الشر والضرر • وعن طريق هذا التمييز يمكن الوصول بالدولة إلى إسعاد المجتمع ودوام رقيه •

وكما يختلف الفكر السياسى الإسلامى عن الفكر الغربى فى هذه القضية الأساسية ، فإنه يختلف فى جوهر مفهوم السياسة نفسه ، وهو

مبدأ « سيادة الأمة ويعد مبدأ سيادة الأمة ، من أهم المبادئ الدستورية التي تقوم على أساسه » الديمقراطية الغربية •

وقد اختلفت الآراء حول نظرية السيادة ، ومن هو صاحب السيادة في الدولة : هل هو فرد ؟ أو طبقه ؟ أو فئة ؟ أو الأمة ؟

ونظرية « سيادة الأمة استنبطها رجل الفقه الفرنسي ، في عهد الحكم المطلق القديم أثناء الخلاف بين الملوك والبابوات ، الذين كانوا يعملون على بسط نفوذهم وسيطرتهم على الملوك ومن أجل إقرار سلطتهم داخل المملكة إزاء الحكام الإقطاعيين ، الذين كانوا ينازعونهم ويشاركونهم قسماً من السلطان ، ومن ثم أخذ الفقهاء الفرنسيون منذ القرن الرابع عشر ، ينادون بأن الملك يستمد سلطة من الله ، فيما يسمى نظرية الحق الإلهي أو التفويض الإلهي ، والهدف هو تخليص ملوك فرنسا من سلطان الأباطرة والبابوات •

وحين جاءت الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر ، نقلت قاداتها السيادة من الملك إلى الأمة هو التعبير القانوني عن نظام الحكم الذي يوصف بالنظام الديمقراطي •

وقد تبين للسياسيين والمؤرخين أن مبدأ سيادة الأمة هذا — الذي هو قمة النظام الديمقراطي — لا يكفل منع الاستبداد ومنع الاستئثار بالسلطة المطلقة ، وأن هناك وسائل أخرى تمكن أصحاب السلطان المستبد من الوصول إلى الحكم عن طريق النظام الديمقراطي (١) •

أما الإسلام فإنه يقرر مبدأ الشورى ، الذي يختلف اختلافاً كبيراً عن مبدأ سيادة الأمة الذي ظهر بعد الإسلام بعدة قرون •

وقد أشار المؤرخون إلى أن نظامين استبداديين قاما استناداً على

(١) كان زعماء الثورة الفرنسية هم أول من خان مبدأ سيادة الأمة بالاستبداد فجرنهم لهيب الثورة واعدوا بالمقصلة قبل أن تعود السلطة الملكية الاستبدادية من جديد •

مبدأ سيادة الأمة ، هما النظام الدكتاتوري الذي أقامه نابليون سنة ١٧٩٩ ميلادية ، والنظام الذي أقامه لويس نابليون سنة ١٨٥٢ ميلادية ، وفي هذه الظروف أودعت الأمة صاحبة السيادة هذه السلطة في يدى الرجل الذى أحرز النصر ، وهو القيصر (الدكتاتور) الذى تركت كل السلطات فى يده ، وقد تخفى القيصر وراء هيئة نيابة منتخبة من الشعب ، ولكن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد رمز أو صورة وراء سلطة ديكتاتورية مستورة وراء الاستفتاء الشعبى •

ومعنى هذا أن مبدأ سيادة الأمة الذى يباهى به النظام الديمقراطى الغربى لا يكفل منع الاستبداد أو الاستئثار بالسلطة المطلقة •

ويشير كتاب الغرب بأن الليبرالية السياسية التى نقلت إلى أفق المجتمعات الإسلامية قد فشلت فشلا ذريعا ، ولم تحقق الثورى أو العدل ، يقول مؤلف كتاب « الثورة العقائدية » :

« إن الليبرالية السياسية لم تتم نمواً موضعياً فى آية بلاد إسلامية ، وإن بعض المحاولات التى جرت لنقل اللبرالية الأوروبية فى القرن الراهن إلى بعض البلاد الإسلامية قد فشلت » ويبرر المفكرون المسلمون هذه الظاهرة بأن الإسلام دين ديمقراطى فى جوهره ، كما ينطوى على مساواة من الناس ولما ينص عليه من شورى قبل تقرير الأمور ، ولما يؤكد من إجماع ويصر عليه من ضرورة خضوع الحاكم للشرع •

وهم يقولون إن إخفاق الليبرالية الغربية فى البلاد الإسلامية ، يعود إلى الظروف التاريخية ، لا إلى ميل الفكر الإسلامى — كما يشيع الغربيون — إلى الطغيان •

ومع اعتراف المفكرين الغربيين بإخفاق الليبرالية الغربية فى البلاد الإسلامية ، فإن معاهد المسلمين وجامعاتهم ما زالت تدرس لهم العلوم السياسية وفق هذا المنهج الغربى ، وتستمر فى ذلك على نحو يعطى

انطبعا بأنه لا يوجد في العالم إلا هذا النظام الذي يتصارع في الغرب ،
في حين نرى كبار علماء السياسة يقولون :

« لقد وصلت الديمقراطية الغربية اليوم إلى مرحلة الفشل
والهزيمة والانهييار ، بعد أن اقتحمتها الأخطاء من كل جانب ولم يعد
الغرب يثق بها أو يجد فيها نظاما صالحا .

ولم تعد أحزاب الغرب تستطيع أن تنال ثقة الناس ، وقد كتب
كثيرون من أمثال أرونولد توينبي وغيره كاشفين عن عورات هذا النظام
وفساده في محال الاضطراب الاقتصادي والتحلل الاجتماعي والفساد
الأخلاقي ، واتساع الهوة بين الفقراء والأغنياء .

ومن هنا فإن هناك فارقاً بعيداً وعميقاً بين « الشورى الإسلامية »
والديمقراطية الغربية ، ولا يمكن الجمع بينهما ، والخطأ هو أن يظن
البعض أن « مبدأ » الشورى الذي يأخذ به الإسلام ، هو نفس المفهوم
الديمقراطي الغربي الذي يستند إلى مبدأ سيادة الأمة ، ويأخذ بنظام
الاقتراع أو الانتخاب العام ، فذلك شأن الديمقراطية .

ولكن الواقع أن ثمة فارقاً عميقاً بين الشورى الإسلامية التي
لا تعرف مبدأ نظرية سيادة الأمة ، ولا تتطلب الأخذ بنظام الانتخاب
العام ، كما هو في الديمقراطية الغربية المعاصرة .

الإسلام دين ودولة :

إن أخطر ما يحاول الفكر السياسي الغربي الذي تدرسه جامعاتنا
في عالم الإسلام هو مبدأ « فصل الدين عن السياسة » وهو مبدأ
غريب عن الإسلام وتاريخه ، فالإسلام في جوهره ليس مجرد إيمان
ديني ، إنه نظام حياة يشمل جميع المؤسسات الاجتماعية الدينية منها
والزمنية .

فالشرعية هي القاعدة التي يجب أن تتم على أساسها المعاملات بين المسلمين ، وتبنى عليها حياتهم المدنية بكاملها ، كما أن الجمع بين الحياة الروحية والحياة السياسية واجب ديني ، لأن وحدة الأمة روحياً منوطة بوحدتها سياسياً ولذلك فالأمة في الإسلام لن تكتمل ما لم تتحقق في دولة تتيح للمسلمين أن يعيشوا بحسب غرائض دينهم ، لذلك ينبغي أن يكون على رأسها قائد يحوز السلطة السياسية ليسهر على تطبيق القرآن ، وحفظ الشرائع وحماية مصالح المسلمين •

هكذا فهم المفكرون الغربيون الإسلام على هذا النحو فكيف بالمسلمين الذين أنزل عليهم •

ويقول الدكتور فيترجيرالد :

ليس الإسلام ديناً فحسب ، ولكنه نظام سياسى أيضاً ، وعلى الرغم من أنه ظهر في العهد الأخير أفراد من المسلمين ممن يصفون أنفسهم بأنهم عصريون ، يحاولون أن يفصلوا بين الناحيتين ، فإن صرح التفكير الإسلامى قد بنى على أساس أن الجانبين متلازمان لا يمكن أن ينفصل أحدهما عن الآخر

ويقول شاخت :

إن الإسلام يعنى أكثر من دين ، إنه يمثل نظريات قانون وسياسة ، إنه نظام كامل من الثقافة يشمل الدين والدولة معا •

تكامل الإسلام :

وقال هاملتون جيب :

صار واضحاً أن الإسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية ، وإنما استوجب إقامة مجتمع مستقل له أسلوبه المعين في الحكم وقوانينه

وأنظمته • الحق أن الإسلام ليس مجرد نظام من العقائد والعبادات ،
إنه أعظم من ذلك كثيراً فهو مدنية كاملة ، ولو بحثنا عن لفظ مقابل له لقلنا :
العالم النصراني ولم نقل النصرانية ، ولقلنا الصين بدلاً من أن نقول
ديانة كنفوشيوس ، وهو مجتمع بالغ تمام الكمال يقوم على أساس ديني ،
ويشمل كل مظاهر الحياة الإنسانية •

وقد أكد هذه النزعة الأصلية وتمثل ذلك في صوغ القانون الإسلامي
والتنظيم الاجتماعي ، وهو مجتمع لا تزال تتردد في صميمه بكل قوة
هذه الفكرة •

والحق أن نمو هذه الفكرة في الإسلام فاق كثيراً ما وصلت
إليه أوربا من متانة الصلة بين الحكومة والحياة الدينية والاجتماعية ،
فقد كانت ركناً أساسياً من فكرة المسلمين عن نظام العالم ، حتى كان
اضطراب هذه الصلة من أكبر أسباب الأزمة الحديثة في الإسلام •

ويقول ليوبولد فابيس (محمد أسد) مقارناً بين مفهوم الفكر السياسي
الغربي ، إن مبدأ فصل الدين عن السياسة ليس له من مكان يمكن أن
يستمسك عليه ، ضمن كيان الإسلام ، والعالم الإسلامي وفي سبيل النظر في
كون هذا الاتجاه له ما يبرره فكرياً وتاريخياً ، وكونه قادراً على التحقيق
العلمي •

متى بدأت فكرة فصل الدين عن الدولة :

يقول الدكتور فاضل الجمالي : إن عزل الدين عن الدولة بدأ في ظروف
تاريخية خاصة في أوروبا ، حين كان الصراع بين الكنيسة وبعض ملوك
أوروبا صراعاً عنيفاً ، وحين كان الصراع بين الطوائف النصرانية الواحدة
مع الأخرى ، يسبب حروباً دموية تدوم عشرات السنين ، وحين كان
المتعصبون من رجال الكنيسة يقاومون النظريات الحديثة العلمية ، كل
هذا أدى إلى فصل الدين عن الدولة ، وهو ما يسمى « بالعلمانية » ،
ويمكننا القول بأن العلمانية اليوم هي بمثابة حركة رجعية ، من حيث

تاريخها ، فقد زالت الظروف التاريخية التي كانت تتطلبها ، ورجعية من حيث جعلها الدولة تهمل واجباً من واجباتها ، وتنكمش عن تأديته ، ألا وهو واجب الروح .

ولا نعتقد أن العلمانية حققت أهدافها في البلاد التي طبقت فيها ، بل وقعت في تناقضات واضحة ، والشعب المسلم التركي لم يقبل هذه العلمانية ، ولم يهضمها .

رد الفعل في تركيا :

لذلك جاء الحزب الديمقراطي معبراً عن مشاعر الشعب التركي حين قام « عدنان مندريس » بتشديد ما يقرب من ألفي مسجد في القرى التركية ، وقام بتجديد المواقع العظيمة التاريخية .

ولا ريب أن تطبيق العلمانية في البلاد المسيحية أسهل منه في البلاد الإسلامية ، وذلك : أن النصرانية لم تشتمل على تشريعات تفصيلية واسعة تؤثر في الحياة الاجتماعية والمعاملات اليومية للأفراد والجماعات ، أما الإسلام ففيه العقائد العبادات والأخلاق ، وأنه جاء بنظام شامل بمس حياة الإنسان في شتى مناحيها ، وهو نظام يتفق مع طبيعة الحياة الإنسانية وقد أكد غير واحد من أساطير القانون في العلم أهمية « الشريعة الإسلامية » وما تحويه من ثروة زاخرة ، أما علمانية الدولة في البلاد الإسلامية بمعنى أن تنفصل الدولة عن الشريعة الإسلامية بصفة عامة ، فإنها لا تلائم الشعوب الإسلامية بصفة خاصة ، وذلك لأن الأمة العربية مدينة للإسلام في تكوينها الحاضر ، ويجب أن تكون حاملة رسالته إلى الإنسانية جميعاً ، فالفصل بين الدين والدولة معناه تجريد الحكومة العربية من أهم مقومات القومية ، فالأمة العربية منفصلة عن الإسلام ورسالته تصبح كجسم منفصل عن حياته ، وعن روحه ، والفصل هذا يجعل من الجسم قشراً فارغاً لا لب فيه ، يسهل دخول المبادئ الوافدة على اختلاف أنواعها .

الدولة الشيوقراطية :

كذلك فقد حاول التغريب والغزو الثقافي الادعاء بأن الإسلام : أقام الدولة الشيوقراطية ، أى الدولة الدينية ، التى عرفها الغرب بـ « حكم البابوات » والواقع أن الإسلام لم يعرف هذه الدولة الشيوقراطية التى عرفتها أوروبا فى العصور الوسطى ، عندما سيطرت طبقة من رجال الدين على السياسة العليا وليس هذا النوع من الحكومة مما يقره الإسلام أو يعترف به •

فالإسلام لا يعترف بنظام الكهانة ، أو وجود طبقة ممتازة تدعى رجال الدين ، ولا يعترف بأن هناك طبقة أو شخصاً ما يستطيع أن يتميز بنوع من القداسة دون الناس جميعاً •

والنظام الإسلامى الاجتماعى نظام خاص ، يختلف من وجوه عديدة عن الأنظمة التى عرفها الغرب ، لذلك فالقول بأن الدولة الإسلامية كانت دولة « شيوقراطية » هو قول باطل ومردود ، ذلك أن النظام الإسلامى نظام شامل للأمة جميعاً ، يستمد مصادره الأولى من القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ويفسح الطريق إلى الاجتهاد فى الفروع فيما لم يرد فيه نص ، ويقوم على إطارات واسعة مرنة ، قادرة على ايجاد حلول يسيرة لقضايا العصور والبيئات المختلفة والمتجددة ، مع التمكن من مواجهتها والاستجابة لها ، بما يحقق العدل ، دون أن يكون الإسلام فى ذلك مطية لأهواء المجتمعات أو خادماً لانحرافات •

فالتشريع الإسلامى لا يقر مذهباً يفرض مفهوماً مادياً خالصاً أو روحياً خالصاً على المجتمعات ، أو مذهباً يقدم الاقتصاد على الأخلاق والعقائد ، أو يفترض نسبية الأخلاق أو الهبوط بالإنسان إلى تجارب الحيوان . . . أو التسليم بالإباحية المطلقة باسم الحرية والتطور المطلق ، ويقر

المفاهيم التى تقوم على الربط بين القيم وضوابط الحرية والمسئولية الفردية وإقامة حركة التطور من داخل دائرة الثبات .

دعوة باطلية :

ولقد كان من أغرب المحاولات التى قام بها التغريب والغزو الثقافى من أجل تثبيت المنهج الغربى للعلوم السياسية ، الادعاء بالباطل بأن الإسلام لا يملك فكراً سياسياً ، وقد ظل الدكتور طه حسين وعدد من كتاب العرب الجارين فى فلك التغريب والتبعية الثقافية ، يلحون على القول بأن المسلمين والعرب لم يكن لهم نظام سياسى أصيل ، وأن مصدر النظرية السياسية هو فكر رومانى ، وأن العرب المسلمين كانوا نقله لهذه الدراسات .

وقد ظل هذا الاتهام قائماً كالسيف المصلت سنوات طويلة ، حتى قام دكتور ضياء الدين الرئيس بالكشف عن زيفه ، وتأكيد خطئه ، بمؤلف ضخّم فصل فيه النظريات السياسية الإسلامية وكشف عن حقيقة الأمر فى هذا الصدر بما لا يدل فقط على أطلالة النظرية السياسية الإسلامية بل على أنها كانت المصدر الأول للدولة الحديثة .

يقول الدكتور الرئيس : «لقد كان الذى يدرس لنا فى أوربا هى نظريات الإغريق والرومان وأمثالهم من المفكرين الأوربيين ، فأين مكان الفكر الإسلامى بين هذا الإنتاج الإنسانى اليوم ، ولما كانت الإجابة عن هذا السؤال يجب أن تكون مبيّنة على أساس علمى ، فلا بد لنا من دراسة شاملة للتراث الإسلامى الخالد ، وتعقب الأفكار التى بثت هنا وهناك فى ثنايا الكتب التى ألفها القدماء فى العلوم الماثورة المختلفة ، ولا تزال مكتوبة بلغتهم الاصطلاحية التى لم تعد مألوفة اليوم ، ولن يكون الجواب بالسلب .

ذلك أولاً : لأن إنتاج الفكر الإسلامى فى مختلف فواحي العلوم

إنناج حافل فلا يعقل أن يظن أن هذه الناحية الهامة من نواحي الشافة الإنسانية قد أهملت ، ونعنى بها الناحية الريباسية •

وثانيا : لأن المجتمع الإسلامى من خلال العصور المتعاقبة قد نجح فى إنشاء دول بل امبراطوريات بلغت من الدقة فى أنظمتها وإدارتها وأساليبها ما لم تبلغه النظم السياسية والإدارية التى ألفها العالم قبل وجود هذا المجتمع •

اقتباسات النظم الأوربية :

ومن الحقائق التى لا تزال غير معروفة للكثيرين ، أن الدولة الحديثة — وهى إحدى العوامل التى كانت سبباً فى انتقال أوربا من العصور الوسطى ، أو الفوضى الاجتماعية التى سميت بالنظام الاقطاعى — هذه الدولة الحديثة كانت اقتباسا إلى حد قريب أو بعيد من الدول التى كانت موجودة فى بلاد الشرق الإسلامى لهذا العهد •

كما أن النهضة القانونية التى حدثت فى أوربا وأدت إلى أن تكون تلك الدولة ، كانت صدى لنشاط الدراسات القانونية فى الممالك الإسلامية التى كان القانون أو الفقه هو المادة الأولى للدراسة فى جميع كلياتها ، فنشأت الجامعات فى إيطاليا وفرنسا متأثرة بهذه الروح عاملا على تنفيذ المنهج على النمط الذى شهدته فى الشرق •

فإذا كان هذا هو أثر المجتمع الإسلامى فى ميدان السياسة العملية ، وذاك هو إنتاج الفكر فى مختلف نواحي العلوم ، فلا يتوقع إلا أن يكون لها مثل هذا الإنتاج فى أفق السياسة النظرية مع مراعاة الحدود بطبيعة الحال التى أنتهت إليها الثقافة ، ووصل إليها التطور الاجتماعى فى ذلك العصر •

أسس الحكم فى الدولة الإسلامية :

فالمسلمون قد فكروا فعلا فى اليباسة ، وكونوا لهم نظريات عنها ،

غير أن بحثهم كان تحت اسم آخر ، وتكلموا بلغة أصبحت غير مألوفة في العصر الحاضر ، فالنظريات التي وصلوا إليها كانت إما جزاءً من مباحث علم الفقه والكلام أو التاريخ أو الفلسفة أو الأدب ، ويوجد بعضها أيضاً في تفاسير القرآن ، وفي شروح الأحاديث ، ولذا فإنه ينبغي لمن يريد أن يفهم هذه الآراء فهماً حقيقياً ويلم بها إماماً تاماً ، أن يرجع إلى تلك العلوم جميعاً .

وهذه النظريات في مجموعها وهي تكون ثروة عظيمة القيمة جدرة بالدراسة ، تضاهي ما أنتجت أوروبا في بعض عصورها الزاهية بل إن من بين هذه الدراسات ما لم تصل أوروبا إلى معرفته إلا بعد أن قطعت شوطاً طويلاً في طريق التطور ، وما يمكن أن يوصف بأنه يعبر عن أسمى المبادئ السياسية التي وصلت إليها الإنسانية .

ومن أبرز المميزات العامة للتفكير الإسلامي والتي تميزه عن التفكير الغربي في كثير من عصوره أنه كان مرتبطاً دائماً بالقيم الأخلاقية لا يستطيع أن ينفصل عنها أو يتجاهلها ، بل إن هذه القيم كانت هي غاياته الأساسية وجوهر حياته الذي يفقد كيانه إذا فقده ، وأنه منذ نشأته رسم الله له حدوداً جعلت تطوره ينتهي إلى غاية لا يعدوها ، وإن كان من الممكن في العصر الحاضر أن يجعل ما أنتهى إليه من نتائج كأساس ، ويبدأ في تحديد ووضع نظام محدث له .

وهكذا نجد أن معالم الفكر السياسي الإسلامي قائمة فعلاً بطابعها المستقل ، التي لا يمكن أن توصف بأنها مستمدة أو متشابهة مع الفكر السياسي الغربي ، فإذا وجدت مشابهة في بعض الفروع ، فإنها تختلف في الأساس والغايات كل الاختلاف ، ويقوم الفكر السياسي الإسلامي على أساس قانوني هو الشريعة الإسلامية التي تضع أهمية كبرى للمجتمع وسعادته .

والحريات الإسلامية هي حريات فعلية حقيقية ، وهي مقيدة وموصوفة
بمبدأ معين ، هي المشروعية الإسلامية ، فهي ليست حريات لا موضوع لها
كما في النظم الديمقراطية الحديثة •

وقد سبق الإسلام الغرب في تقرير حقوق الإنسان ، عندما أعلن
أعلن حق المساواة في الإنسانية ، وكانت المجتمعات الغربية زاخرة بالفوارق
والخلافات •

كذلك سبق الإسلام الفكر السياسي الغربي إلى صيانة حقوق المرأة
ورد الاعتبار الإنساني إلى الطوائف المستضعفة ، والقضاء على الرق
بطريقة تدريجية ، والقضاء على النظام الطبقي ونظام العبودية والغناء
الفوارق الجنسية والعرقية •

كما أعلن الإسلام قبل أربعة عشر قرنا حرية العقيدة والتفكير ، وحق
التمتع بحياة آمنة يتوفر فيها الأمن والرزق ، الإعام من جوع ، والأمان
من خوف •

السياسة الشرعية في مؤلفات المسلمين :

وقد ألف المفكرون المسلمون القدامى أكثر من خمسين كتابا في علوم
السياسة والإدارة ، وهذا ينفي الزعم القائل بأن مفكرينا لم يولوا هذه
الموضوعات عنايتهم ، كما أن الفقهاء قد وضعوا استمدادا من القرآن
والحديث ، الأحكام القانونية في جميع نواحي السلوك الفردي والجماعي ،
ومنها السلوك السياسي وسيتمكرر البحث الفقهي السياسي في بحث ما أطلق
عليه « السياسة الشرعية والأحكام السلطانية » وفي كتب الماوردي « الأحكام
السلطانية » ابن تيمية « السياسة الشرعية » •

كما تناول الفكر السياسي الإسلامي : بحث أخلاقية السياسة وما
يجب أن تكون عليه أخلاق الحكام من خلفاء وسلاطين وملوك وأمراء ، وفي

هذا ألف النويري « نهاية الأرب » ، والطرطوشي « سراج الملوك » وابن طباطبا « الفخرى في الآداب السلطانية » ، وتلك أبرز مفاهيم الفكر السياسي للإسلام وهو عدم وجود خط فاصل بين السياسة والأخلاق ، وأن يكون السلوك السياسي أخلاقيا ، فالفكر السياسي الإسلامي ، يقرر إخضاع أعمال وسلوك الإنسان لنظام معين ، هذا النظام هو المقياس الخلقى للتمييز بين الأعمال السياسية القائمة على الخير والنفع ، والقائمة على الشر والضرر ، وما ذلك إلا لأن مناهج السياسة الشرعية مناهج الهيئة المصدر نبوية الشرح والتطبيق ، تابعها إجماع الأمة - فقهاء وعلماء - واجتهادها .

وجوه الاختلاف :

ويختلف الفكر السياسي الإسلامي عن الفكر الغربي الديمقراطي في وجوه كثيرة :

أولا : أنه يؤكد وحدة العقيدة أكثر مما يؤكد وحدة الإقليم .

ثانياً : التأكيد على النظرة الجامعة المتكاملة بين ما هو مادي وما هو روحي .

ثالثاً : الاستناد على القاعد الخلقية ، فهناك مقياس خلقى لكل عمل سياسي .

رابعاً : وبينما تستقر السيادة في النظام الديمقراطي على الشعب بصورة كلية ، فإن الأمة في الفكر السياسي الإسلامي مرتبطة بسيادتها بتعاليم الشريعة الإسلامية ، بعيدا عن الأهواء البشرية .

خامساً : لا يسمى المفهوم الإسلامي بأنه ديمقراطي ولا اشتراكي ولا ديكتاتوري ، لأنه مناهض لها جميعا ، فهو بعيد عن التطرف والإكراه والتسلط .

سادساً : السيادة في النظام الإسلامي ليست في يد الأمة (الديمقراطية) ولا في يد رئيس الدولة (الديكتاتورية) ولكنها في تطبيق الشريعة الإسلامية بما يبعد النظام الاسلامي عن أى منهج مخالف •

سابعاً : يقرر الفكر الاسلامي أن المجتمع ضرورة لدوام حياة الأفراد وان المجتمع لا يمكن أن يستقيم دون وجود سلطة يلقي عليها مسؤولية تحقيق التقدم والاستقرار •

ثامناً : الدولة في الفكر السياسي الإسلامي ، تقوم على القانون الإسلامي (الشريعة) وأن القوانين المنظمة للمجتمع ، لا يمكن أن تكون فعالة إلا إذا اكتسبت صفة التطبيق ، من السنة النبوية واجتهادات أهل الحل والعقد ، وأن على الدولة مراقبة سلوك الأفراد لانها المنوطة بمسؤولية تحقيق سعادة الآخرين ، وسعادة ووحدة الأمة بأجمعها ، ومسؤولية الحفاظ على التعاليم والأهداف الإسلامية •

تاسعاً : لا يعترف الإسلام بالحاكم المطلق بل بالحاكم الأمين على مبادئه « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » وعلى الحاكم أن يكون متجرداً من الهوى ملتزماً جانب الحق والعدل ، وللأمة حرية اختيار الحاكم وتقويمه إذا انحرف ، وتنحيته إذا اخطأ •

عاشراً : يقر الفكر السياسي الإسلامي حرية الفكر وحرية الاعتقاد ، فلكل إنسان — طبقاً للشريعة الإسلامية — أن يعتقد ما شاء وليس لأحد أن يحمله على ترك عقيدته •

حادى عشر : يقوم النظام الدستوري الإسلامي مستمداً من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة على أسس ثلاثة : العدالة والشورى والرحمة ، وفي علاقات القانون الدولي يعتبر القرآن الكريم أول تشريع نادى بالمساواة بين بنى الإنسان •

ثانى عشر : إن مرونة الشريعة الإسلامية وقابليتها للتطور تخضع لقيد الالتزام بالأصول الشرعية ومقاصد الشريعة وكلياتها ، وأن هناك فرقاً بين الانطلاق والهدم وبين التطور والملاءمة ، ولا شك أن هناك جزءاً من أحكام الشريعة لا يقبل التطور ، وأن ما جاء فيه نص ، فإنه لا يجوز العدول عنه أو تعديل تطبيقه مهما طال الزمان ، بل إن مراعاة المصالح ليست أمراً لا قيد عليه بل هي محكومة بأصول الشريعة .

وبالجملة فإن كان نص واجب اتباعه ، وإذا كان أمر يقاس بتقيدها بالقياس وإذا لم يكن هناك نص نظرنا إلى مصالح الشرع مع حفظ الضرورات الخمس ودفع الحرج وتحقيق المنافع .

ثالث عشر : يختلف النظام السياسى عن كلا النظامين : الرأسمالى والاشتراكى ، فالنظام الرأسمالى مقصور على تأمين الحريات الفردية والحقوق الخاصة ، والنظام الاشتراكى ينحصر هدفه فى منع أسباب الصراع والاستقلال الطبقي .

أما النظام الإسلامى فيقوم على تحقيق ما يسمى بالمقاصد الشرعية وهى تتلخص فى التضامن فى تنفيذ ما أمر الله تعالى به ، ومنع ما نهى عنه ومن بينها : تأمين الحريات الفردية ومنع الصراع والاستغلال ، ولكنها أوسع فى جوانبها ومقتضياتها فهى لا تقصر على الاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية بل أشمل فى نواحيها المعنوية والخلقية ، التى تضى على الاقتصاد والاجتماع فى الإسلام شمولاً واتساعاً لا تعرفه النظريات الاقتصادية المعاصرة (مصطفى كمال وصفى) .

رابع عشر : الفكر السياسى الإسلامى لم يجعل الوالى هو صاحب الحق فى السيادة بل اعتبر السيادة حقاً للأمة وحدها ، وتقوم الشورى الإسلامية على أهل الحل والعقد ، ولم يمنع الإسلام المرأة من أن تشارك بالرأى فى الشؤون العامة ، كما لم يحرم الأرقاء من المساهمة فى الرأى والشورى .

والشورى لها مرحلتان : مرحلة الملازمة ومرحلة المشروعية ، والملازمة هي سؤال أهل الخبرة فيما هم خبراء فيه ، أما المشروعية فهي وزن رأى أهل الخبرة قياسا على الشرع ، فالمشروعية مقيدة بما أظهره أهل الخبرة وبما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من الأحكام .

خامس عشر : إن الفكر السياسى الإسلامى يرفض مصطلحات الديمقراطية ، والاشتراكية والقومية ولا يربطها باسمه ، ويرى أنها مذاهب غربية تختلف اختلافا واضحا عن مفهوم الإسلام الجامع ، وأن الغربى حين يستخدم هذه المصطلحات فإن يستحضر فى ذهنه أحداث تاريخ الغرب والظروف التى مر بها والتحديات التى واجهته .

سادس عشر : الفرق بين خواص الدولة فى الإسلام ، وخواصها فى العصور الحديثة يكشف عن نظام فريد للإسلام خاص به لا يتطابق مع أى نظام من النظم الحديثة ، أقوامه الربط بين الدين والدولة .

سابع عشر : العقد الإسلامى السياسى هو الاتفاق السياسى بين الراعى والرعية وبين الحاكم والحكومة ، والعقد السياسى فى الإسلام يقوم على أفكار أصيلة حرة ، لا تقل شأنًا عن الأفكار السياسية الحديثة ، وأهمها حرية الاختيار ، والموافقة من جانبى الحاكم أو الخليفة أن يتولى السلطة نيابة عن الأمة ، ومن هنا سبقت نظرية العقد السياسى الإسلامى نظريات روسو ولوك .

فساد المنهج البشرى :

ويكشف الدكتور محمد عبد الله العربى عن تجربته الخاصة فى دراسة النظام السياسى الغربى ، فيقول : « لقد أدركتُ كما أدرك غيرى من علماء أوربا أنفسهم : أن هذه النظم التى عكفت على درسها وتدريسها أكثر من ثلاثين عاما كانت من أهم الأسباب فى كل ما حاق بالبشرية وما زال يحيق بها من ويلات وكوارث وشقاء شامل » .

ويمكن أن يوصف ذلك بما يسمى فساد المنهج البشرى ، فالنظم الأوروبية تقوم على اضطراب وتناقض لأنها من تفكير البشر ، ومن صنع البشر الذين لا يرون إلا ما هو مكتشف لهم في فترة محدودة من الزمن وفي قطاع محدود من الأرض ، رؤية فيها كل قصور الإنسان وانفعالاته العابرة وشهواته الجامعة ، ففكيره من أجل ذلك لا مناص من أن يكون تفكيراً جزئياً وتفكيراً وقتياً ، ومن هذه الجزئية يقع النقص والقصور ، ومن هذه الوقتية يقع الاضطراب في التمييز بين الحق وانباطل فيكون الباطل حقاً في عصر ويكون باطلاً في عصر آخر .

لقد احتجبت حضارتنا الإسلامية أمام غزو حضارة أجنبية وكان تقليدنا لما خبث منها أسرع من اقتباسنا لما صلح منها .

واجبنا نحو شباب الجامعات :

واليوم نجد شبابنا في الجامعات لا يدركسون إلا النظم السياسية والاقتصادية كما تعرفها أوربا ونجد تشريعاتنا الوضعية في شؤون الحكم والاقتصاد والاجتماع تحتذى حذو التشريعات الأوروبية ، وتنهج على منوالها فيما تحرمه وفيما تبيحه ، وفي سياستنا الاقتصادية والمالية اقتبسنا نظمهم المصرفية والربوية ، التي سيطر من خلالها اليهود على اقتصاديات العالم ، وفي سلوكنا الاجتماعي أصبحنا نقلد مجونهم وازيائهم ومبازلهم الفاجرة ، ومع كل هذا التقليد فقد عجزنا وتقاعسنا عن أفضل ابتكاراتهم الفنية وكشفهم العلمية .

إننا مطالبون بتصحيح المفاهيم ، وتحرير المناهج الدراسية في مجال الفكر السياسى الاسلامى حتى يعرف أبنائنا أن لنا مفهوماً سياسياً ، ومنهجاً إسلامياً يختلف ويتميز ويسمو على المنهج السياسى البشرى المعاصر .

الفصل الثامن

القانون الوضعى والشرعية الإسلامية

عملان هاما في مجال المناهج التعليمية والتربوية والثقافية :

أحدهما : إضافة تلك الصفحات المشرقة التي كتبها المسلمون لهذه العلوم التي تدرسها الجامعات والمدارس من قانون واقتصاد وسياسة واجتماع ونفس وأخلاق وتربية وعلوم تجريبية ، فليس هناك علم من هذه العلوم التي تدرسها ، إلا وكان للمسلمين فيها دور وجهد وعمل هو بمثابة المقدمات التي مهدت للعلماء المعاصرين وضع هذه العلوم في الصورة القائمة اليوم .

أما العمل الثانى : فهو تأصيل المناهج المطروحة في أفق التعليم والثقافة الإسلامية ، وتحريرها من الانحرافات والأخطاء وما يتصل بوجهات نظر الغرب لها ، وما وضعه كاسلوب لمواجهة تحديات مجتمعه ، أو لما تأثر به نتيجة لمفاهيمه الدينية ، أو لغلبة الفكر الوثنى والمادى عليه في هذه المناهج .

ولقد أصبح من الضروري في مطلع القرن الخامس عشر : انتقالا من عصر اليقظة والرشد الفكرى إلى عصر النهضة والأصالة ، إعادة النظر في مناهج القانون والاقتصاد والسياسة والتربية والتاريخ ، لتحريرها من التبعية ولكشف وجوه أصالة الفكر الإسلامى في هذه الميادين ، لتعود الأمة الإسلامية الى منابعها الأصلية التي تحقق لها امتلاك الإرادة والتمكن في الأرض ، والقدرة على دفع غزوات الصهيونية والشيوعية والاستعمار الغربى .

القانون الوضعى في الشرعية الإسلامية :

على المثقف المسلم أن يعرف وهو يفتح أول صفحة من دراسات القانون الوضعى ، أن هناك قانوناً إسلامياً هو الشرعية الإسلامية :

الذى كان مطبقاً في العالم الإسلامى والبلاد العربية ، منذ دخلت هذه البلاد في الإسلام وارتضت نظاماً اجتماعياً لها ، بالإضافة الى أنه دين عبادة وأخلاق .

ومنذ دخل الاستعمار العالم الإسلامى في العصر الحديث ، وسيطر بالاحتلال على البلاد الإسلامية ، كان أول مسعاه أن يبذل هذا النظام القانونى الإسلامى بالقانون الوضعى الغربى ، وقد جاءت مؤمراته هذه — في أول الأمر — تحت اسم « محاولة » إيجاد نظام قانونى لمعاملة الأجانب في علاقاتهم بأهل البلاد .

ومع أن الأجانب عادة يحاكمون بقانون البلاد التى يقيمون بها ، فإن هذه القاعدة لم تنفذ في العالم الإسلامى نظراً لوقوعه تحت سيطرة احتلال الغرب ، ونظر للعلاقات التى كانت قائمة قبل ذلك عن طريق الامتيازات الأجنبية التى حصلت عليها الدول الغربية في الدولة العثمانية التى كانت تضم البلاد العربية بالإضافة إلى البلاد التركية ، والتى كانت تحكمها أنظمة الشريعة الإسلامية .

وقد أعطت هذه الامتيازات الأجانب الحق في محاكمة قومهم أمام محاكم خاصة أطلق عليها اسم « المحاكم المختلطة » ، وكان من نفوذ هذه المحاكم الفصل في قضايا الوطنيين الذين يتعاملون مع هؤلاء الأجانب .

وفي مصر خلال حكم الخديو إسماعيل وبعد اتساع نفوذ الدول التى خضعت مصر لها بالاستبدانة فقد فرض عليها اقامة (المحاكم القنصلية) وكانت كل محكمة تطبق قانون الدولة التى تتبعها ، وقد طبقت هذه القوانين على المنازعات التى كان يرفعها المصريون على الأجانب لدى هذه المحاكم ، ثم تطور هذا النظام بإنشاء (المحاكم المختلطة) عام ١٨٧٥ ، وهى مشتركة بين قضاة أجانب وقضاة مصريين ، اختصاصها الفصل في المنازعات في المواد المدنية والتجارية فيما بين المصريين والأجانب ، وفيما بين الأجانب المختلفى الجنسية ، وظلت حتى ألغيت بعد معاهدة ١٩٣٦ .

كانت هذه المحاكم بقوانينها هي نواة الأنظمة التي جاءت من بعد للقضاء الوطني ، فقد أصدرت الحكومة عدداً من القوانين :

القانون المدني :

القانون التجاري ، التجارة البحرية ، المرافعات ، العقوبات .. تحقيق الجنايات ، وقد نقلت هذه التقنيات عن القانون الفرنسي ، مع تضمين القانون المدني القليل من الأحكام الشرعية الإسلامية •

وكانت هذه القوانين مقدمة لانتزاع البلاد الإسلامية من نظام القضاء والقانون الإسلاميين : ذلك أنه بعد الاحتلال البريطاني لمصر - أى فى عام ١٨٨٣ - أنشئت المحاكم الأهلية ، على غرار الأنظمة الأوروبية ، لتحقيق وقضاء المنازعات المدنية والتجارية بين الكافة فيما عدا الأجانب المستفيدين من نظام الامتيازات الأجنبية •

وكان هذا العمل شبيهاً بما تم بالنسبة للتعليم ، حيث وضعت المناهج فى مدارس الارساليات ثم نقلت إلى المدرسة الوطنية بعد ذلك بوجهات نظرها (المعارضة للعرب والإسلام) •

وقد رافق هذا أيضاً إنشاء المصرف الربوى - البنك الأهلى ١٨٩٨ - وذلك للسيطرة على مختلف وجوه العمل الاجتماعى كله (القضاء ، الاقتصاد ، التعليم) •

يقول الدكتور أحمد عز الدين عبد الله : وكان إصدار التقنيات المختلطة والتقنيات الأهلية حدثاً هاماً فى تطور القانون المصرى إذ وجد به : (قانون وضعى) مصرى ، بعد أن سادت مصر خلال عدة قرون شريعة دينية هى : الشريعة الإسلامية التى « ضيَّقَ على مجال تطبيقها فى ميدان المعاملات بحيث أصبح مقصوراً على مسائل الأحوال الشخصية والوقف مما تختص به المحاكم الشرعية » •

كما بقى بجانبها عدد من الشرائع الدينية للطوائف غير المسلمة تطبقها المجالس المالية •

هذا هو مدخل دراسة القانون الوضعى الذى سيطر على نظام القضاء فى البلاد العربية والإسلامية • بعد أن فصلت هذه البلاد عن الشريعة الإسلامية بالتآمر والكيد وأبعدت الشريعة الإسلامية التى كانت الدولة العثمانية قد قننتها تحت اسم مجلة الأحكام العدلية •

ومن هنا نجد أن وجودنا داخل نظام القانون الوضعى هو وجود اضطرارى وغير طبيعى ومؤقت ومن الضرورى التحول عنه بعد السنوات التى مرت — والشريعة الإسلامية محجوبة عن التطبيق — إلى الشريعة الإسلامية نفسها •

ومما يلاحظ أن ما حدث فى تركيا بعد سقوط الدولة العثمانية هو ما حدث فى إيران ، وهو ما حدث فى الشام (بأجزائه) ، ومصر والسودان والمغرب بأجزائه الأربعة التى وقعت تحت الاحتلال : ليبيا وتونس والجزائر والمغرب •



بدأ التحول نحو القانون الوضعى منذ عهد محمد على ، وبعد أن اتسعت صلات مصر بالدول العربية وخاصة فرنسا التى كانت قد هاجمت مصر عام ١٧٩٨ ، وقضت الثورة الشعبية على محاولتها فى احتلال البلاد •

ثم جاء عصر محمد على ، حيث توقفت الاتصالات السياسية والاجتماعية فى الغرب على فرنسا بالذات ، وكان والى مصر قد أوفد عددا من الطلاب الى فرنسا ١٨٢٨ لدراسة القانون ، وعادوا ١٨٣١ ، بعد أن درسوا : القانون الطبيعى والقانون الدولى والقانون العام والاقتصاد السياسى والاحصاء والادارة ، فكانوا نواة لرجال القانون الوضعى فى مصر •

وفي عام ١٨٣٦ ، أنشئت مدرسة الألسن ، التي خصص جزء من مناهجها لدراسة القانون ، وقام طلابها بترجمة مجموعات القانون الفرنسى وبعض المؤلفات القانونية ، وقد استمرت الحكومة المصرية منذ ذلك الحين فى إيفاد البعثات الى أوروبا لدراسة القانون حتى أنشئت مدرسة الحقوق والإدارة عام ١٨٤٨ ، مدمجة فى مدرسة الألسن ثم انفصلت عنها ١٨٨٢ ، وفى عام ١٨٨٦ حملت اسم مدرسة الحقوق •

وقد كان برنامجها دراسة القانون المدنى المصرى مع مقارنته بالتشريع المدنى لأهم الدول الأوربية ، والقانون الطبيعى والقانون الرومانى وقانون التجارن البحرية والمرافعات المدنية والتجارية وقانون العقوبات وقانون تحقيق الجنايات والمحاسبة التجارية ، وأضيف الى ذلك كله مادة واحدة ، هى الشريعة الاسلامية التى بدت وكأنها جسم غريب فى الكيان الغربى الخالص •

كان يتولى ادارة المدرسة ، ناظر فرنسى ويتولى التدريس أساتذة فرنسيون ، ثم رأس المدرسة ناظر إنجليزى بعد الاحتلال البريطانى ، وأدخلت اليها القوانين الانجليزية ، ثم جرى « تمصير » مدرسة الحقوق بعد الحرب العالمية الأولى حيث حل أساتذة مصريون محل الانجليز ، وفى عام ١٩٢٥ أطلق عليها اسم كلية / الحقوق ، وضمت الى الجامعة المصرية (الرسمية) وظلت وما زالت تقوم بدراسة القوانين الأجنبية الوضعية ، مع غلالة صغيرة عن الشريعة الاسلامية لا توحى للدارس بآى أهمية للشريعة الأصلية التى هى أصول الحكم فى هذه البلاد ، والتي غابت عن نفوذها ومكانها منذ سنوات طويلة •

ولقد عاشت كلية الحقوق هذه التجربة القاسية التى فرضت نظاما وضعا مجافيا لروح هذه الأمة وعقيدتها طوال هذه الفترة ، وفى هذه الكلية تخرج رجال كثيرون عملوا بصدق فى سبيل اعادة الشريعة الاسلامية الى مكانها الصحيح •

واكنت القوانين الوضعية قد صدرت : قانون العقوبات ١٩٠٤ وجدد ١٩٣٧ ، القانون المدنى ١٩٤٨ ، قانون المرافعات ١٩٤٩ وجدد ١٩٦٨ .

ويجمع الباحثون لى أن عام ١٨٧٥ ، هو بداية هيدان القانون فى مصر الحديثة ، أى أننا الآن بعد مائة عام ، نحاول أن نؤصل هذه العلاقة ونضع المقدمات الحقيقية لدراسة القانون فى مصر والتي هى ضرورة لفهم حقيقة الوضع : سياسيا وتربويا .

بدأت المحاولة بروح التغريب والاستعمار والسيطرة على العالم الاسلامى والبلاد العربية ، وتحويلها عن شريعتها القرآنية الربانية التى جاء بها الوحي من رب السموات والأرض ، والتي هى عماد المجتمع الاسلامى ودعامته ، وتجمعت هذه القوى لفرض القانون الوضعى الذى يحجب كثيرا من القيم الأساسية والضوابط والحدود التى نظمت بها الشريعة الاسلامية المجتمع وحفظته من الأخطار ، ولقد عمد القانون الوضعى الى تغريب هذا المجتمع فى مجالات كثيرة وخاصة فى مجال الأسرة ، وعلاقات الرجل والمرأة ، والتعامل الاقتصادى (الريا) والاجتماعى (الزنا) .

* * *

كان الهدف هو تحويل المسلمين والعرب عن الشريعة الاسلامية كمنهج أصيل عاش المسلمون يطبقونه منذ بزغ فجر الاسلام ، لذلك فقد كانت أولى شروط استقلال تركيا بعد هزيمة الدولة العثمانية ، هو ما أشارت اليه شروط « كرزى » بإلغاء الشريعة الاسلامية فى نظام الحكم والقضاء والاقتصاد واستبدالها بالنظام الغربى والقانون الوضعى .

فى الدولة العثمانية :

كانت الشريعة الاسلامية هى شريعة البلاد لعدة قرون ، الى أن أوقفها مصطفى كمال أتاتورك عام ١٩٢٢ ، وحلت بدلا منها القوانين الوضعية التى حلت بمصر ١٨٨٢ ، ولقد كان القانون المدنى الذى طبق

في الدولة العثمانية تحت اسم (المجلة العدلية) عام ١٨٦٩ ، عبارة عن تقنين لأحكام تلك الشريعة أخذا بمذهب الإمام أبى حنيفة • وقد جرى تطبيق أحكامها على جميع رعايا الامبراطورية العثمانية • سواء من المسلمين أو غير المسلمين •

وقد ظلت أحكام الشريعة في صورة هذا التقنين وهو المجلة العدلية مطبقة في سوريا ولبنان ، حتى بعد أن زالت عنهما السيادة العثمانية حتى انقلاب حسنى الزعيم حيث أحل محلها القانون الموضى عام ١٩٤٩ بعد أن مهد الاحتلال الفرنسى لذلك •

وكانت الثغرة قد جاءت منذ بدأت العهود والمواثيق التى وقعتها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية عام ١٥٢١ ، والتى يطلق عليها أسم (الامتيازات) •

تلك المواثيق التى حولتها الدول الأوروبية بعد ضعف الدولة العثمانية في القرن ١٨ ، ١٩ من عهود أمان واتفاقات تجارية مؤقتة ، الى امتيازات فعلية استطاع الأوروبيون بواسطتها إحكام السيطرة على البلاد والتأثير الخفى في ثقافتها وسياستها واقتصادها •

نصت هذه العهود التى يطلق عليها (الامتيازات) ، بصورة عامة ، على السماح للأوروبيين بدخول الاراضى العثمانية والاستقرار فى أى جزء من أجزائها ، دونما ضغط أو ازعاج ، والمتاجرة والتنقل واستيراد مختلف البضائع ، فلما ضعفت الدولة العثمانية استغلت أوربا تلك الروح الانسانية الكريمة فوسعت حق القضاء الممنوح لها ، حتى أصبح لكل دولة قضاء خاص ينظر حاجاتها ، كما أنشئت المحاكم المختلطة •

وفي مصر : بدأت الحملة على الشريعة الاسلامية ظاهرة منذ جاء الاحتلال البريطانى ، وكانت تصريحات اللورد كرومر فى تقريره ١٩٠٣ ، التى تراجع عنها ظاهريا فيما بعد عندما وأجهته ردود كتاب الاسلام ،

فأشار الى أنه عنى بما كتبه الفقه وليس الشريعة الاسلامية وبذلك فتح الباب واسعا أمام التغريبيين الذين كانوا لا يتجاوزون ما أشار اليه من أن الشريعة لا توافق مدينة هذا العصر ، لا تنطبق على مصالح أهله •

في نفس الوقت الذى تثبت فيه وقائع التاريخ ، أن حملة نابليون في أواخر القرن الثامن عشر الميلادى في مصر ، قد استطاعت عن طريق بعثتها العلمية المرافقة لها أن تنقل أنظمة الشريعة الاسلامية في المعاملات من بيع ورهن وشراء وهبة وجرائم ، وذلك في مدونة أطلق عليها (مجموعة قوانين نابليون) صدرت عام ١٨٠٤ ، أرجع الباحثون معظمها الى كتاب في المذهب المالكي هو (شرح متن خليل للشيخ الدردير) — رحمه الله •

من هذه النقطة بدأت عملية الاقتباس الغربى الحديث ، حتى جاء كرومر بعد مائة سنة ليهاجم الاصل الذى أخذت منه أوربا قوانينها الحديثة ، وإن كانت قد أعرضت عن العقوبات والحدود • وغيرت فيما أخذت كما شاء لها هواها •

هذا القانون الذى قال عنه نابليون : ليس مجدى وفخرى في أربعين معركة ، ولكن الاثر الذى سوف يبقى خالدا الى أبد الأبدى هو : القانون المدنى •

وعندما ضيق الخناق على مصر في أواخر عصر اسماعيل للأخذ بالقوانين الأوربية الوضعية ، جرت محاولة لتطبيق الشريعة الاسلامية غير أنها لم تكن جادة ، ولم تكن في نفس الوقت مما يرغب فيه النفوذ الاجنبى الزاحف الذى كان يطمع في أن يجد سبيلا الى السرقة والرشوة والفساد واستعمال الربا والفائدة المركبة •

ويشير السيد رشيد رضا الى (قعود) أهل الأزهر هن اجابة طلب الخديو اسماعيل ، في تأليف كتاب في الحقوق والعقوبات ، موافق لحال العصر ، سهل العبارة مرتب المسائل ، على نحو ترتيب كتب القوانين

الأوربية ويشير الى أن رفضهم هذا الطلب هو السبب في انشاء المحاكم الاهلية ، واعتماد الحكومة فيها على قوانين فرنسا ، والزام الحكام بترك شريعتهم وحرمانهم من فوائدها ، وهو السبب في توجه عزائم الكثيرين من نابتة الأمة الى درس تلك القوانين في مصر وأوربا (المنار مجلد ٧ — ص ٢١٢) • وقد أشير في هذا الحديث الى قول اسماعيل بأن أوربا تضطره الى الحكم بشريعة نابليون ، وأن هذا من أهم آثار سيطرة النفوذ الاجنبى نتيجة الاستدانة •

وهكذا استبدل القانون الفرنسى بالشريعة الاسلامية عام ١٨٨٥ ، وقد اشترك رفاة رافع وقدرى باشا ، وصالح مجدى ، في تعريب قوانين العقوبات والمرافعات ، وتحقيق الجنايات وطبعت جميعها بالمطابع الأميرية عام ١٢٨٣ هـ •

وقد حفظ التاريخ لمحمد قدرى باشا أنه اتجه الى تقنين أحكام الشريعة الاسلامية ، وأنه اشغل بالتوفيق بين أحكام القانون المختلط الجديد عن القانون الفرنسى وبين أحكام الشريعة الاسلامية ، وألف كتابا في تطبيق ما وجد في القانون المدنى الفرنسى موافقا لمذهب أبى حنيفة •

وقد وصف محمد قدرى باشا ، بأنه أول من قنن الاحكام الشرعية وبوبها وفهرسها في مواد مرموقة في كتبه الثلاث : الاحوال الشخصية والمعاملات والاعواق •

ومن الذين عملوا في هذا الميدان (على ابو الفتوح) ، بكتابه « الشريعة الاسلامية والقوانين الوضعية » ، وفيه دعوة الى استخراج « الشريعة الاسلامية ، ووضعها في أسلوب عصرى صالح للتطبيق •

ولقد ووجه اتجاه اسماعيل الى التقنين الغربى بمعارضة شديدة ، وكان مفتى الديار المصرية في طليعة المعارضين فأخرجه الخديو من منصبه •
ويعد (القانون الجنائى) ، أخطر القوانين الوضعية وأشدّها مخالفة

للشريعة الاسلامية (وضع عام ١٨٨٣ ، وأعيدت صياغته ١٩٠٤) ، ثم أعيدت مرة أخرى ١٩٢٧ ، وفي كل مرة تعاد صياغته دون أن يتقدم نحو الشيعة الاسلامية الا خطوات ضيقة ، ذلك لأن المشرع الوضعى قد اعتبر الزنا (الوطء في غير حلال) عملا مباحا لا مسئولية فيه ولا عقوبة ولا تعويض ولا يعتبر جريمة •

ولقد بدت القوانين الوضعية منذ اليوم الأول لتطبيقها عاجزة عن الاستجابة للنفس والمجتمع ، وللطابع المصرى — الذى هو عربى اسلامى أصلا — والذى يستمد مفاهيمه من الشريعة الاسلامية ، ومن هنا جرى الكير أكثر من مرة فى تنقيح القوانين (الاهلية) وفى كل مرة ينادى الدس بالرجوع الى الشريعة الاسلامية ، وفى عام ١٩٣٦ ، أدخل النص على أن تكون الشريعة الاسلامية مصدرا تشريعيا من الدرجة الثالثة ، مسبوقه بالنص القانونى ، ثم بالعرف وهكذا أصبحت الشريعة الاسلامية ضمن المصادر الاحتياطية التى لا يرجع اليها القاضى الا فى حالة عدم وجود نص فى القانون ولا قاعدة فى العرف •

وفى عام ١٩٢٣ ، جرت محاولة خطيرة ابان وضع الدستور المصرى الأول : تلك الدعوة التى أطلق عليها (مدينة القوانين) ، وهى دعوى مسمومة طالب أصحابها — وهم من أتباع المحافظ الماسونية — محمود عزمى وعزيز ميرهم — بتوحيد التشريع والقضاء ، وجعلها مدنيين فى الاحوال الشخصية كما فى المعاملات وقد ووجهت هذه الفكرة بمعارضة شديدة فقال الشيخ رشيد رضا (مجلد ٢٣ — المنار) : ان مدينة القوانين هى سعى المتفرنجين الى نبذ بقية الشريعة الاسلامية من مواد الدستور الاساسية : ان دين الدولة المصرية الرسمى هو دين الاسلام ، وقد ساءت هذه المواد بعض الملاحدة المتفرنجين • وقام منهم من يقترح أن تؤخذ قوانينها فتجعل كلها مدينة لوضع قانون مدنى للاحوال الشخصية من زواج وطلاق ، والهدف هو ترك الشريعة الاسلامية ونبذها وراء الظهور حتى فى الاحكام الشخصية التى تتعلق بما يدين المسلمون ربهم به • هذا الفريق من

المتفرنجين ، ربيب بعض ساسة الفرنجة الذين سعوا لتحويل حكومة مصر وغيرها عن أحكام الشريعة الاسلامية في المعاملات المالية والعقوبات وغيرها واستبدال قوانينهم بها ، فكان لنجاحهم تاثير عظيم على إضعاف مقوماتنا باعراضنا عن أصول التشريع الذى قامت عليه مدنيتنا العربية الزاهرة •
واشار الى ان هناك خطة استعمارية ترمى الى حل (الرابطة الاسلامية) في شعوب المسلمين عن طريقين : أحدهما ، تعليم المدارس الخاصة بهم كمدارس دعاة المتبرين في بلاد الاسلام ومدارس الحكومه التى يسيطرون عليها •

والطريق الثانى : هو اقناع المتفرنجين من الادباء والكتاب بوجوب الفصل بين الدين والحكومة ، وبأن الشرع المبني على أصول الدين لا يصلح لتلقى البشر الدنيوى ، وبأن الشرع الاسلامى قد وضع لأمة بدوية فلا ينطبق على مصالح الناس في هذا العصر وبوجوب توحيد قوانين الامة وجعلها موافقة لجميع أهل الاديان •

غير أن هذه الصيحة المسمومة لم تلبث أن سقطت بعد أن تكشفت مصادرها •



عندما أعلن استقلال البلاد العربية ، ونظمت حياتها السياسية وفق النظام الديمقراطي الغربى ، وانشأت الدساتير نص على أن دين الدولة الرسمى هو الاسلام ، وقد وضع هذا النص في الدستور المصرى عام ١٩٢٣ ، وهو نص لم يترتب عليه أى التزام من الدولة بتطبيق الشريعة الاسلامية ، (أو على حد تعبير بعض الباحثين ، إن هو الا بمثابة تحية كريمة للعقيدة الدينية التى تدين بها الاغلبية ، أو كفارة تقدمها الدولة لعدم التزامها أحكام الشريعة في قوانينها) •

أما تركيا بعد الحرب العالمية الاولى ، بعد أن سقطت الدولة العثمانية ، فقد نصت في ديمقراطيتها على أنها دولة علمانية ، كما فعلت لبنان •

غير أنه جد من الامور ما جعل إعادة النظر في تطبيق الشريعة أمراً لا محيد عنه ، فقد حملت حركة اليقظة الإسلامية لواء الدعوة الى تطبيق الشريعة في القوانين المعمول بها في البلاد العربية ، وقد حقق هذا الاتجاه الذي جند عشرات من رجال القانون الذين آمنوا بأن الشريعة هي السبيل الى حيح للحياة القانونية والقضائية . حقق في سوريا شيئاً أضيف الى دستور الجمهورية السورية عام ١٩٥٠ وهو (المادة ٣ فقرة ٢) التي نصت على أن الفقه الاسلامي هو المصدر الاساسي للتشريع (٢) . وقد تابعت دولة الكويت هذا الاتجاه فأعلنت في دستورها عام ١٩٦٢ ، أن دين الدولة الرسمي الاسلام والشريعة مصدر رئيسي للتشريع ، وقد أخذت من بذلك عام ١٩٧١ ، بعد أن استجاست رغبة الشعب في تطبيق الشريعة ، وكان النص الذي تمت عليه الموافقة هو : الشريعة الاسلامية المصدر الاساسي للقانون ، وجرى تعديل طفيف باستبدال المصدر الاساسي بكلمة مصدر أساسي ، ثم عادت مصر الى الأصل .

وهكذا أخذت الشريعة الاسلامية تستعيد مكانها الاصيل حيثما ، وظهر تحرك واسع في انحاء البلاد العربية نحو العودة الى تطبيق الشريعة الاسلامية وفقها ، وشعور بالتفريط السابق ، وبوجوب الرجوع الى الخط الاسلامي الذي يحمي المسلمون من تألب الدول عليهم .

ويقول الدكتور مصطفى الزرقا : وقد زاد هذا الشعور بعد كارثة ١٩٦٧ التي انهزمت فيها الدول العربية أمام اسرائيل . وقد تألفت في مصر لجان غير رسمية في مجمع البحوث الاسلامية في الازهر من فقهاء المذاهب ورجال القانون لتقنين الفقه الاسلامي من كل مذهب على حدة ، تمهيدا لصياغة قانون مستمد من مجموع هذه المذاهب ، وقد اتجه التغيير في ليبيا الى الاستمداد من الشريعة الاسلامية وفقها في جباية الزكاة ، وفي اعلان بعض الحدود من العقوبات الاسلامية .

وفي المملكة الاردنية جرى وضع مشروع قانون مدني مستمد من الفقه

الاسلامى بمعناه العام ، كما جرى بحث توحيد التشريع فى البلاد العربية على اساس الشريعة الاسلامية ، وقد اشارت أبحاث عديدة فى هذا الصدد الى أن الجماهير المسلمة كانت دائما قائدة لمسيرة الاتجاه نحو الشريعة ، والعمل بها ، فضلا عما يوجد فى مبادئ الشريعة من عمل وفى ونظام أدق . وقد أدخلت الى القانون المدنى من أحكام الشريعة عدة مواد أهمها :

- ١ — أحكام أهلية القاصر والمجنون والسفيه وذى الفعلة .
- ٢ — أحكام نظرية التعسف فى استعمال الحق .
- ٣ — مبدأ الحوادث الطارئة .
- ٤ — حوالة الدين والابراء منه .
- ٥ — أحكام مجلس العقد وخيار الرؤية فى البيع .
- ٦ — مبدأ الفبن فى بيع القاصر وبيع المريض : مرض الموت .
- ٧ — ايجار الاراضى الزراعية وأيجار الوقف والحكر .
- ٨ — غرس الاشجار فى الارض المؤجرة .
- ٩ — فسخ الاجارة بالعدر والشفعة .
- ١٠ — أحكام العلو والسفل والحائط المشترك .

ومع ذلك فان القانون الوضعى فيه تخلف كبير عن الشريعة الاسلامية فى احكامها ، وفيه نقص عنها ومخالفة لها .

* * *

ان من أبرز عيوب القانون الوضعى السائد الآن فى العالم الاسلامى كله ، أنه لا يستوعب فكرة تحرير الانسان ورفعته عن الماديات والاهواء على النحو الذى قصدت اليه الشريعة الاسلامية ، من أجل ذلك تجد أن هناك بنودا كثيرة تخالف الشريعة الاسلامية وتترك فجوات واسعة دون احكام ، وخاصة موقف القانون الوضعى من السرقة والقذف والزنا

والسكر وبيع الخمر وترويجها والحراقة والمقتل والربا وأكله والتعامل معه والردة

والقوانين الوضعية حين تقدم الأحكام في هذه المواد فإنها تجيء عاجزة عن تحقيق أمن المجتمع وسلامة الفرد ، بذلك تتعارض مع غاية الشريعة الإسلامية ، وقد أجاز القانون المدني الحالى أمرين يخالفان أحكام الشريعة الإسلامية مخالفة صارخة :

أولهما : أجاز تقاضى فوائد ربوية في الديون المدنية والتجارة بحد أقصى هو سبعة في المائة . والربا في مفهوم الاسلام : هو أبشع أنواع استغلال الانسان لاخته الانسان ، وقد حرم الله الربا بنصوص قطعية كما حرم كل أنواع المقامرة (الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) البقرة : ٢٧٥ .

ثانيهما : أنه أجاز بعض أنواع المقامرة

أما في القانون الجنائى فان هناك فجوات واسعة تتيح الفرصة لأكبر افساد اجتماعى للأسرة والعرض ، فان القوانين الحاضرة تقضى بعدم توقيع العقوبة على الزانية اذا كانت سننها ثمانية عشرة سنة فصاعدا اذا حدثت الجريمة برضاها وكانت غير متزوجة ، أو كانت متزوجة ولم يرفع زوجها الدعوى عليها أو قام بالاجراءات ثم أوقفها .

وتقضى هذه القوانين كذلك ، أنه لا توقع عقوبة على الزانى اذا زنى بأمرأة غير متزوجة برضاها ، وكانت سننها ١٨ سنة فصاعدا ، أو زنى بأمرأة متزوجة ولم يرفع زوجها الدعوى .

كذلك لا توقع عقوبة على الزانى المتزوج في الحالات السابق ذكرها اذا ارتكب جريمته في غير منزل الزوجية ، أو ارتكبها في منزل الزوجية ولم ترفع زوجته الدعوى عليه .

وتتقضى هذه القوانين كذلك أنه لا توقع عقوبة على هاتك العرض اذا كان من هتك عرضه ذكرا أو أنثى قد بلغ ثمانى عشرة سنة ووقعت الجريمة برضاه ، ويقصد بهتك العرض ما يقع بين الذكر والذكر من أعمال الشذوذ الجنسى وما دون الواقعة من الاعمال الجنسية التى تقع بين الذكر والانثى •

هذه الحالات التى يعفى فيها الزانى والزانية وهاتك العرض من العقوبة بحسب القانون الوضعى تشتمل فى الواقع على معظم الحالات التى تحدث فيها هذه الجرائم • فقانون العقوبات المصرى قد أعفى اذن من العقوبة جرائم الزنا وهتك العرض والشذوذ الجنسى •

وهذه المواد مقتبسة من قانون العقوبات الفرنسى ، وعن هذا القانون استخدمت معظم القوانين الأوروبية و الأمريكية •

وقد وضعت هذه المواد فى القوانين التى صدرت فى مصر والبلاد العربية إبان الاحتلال ، وقصد بها فتح الباب واسعا أمام افساد المجتمعات الانسانية استهدف بها الاستعمار القضاء على مقومات المجتمع ، وتغيير العرف الاسلامى القائم على القيم الاخلاقية المستمدة من الدين ، وقد نقلت أساسا من القوانين الغربية التى وضعت لمجتمع غير مجتمعنا ، ولعرف غير عرفنا ، وفى ظل ظروف تختلف تماما ، فالمجتمع الاسلامى يقدس العرض ، ويكرم العلاقة بين الرجل والمرأة ويضعها فى أعلى مكان ، ومن المسلم به أن القانون فى أمة من الامم ، انما يستمد مواده من قيم المجتمع وأخلاقياته وعاداته وأعرافه ، ولما كانت هذه القيم والاعراف فى المجتمع العربى والاسلامى غاية فى الرعاية للفضيلة فان هذه المواد تشكل تعارضا شديدا مع هذه القيم •

والمعروف أن الاستعمار عندما أقر هذه القوانين • كان يستهدف أن تكون هذه البلاد مشاعا لكل الامم ، وكانت الانظمة والقوانين توضع بهدف استغلال هذه البلاد لفائدة الاغيار ، ومن هنا كانت الحماية

القانونية التي تتمتع بها الحانات وبيوت الدعارة ، مما لا نظير له في البلاد العريقة في الإباحية والفوضى ، كل ذلك وليد سياسة الاستعمار التي ترمى الى هدم القيم الاسلامية بحصانة القانون .

ولا ريب أن عقوبات الشريعة الاسلامية في هذا المجال وغيره عقوبات زاجرة رادعة ، بينما عقوبات القوانين الوضعية ، هي أقرب الى الإغراء بالمعاصي ، والتساهل في غشيان الفواحش والآثام منها الى الزجر والردع .

ولا ريب أن مقصد الشريعة الاسلامية من إقامة الحدود واضح . وهو حماية الاعراض والانساب وصيانة العقول والاموال ، وقد ثبت عجز القوانين الضعية عن اصلاح المجتمعات .

ولا ريب أن شوع الزنا والفاحشة وشرب الخمر وتفشى سرقة الاموال ، هي نتيجة ضعف العقوبات في القوانين الوضعية ، ونتيجة أنها ليست زاجرة ولا رادعة .

وليس صحيحا ما يقال من أن تنفيذ الحدود يخلق في المجتمعات الانسانية مجتمعات تسودها القسوة والإذلال ، وشيوع العاهات ، قد أحاط الشارع هذه الحدود بشرط وتحوطات جعل تنفيذها يتم في حدود ضيقة . ولقد كانت المجتمعات الاسلامية ابان تنفيذ الحدود ، تمر بها الاعوام والاعوام دون أن يرجم أحد أو يجلد أو تقطع يده لان العقوبة الرادعة تحول دون وقوع الجريمة .

لقد تنبه علماء القانون الغربيون الى عظمة الشريعة الاسلامية وفوائدها بحاجات المجتمعات منذ وقت بعيد ، وتوالت كتاباتهم وتعاليت صيحاتهم في نفس الوقت الذي كانت فيه البلاد الاسلامية مقيدة بسلاسل القوانين الوضعية ، لا تستطيع منها فككا ، ويكفى أن اعترف بالشريعة الاسلامية

كمصدر عالمي للتشريع والقانون عدد من المؤتمرات التي عقدت منذ عام ١٩٣٢ الى اليوم :

- * القانون المقارن الدولي في لاهاي عام ١٩٣٢ .
 - * مؤتمر لاهاي المنعقد في عام ١٩٣٧ .
 - * مؤتمر القانون المقارن في لاهاي سنة ١٩٣٨ .
 - * المؤتمر الدولي عام ١٩٤٥ في واشنطن .
 - * شعبة الحقوق بالمجتمع الدولي للقانون المقارن ١٩٥١ بباريس .
- وقد صدرت عن هذه المؤتمرات قرارات متعددة :

- ١ - اعتبار التشريع الاسلامي مصدرا رابعا لمقارنة الشرائع .
- ٢ - الشريعة الاسلامية شريعة مستقلة ، وصالحة لجأرة التطور الحديث .
- ٣ - الشريعة الاسلامية قائمة بذاتها لا تمت الى القانون الروماني او الى شريعة اخرى .
- ٤ - صلاحية الفقه الاسلامي لجميع الازمنة والامكنة .
- ٥ - تمثيل الشريعة الاسلامية في القضاء الدولي ومحكمة العدل الدولية .

ومنذ وقت بعيد أشار علماء القانون الى سماحة الشريعة الاسلامية واتساعها وأثارها البعيدة على السلام والعدل العالمين ، وهذه عبارة الاستاذ « لامير » الفقيه الفرنسي المعروف ، في المؤتمر الدولي للقانون المقارن في لاهاي عام ١٩٣٢ ، حين أشار الى ظاهرة التقدير الكبير للشريعة الاسلامية الذي بدأ يسود بين فقهاء أوروبا وأمريكا في العصر الحاضر ثم قال : ولكني لا أرجع الى الشريعة نفسها لاثبت صحة ما أقول ، ففي هذه الشريعة عناصر لو تولتها يد الصياغة فأحسنست صياغتها ، لصنعت

منها نظريات ومبادئ لا تقل في الرقى والشمول وفي مسايرة التطور
عن أخطر النظريات الفقهية التي تتلقاها عن الفقه الغربى اليوم ، وفي
مقدمة هذا :

- ١ — نظرية التعسف في استعمال الحق .
- ٢ — نظرية الظروف الطارئة .
- ٣ — نظرية تحمل التبعة .
- ٤ — مسؤولية عدم التمييز .

فان لكل نظرية من هذه النظريات أساسا من الشريعة الاسلامية
لا تحتاج الا الى الصياغة والبناء .

* * *

واليوم والامة الاسلامية العربية تتجه نحو العودة الى تطبيق الشريعة
الاسلامية ، نجد أن هناك محاولات تبذل للحيلولة دون سلامة هذه
العودة ، بأراء تتحدث عن أسلوب يرمى الى تعديل القانون الوضعى
القائم ، والرأى الاصواب هو (إنشاء قانون اسلامى أصيل) ، فى
متابعة ومصادره ومواده ، ذلك لان القانون الوضعى لا يصلح أصلا
لمشروع تشريع اسلامى ، لان مصطلحات القانون الوضعى تختلف فى
معانيها عن مصطلحات الشريعة الاسلامية ، ذلك أن القانون الاجنبى
صادر عن عرف خاص وبيئة خاصة وفلسفة خاصة يختلفان كثيرا أو
قليلًا عن الروح الاسلامية وما ثم فان إقرار ما يبدو منه فى ظاهره متفقا
مع الشريعة الاسلامية يجر حكما خاضعا للروح الغربية التى صدر عنها
القانون الوضعى . كذلك فان القانون الوضعى يعبر عن قيم اخلاقية
معينة سادت فى المجتمع الغربى فى عصر من العصور .

أما القول بتنقيح القوانين الموجودة بما فيها من أحكام متعارضة
مع أحكام الشريعة فهو رأى تعرييى ، فالقوانين الوضعية لا تجدى معها

تنقية لانعدام الصلة بينها وبين الشريعة الاسلامية حتى في الأحكام
التي تبدو أنها تتفق مع أحكام الشريعة ، ومحاولة تنقيتها مما يكون
فيها من أحكام متعارضة مع أحكام الشريعة خطوة خطيرة • وهى في
الحقيقية محاولة إسباغ الشريعة على باقى الاحكام والاغراق فى الوهم
بالتماثل والتشابه بينها وبين الشريعة مع اختلاف نسيج هذه عن نسيج
تلك اختلافًا واضحًا مبينًا ، كذلك فان القوانين الوضعية
المسماة باسم الشريعة قد يرسخ فى الازهان بعد مدة أنها أحكام شرعية
بالرغم من البعد بينهما بعد المشرقين •

لذلك فان الضرورة تقتضى ، بأن يكون الفقه الاسلامى فى منطقـه
وصياغته وأسلوبه فقها اسلاميا خالصا ، لا مجرد محاكاة للقوانين الغربية ،
ومن ثم فان القوانين الوضعية لا تصلح أساسا لتقنين شرعى ، فهى
لا تجدى معها تنقية ، ولا يصلحها ترقيع ، ولا بد من وجود قوانين
اسلامية لحما ودما نابعة من واقع الشريعة الغراء ، ولذلك فنحن نرحب
بمجموعة القوانين الاسلامية التى أعدها المستشار على على منصور
لدولة الامارات العربية المتحدة ، والتى نأمل أن ترى النور فى القريب
ان شاء الله •

الفصل التاسع

من علمانية التعليم الى اسلامية التعليم

ان احتواء التعليم فى اطار التغريب قد حقق مجموعة من الاهداف فى وقت واحد :

أولا : القضاء على « الذاتية الاسلامية » المتسمة بأخلاقيها وإيمانها بالله وصدق الوجهة ، فى التعرف على الحقيقة الاساسية ، وهى : ان الله تبارك وتعالى هو الخالق ومن وراء كل معطيات الحضارة ، وليست القوانين الجبرية التى يدعى أنها تحكم مسار الكن دون تغيير .

ثانيا : القضاء على « الفصاحة العربية » التى أوجدتها منابع البلاغة العربية ممثلة فى القرآن الكريم والسنة النبوية وذلك بعد أن استطاعت وسائل التعليم الحديث أن تقطع الشباب المسلم عن تراثه جميعه .

ثالثا : القضاء على « الاحساس بعظمة العطاء الذى قدمته الامة الاسلامية » للبشرية حين قدمت اليها منهج الحضارة الذى حرر الانسان من عبودية الانسان وحرر العقل البشرى من العبودية للاثنيات والخرافات والاساطير وأعظمهم هذه المعطيات انشاء المنهج التجريبي الذى قامت عليه الحضارة الغربية المعاصرة .

رابعا : القضاء على تمثل « الدور التاريخى الذى قام به الاسلام » حين نشر عقيدة التوحيد فى العالمين ، فأخرج هذا العالم من ظلمات الوثنية والاباحية والرهبانية الى مفهوم الحرية والكرامة والعمل والسمعى فى الارض .

وما كان لابطال الاسلام من دور فى تقديم الاسلام للبشرية ، وحمله الى أقصى الارض بروح الايمان واليقين والصدق والجهاد فى سبيل اعلاء كلمة الله .

لقد استطاع احتواء المناهج التعليمية الوافدة القائمة على النظرية المادية ، المنكرة للدين الاخلاق وبناء الفرد على القيم والمثل ، هذا الاحتواء للمدرسة الاسلامية بفرض مناهج الغرب ، كان له أبعد الاثر في تدمير الشخصية الاسلامية الناشئة وحرمانها من التعرف على حقيقتها ودورها وهدفها •

وفي هذا يقول مستر نيروز أحد رؤساء الجامعة الامريكية في بيروت : « لقد برهن التعليم على أنه أثمن الرسائل التي استطاع الميثرون أن يلجأوا اليها ، في سعيهم لتتصير سوريا ولبنان ، أن الكتب المدرسية الغربية تجعل الاعتقاد بكتاب شرقي مقدس أمرا صعبا جدا » •

وما يتحدث عنه المبشر الامريكي ليس قاصرا على سوريا ولبنان ولكنه منبث في أنحاء العالم الاسلامي من أرخبيل الملايو والجزيرة الهندية الى تركيا الى مصر الى شمال افريقيا الى الجزائر والمغرب •

فان خطة السيطرة على المناهج التعليمية التي قام بها النفوذ الاجنبي (وورثها لمن جاء به من حكومات وقيادات نشأت في اطار الايمان بالغرب والاعجاب به والتسليم له) قد شملت مختلف الميادين من السلوك الفردي الآداب الاجتماعية الى الآداب والفنون •

وقد تحولت الاساليب من التبشير المباشر الى التبشير الخفي الذي يتصل بالثقافة والصحافة حيث يقوم الكتاب التخريبيون بأداء دور خطير في تحويل الاهداف الماسونية الى حقائق مطبقة •

وقد أسهمت المنظمات الدولية في هذا المجال بما في ذلك الامم المتحدة ، واليونسكو ، والتربية الاساسية على وجه الخصوص ، التي تعتبر امتدادا لمخططات ترمي الى فصل الدين عن الدولة ، وتخريج شباب متميع منهزم خاضع للاهواء والشهوات •

وقد استعانت على ذلك بالمرح والسينما والاذاعة والتلفاز ، بما

يحيط بالعقل والقلب من كل أقطاره ، ويسيطر على ويفرض عليه سمومه ، وبذلك استطاع النفوذ الاجنبى المستخفى اليوم وراء هذه المنظمات والمؤسسات تطويع برامجنا التعليمية لكثير من أهدافه وأغراضه .

ولم تستطع الدول المحتلة — بعد لاستقلال — أن تحرر ارادتها أو تحقق وجهتها في التماس أسلوب التربية الاسلامية ذلك لان النفوذ الاجنبى قد أسلم قيادة الثقافة والصحافة والتعليم في أغلب بلاد الاسلام الى مجموعة من أهل الولاء للغرب — بشقيه : الشيوعى والرأسمالى — فهم مستغربون أكثر من الغربيين أنفسهم وهم يقدمون سمومهم تحت اسم التجديد والعصرية والتقدمية .

مواجهة التخطيط :

ومن أجل هذا الخطر فقد أوصت مؤتمرات عديدة ، عقدت في السنوات الأخيرة ، لدراسة هذه التحديات بانشاء هيئة علمية على مستوى العالم الاسلامى، تعمل على التحرر من الاستعمار الفكرى والثقافى وصياغة المناهج التعليمية وفقا للعقيدة الاسلامية .

ولا ريب أن هناك ثلاث تحديات خطيرة تواجه الامة الاسلامية في هذا المجال :

أولا : منهج علمانى قومى في البلاد .

ثانيا : الارساليات المفتوحة في البلاد العربية تلتقط أبناء المسلمين .

ثالثا : شبابنا المسافر في بعثات الى الغرب .

أما المنهج العلمانى القومى : فانه ميراث قديم تشكل ابان الاحتلال الاجنبى للبلاد الاسلامية ثم لم تتمكن هذه البلاد بعد استقلالها من التحرر منه ، وقد قام أولا :

على الاقتباس من مناهج الارساليات ومدارس التبشير ، التى كانت

قد شكلت منوها على أساس اخراج شباب المسلمين من دينهم ، ثم جاء المبشرون الفرنسيون والانجليز والهولنديون ، فسيطروا على مناهج التعليم الاسلامية التي كانت مبنوثة في المدارس القومية فأزالوا منها كل ما يتصل بالدين والاخلاق والتاريخ وعظمة الاسلام والامة الاسلامية واللغة العربية .

وفي بعض البلاد أعدمت هذه الكتب السابقة لعهود الاستعمار حتى لا يبقى لها أى أثر في دور الكتب القديمة كتراث يمكن الرجوع اليه أو التعرف على وجهة هذه المناهج أو يقيم مقارنة بينها وبين ما صنعه الاستعمار .

وقد اعتمدت المدرسة الوطنية بعد الاحتلال على مناهج الارساليات مع تعديلات يسيرة ثم جاءت موجة (مذهب ديوى) وتشكلت معامد التربية التي فرضت على المعلمين أن يخرجوا منه ، فانداحت تلك الفكرة المسمومة الخبيثة في مجالات التعليم في العالم الاسلامى وهى حجب الاسلام أو مفهوم الدين والاخلاق عن هذه المناهج .

ويبقى الخطر الثالث قائما : وهو المتمثل في أبنائنا الذين تتلقفهم مؤسسات التبشير والاستشراق في عواصم العالم الغربى لتشكلمهم كما تشاء ، حتى يكونوا على ولاء لاهدافها وهم يتابعون بعد عودتهم بالمناصب والمؤتمرات والجوائز والنياشين ويردون عنهم أى خطر يهددهم حتى يحققوا أهداف التغريب في مجال التعليم على النحو المنشود .

حقيقة المنهاج التغريبى :

أما المنهج الغربى الذى أعتمدته المناهج المدرسية ، فهو شئ مختلف تماما عن منهج الاسلام في التربية وفي الحياة ، فالتعليم الغربى يحمل روحا مستقلة ، ويعبر عن أفكار أهل الغرب ومجموع أقدارهم وقيمهم ، فاذا طبق في بلاد مسلمة أو مجتمع اسلامى فانه يحدث صراعا

عقليا يتدرج ثم يتدرج الى تدمير العقيدة والى خلق الردة الفكرية والدينية .

يقول الاستاذ محمد أسد (المعروف باسم ليوبولد فابس) : ان الاسلام والمدينة الغربية يقومان على فكرتين فى الحياة متناقضتين تماما ، لا يمكن أن يتفقا ، فاذا كان ذلك كذلك ، فكيف نستطيع أن نتوقع أن تظل تنشئة أحداث المسلمين على أسس غربية ، تلك التنشئة القائمة فى مجموعها على التجارب الثقافية الاربية ، على مقتضياتها ، خالصة من شائب النفوذ المعادى للاسلام .

ان التنشئة الغربية لاحداث المسلمين ستقضى حتما الى زعزعة ارادتهم فى أن يعتقدوا ، أو أن ينظروا الى أنفسهم على أنهم ممثلوا الحضارة الربانية الخاصة التى جاء بها الاسلام ، وليس ثمة من ريب فى أن العقيدة الدينية اخذة فى الاضمحلال بسرعة بين المتتورين الذين نشأوا على أسس غربية .

وقد أشار أحد الباحثين الى أنه بمراجعة المناهج التى تدرس للمسلم فى المدارس الاعدادية والثانوية نجد الآتى :

أوريا (٣٧٠ صفحة) .

الحضارة الاسلامية ٢٥٥ صفحة .

الثورة الفرنسية ٣٥ صفحة .

الدعوة الاسلامية ٢٣ صفحة .

نابليون ١٦ صفحة .

عمر بن عبد العزيز صفحة واحدة .

فاذا ذهبت تبحث عن مضمون الحضارة الاسلامية ، وجدتتها كلها تنصب على القول بأن المسلمين أخذوا فكر أرسطو وأفلاطون ، وأنه

مصدر فكرهم الاسلامى ، وأن المعتزلة والفلاسفة هم الذين أنشأوا الحضارة الاسلامية ، وان هذه الحضارة لم تلبث أن انهزمت عندما سقط المعتزلة وجاء أمثال الغزالى وابن تيمية •

هذا ما يقال عن فكرنا وحضارتنا ويتعلمه أبنائنا على صورة جماعة من المغامرين المندفعين الى الصراع والقتل والتآمر •

« وقد أدرك أعداء الاسلام أن النظام التعليمى والتربوى له أثره الفعال فى توجيه حاضر الشعوب الاسلامية ومستقبلها نحو المصير • نجد ذلك فى مؤتمرات اليهود فى بازل عام ١٨٩٧ ، حين أكد حكماء صهيون أن أفضل طريقة لتحقيق سيطرتهم على الشعوب الاخرى هو التأثير على النظام التعليمى والتربوى بتدريس الناشئة التاريخ القديم ، المشتمل على المثل السيئة أكثر من اشتماله على المثل الحسنة ، وعلى ضرورة طمس العصور المضية فى ذاكرة النشء الجديد التى قد تكون معارضة لمخططات اليهود وأمانيتهم فى تحقيق السيطرة على العالم •

وليس اليهود فقط هم الطامعون فى تزييف أهداف التعليم الاسلامى ، وانما يشترك فى ذلك النفوذ الغربى القائم على مفهوم التبشير والتنصير والاستتراق الذى يطمع دائما فى تصوير الاسلام على أنه دين عبادى وليس دينا ودولة •

ويجرى مغالطته على محاولة تزييف منهج الاسلام الاجتماعى والسياسى وذلك بإقامة القانون الوضعى بديلا للشريعة الاسلامية وإقامة منهج الربا فى الاقتصاد الاسلامى ، ومنهج التعليم العلمانى بديلا عن التعليم الاسلامى •

وقد جاءت موجة الغزو الماركسى لتحمل معها مفاهيم مسمومة للثقافة والتعليم ترمى الى تفسير يقوم على المقاييس المادية ومحاولة القول بأن الفتح الاسلامى كان بهدف البحث عن الطعام •

أهداف التزييف :

وهكذا تتكاثر انقوى الفاضبة على تزييف مناهج التعليم والتربية والثقافة في العالم الاسلامى ، وذلك كله انما يهدف الى تخريج شباب غير مؤمن بوطنه أو دينه أو تاريخ وقيم وأمجاد أمته .

وقد احتقر هذا الوجود والتاريخ كله ، بينما عرف عن الغرب وأبطاله ومواقعه وخاصة الثورة الفرنسية أكثر مما يعرف عن الدعوة الاسلامية وعن نابليون أكثر مما يعرف عن خالد ابن الوليد ..

وما تزال كتب التاريخ المقررة في مدارسنا تحوى كثيرا من هذه السموم حيث تركز على المواقع التى تتعرض للخلافات والخصومات والحركات المضادة للإسلام ، مع أن هذه النصفحات كلها لا تصل الى جزء من معطيات الاسلام وايجابياته وحضارته وثمراته الباذخة ، ولكنها محاولة لتصوير التاريخ الاسلامى بصورة سوداء قاتمة في نفوس الشباب المسلم ، وكيف لا ؟ اذا كان الذين يدرسون له هذه المادة هاركسيون أو ذوو ولاء فرنسى أو بريطانى أو يهودى أو كانوا هم في ذاتهم غير مسلمين .

مغالطات ومفارقات :

وفي دراسة الجغرافيا تجد أن ما كتب عن الولايات المتحدة متضاعف عن مجموع بلاد الوطن الاسلامى .

ويمتد هذا المخطط الهدام الى مجالات الكيمياء والفيزياء والرياضيات فلا ذكر في هذه الدراسات للدور الهام والخطير الذى قام به المسلمون منشئو المنهج العلمى التجريبي ، وانما يبدأ البحث من المرحلة التى تولاها الغربيون وتبدو المسألة غاية في الصعوبة والغرابة حين يكون معروفا للعالم كله واعتراف المنصفين من كتاب الغرب في العصر الحديث (دراير — هونكة — جويستمان لويون ٠٠٠ الخ) ان علم الفيزياء انما أوجده المسلمون ، فالحسن بن الهيثم هو واضع علم البصريات ، وكثير من مكتشفاته لم يضاف اليها العلم الحديث أى شئ .

وفي المناهج الاخرى عن الرياضيات والفلك والتقدم العلمى لا يذكر
مطلقا اية منجزات للحضارة الاسلامية مما سبقت فيه الغرب بقرون .

ولا يذكر مثلا أن (ابن النفيس) هو الذى اكتشف الدورة الدموية
الصغرى قبل ولادة (وليم هارفى) الذى يقترن اسمه باكتشافها بثلاثة
قرون .

ولا يعلم الطالب المسلم أن (الرازى) هو الذى أجرى أدق العمليات
الجراحية للعيون بأدوات جراحية دقيقة تثير الدهشة والاعجاب .

ولا يوضح أن ابن حزم فى كتابه « الفصل فى الملل والنحل » قد
أثبت كروية الارض بدلائل من الكتاب والسنة قبل تسعة قرون .

ولا يدرس طلبة الجغرافيا أن قطر الارض ومحيطها قد قيسا على
عهد المأمون على أيدي محمد وأحمد إبني موسى بن شاكر .

هذا جزء يسير مما حاول خصوم العرب والمسلمين طمسه ، بتزييف
مناهج التعليم فى المدارس الوطنية مما لا يزال كثير منه قائما الى الان فى
الكتب ، وذلك فى محاولة لتفريغ عقول الناشئة من أمجاد أمتهم ، وحتى
يؤمنوا بأن الغرب هو الذى صنع هذه العلوم .

ومن هنا يتكشف للباحث المتعمق أن : القول بدراسة الدين فى المدارس
وحتى الجامعات هو انجاز هام ، فإن حركة اليقظة الاسلامية تتطلع الى أن
يصبغ الاسلام كل ما تقدمه المناهج من المدرسة الابتدائية الى أرقى درجات
التعليم الجامعى ، وأنه لا يمكن فصل الاسلام عن دراسات : (١) اللغة
(٢) التاريخ والجغرافيا (٣) العلوم والتكنولوجيا (٤) علوم الاجتماع والنفس
والاخلاق والاقتصاد والسياسة والتربية .

وأنه فضلا عن دور المناهج الوافدة فى عزل دور المسلمين الايجابى
والاساسى فى بناء هذه المناهج ، فإنها تصوغ الفكرة فى أغلب هذه الدراسات

على عزل روح الاسلام ، ووفق مفهوم الفلسفة المادية التى تقوم على المحسوسات والطبيعة ، وليس فيها روح الايمان بالله خالق كل شئ والنائم على نواميس الكون وسنته ، والقادر على تحويلها كذلك ، أما فى علوم النفس والاخلاق والاجتماع والنقد الأدبى ، فان نوع الانسان يدرس على أنه حيوان يضطرم بشهوتى البطن (الماركسية) والجنس (الفرويدية) وهما اللذان يتحكمان فى كل تصرفاته ، فردا وجماعة سلما وحربا وتقدما وهزيمة .

بينما نرى المفهوم الاسلامى يختلف عن ذلك اختلافا كبيرا ، ويجعل للروحيات والمعنويات وللعقيدة الدينية والاخلاق آثار كبيرة فى تفسير الأحداث والوقائع وتحولات المجتمعات وهزيمة الامم وسقوط الحضارات .

وفى مجال العلوم الاجتماعية : يجرى المنهج الذى تدرسه جامعاتنا ومدارسنا على مفهوم غربى خاطئ بالنسبة لعقيدتنا وقيمنا ، وان كان مقبولا فى الغرب ، وهو أن المجتمع ظاهرة متطورة يصنع مبادئه بنفسه ولا يأخذها من الله تبارك وتعالى ، وعلى هذا الاساس تكون الاخلاق من صنع المجتمع غير مفروضة عليه ، ولا يكون لها مفهوم روحى ، ويكون عمل عالم الاجتماع أن يسجل الواقع المتطور للمجتمع ، وقد تقدم لهذا المجتمع قواعد للسلوك مستمدة ، من القواعد التى يمنحها العلم .

ووفق هذا الاتجاه فليس من المنطق العلمى أن يقال : ان الواقع صحيح أو خطأ أو صالح أو سئ .

كما يصبح (الدين) مجرد ظاهرة من ظواهر المجتمع ، تملأ فراغا فى نفس الفرد ، وهو قابل للتطور مع التطور الاجتماعى ومع متطلبات العقل البشرى .

هذا المفهوم المادى كله مضاد لمفهوم الاسلام فى علم الاجتماع ، الذى يقوم على أساس المفهوم القرانى للانسان وعلاقته بالآخرين ، وعلى أساس النظر الى السلوك نظرة واقعية يفرق فيها بين الصحيح والخاطئ وعلى أن يوجه المجتمع الى الطريق الصحيح .

والمعروف أن الاخلاق في الاسلام جزءٌ من بنائه لها ثباتها وليست من صنع المجتمع ، ولذلك فهي لا تتطور وهي أمر من أمر الله وليست ظاهرة تتغير بتغير الزمان أو المكان .

وفي المفهوم الاسلامي لعلم الاجتماع لا يمكن فصل التطور الاجتماعي عن المسؤولية الاخلاقية ، والفرد في الاسلام لا يخضع لاوزاع المجتمع اذا انحرفت ولكن عليه أن يغير هذا الواقع بالتماس مفهوم الاسلام الصحيح .

وفي دراسة العلوم الطبيعية والجغرافيا والتاريخ : يجب أن تكون روح القرآن واضحة على أساس أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق والصانع وان الكون في قبضته تبارك وتعالى ، وان الحياة في هذه المجتمعات يجب أن تقوم على أمره ، وان يسعى الانسان في الكون لاقامة المجتمع الرباني ، وان يلتزم بالمسؤولية الفردية والاجتماعية والاخلاقية التي تقرر الجزاء الاخرى والبعث والحساب بعد الموت .

ولابد أن تقوم دراسات الحضارة والتاريخ على : أن لله تبارك وتعالى سننا لا تتغير ، وان لحياة الامم وتقدمها وكبوتها قانونا حاسما ، وان كل أمة تغرق في الترف والتحلل وتعطل عن المراقبة والقيام على حدود الله ، بالاعداد والتأهب للجهاد ومدافعة الاعداء لابد أن تعاقب بالسقوط والهزيمة .

ولابد أن تتجه العلوم الطبيعية لتكون أداة لاثبات قدرة الله وتوحيده وهو عكس ما نراه اليوم مطبقا في مناهج التعليم .

منهج العقيدة :

وليس ارتباط مناهج التعليم بعقيدة الامة ونظرتها العامة بالامر المستغرب ، أو أنه مطلب جديد ، بل هو ما تفعله كل أمة .

فاليابان البوذية والهند البرهمية وروسيا الشيوعية واسرائيل الصهيونية ، وكل أمة قد جعلت التعليم والثقافة مصطبغان بصبغتها الحضارية وفلسفتها العقائدية فلماذا بعد المسلمون وحدهم عن عقيدتهم ، ولماذا هم الخاضعون للمناهج الوافدة ماركسية أو غربية ، وهم يملكون أعظم المناهج وأرقاها وأصلحها لسعادة البشرية •

غفى روسيا :

لم تأخذ بمبدأ التعليم والتربية من حيث هو مبدأ انساني عالمي ، ولم يسمح باستيراد منهج من مناهج التعليم من خارج المعسكر الشيوعي ، ولا بادخال العلوم والآداب التي نشأت في حصانة الليبراليين أو الرأسماليين •
خوفا من أن تضعف مفاهيمهم ونزعاتهم العقيدة الشيوعية أو تتشكك فيها •

لقد أخضعت روسيا جميع العلوم والآداب النظرية فيها والتطبيقية ، حتى علوم الطبيعة والجغرافيا والتاريخ لمبادئها الشيوعية ولنظريات قادتها ومؤسسي دعوتها (ماركس ، وانجلز ولينين) وربطت بين هذه العلوم وبين أسس أولئك القادة رباطا وثيقا مقدسا ، على حد عبارة الكاتب الذي نقلنا عنه هذا النص — فهي تغار عليه غيرة المؤمنين القدامى على عقائدهم وحرمااتهم يقول « جورفين » العالم الطبيعي السوفيتي :

« ان العلم الروسي ليس قسما من أقسام العلم العالمي ، أنه قسم منفصل قائم بذاته يختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف فان سمة العلم السوفيتي الاساسية أنه قائم على فلسفة واضحة متميزة •• ان التحقيقات العلمية لا تزال في حاجة الى أساس وان أساس علومنا الطبيعية : « الفلسفة المادية » التي قدمها ماركس وانجلز ولينين وستالين • أننا نريد أن نخوض وفي أيدينا هذه الفلسفة في معترك العلم الطبيعي ونصارع جميع التصورات الاجنبية التي تناهض فلسفتنا المادية والماركسية بكل حزم وقوة •

وبذلك استطاعت المناهج التربوية والتعليمية الروسية أن توفق بين

العلوم التي احتاجت اليها والمبادئ التي آمنت بها ، وجعلت منها وحدة متناسقة ولم تترك فجوة بين الحياة التي تعيشها أو تسعى اليها وبين المبادئ التي تؤمن بها ، وتدعو اليها في حماسة فسامت من الاضطراب الفكرى الذى يسود فى عالم تتوزعه القوى المتناقضة ويسوده النفاق والتناقض .

وكذلك اسرائيل بعد الاتحاد السوفيتى تقيم منهج التعليم من أصل دعم نظرية الصهيونية ، وتقوم على أساس احياء لغة ماتت منذ ألف سنة تقريبا فى كافة المواد ، والعناية بالدراسة الدينية — لاثبات الباطل فى العقل الباطن — ورغم اختلاف الاحزاب فهى تلتقى جميعها فى الفكرة الاساسية ، ويرى بعضهم ان التقاليد اليهودية هى النبراس الذى ينبغى أن تستهدى به نظم التعليم وتحتم بعضها على المعلمين أن يحرصوا على التقاليد اليهودية حتى صدقهم العالم رغم خرافة المنهج .

وبعد : أليس من الاهداف الهامة أن يكون التعليم فى جميع العلوم باللغة العربية ، وهناك تجربة صادقة منذ سنوات طويلة فى احدى الجامعات العربية (فى سوريا) ، فعلى الجامعات العربية أن تتطلق من هذا البدء لبناء الحضارة الاسلامية التى لا بد أن تقدم العلوم والتكنولوجيا فيها من خلال اللغة العربية ، وهذا لا يعنى عدم معرفة اللغات الاجنبية ، ولكن ايماننا بأن اللغة العربية هى لغة الحضارة والثقافة كانت ولا زالت من أقوى لغات العالم فى قدرتها على النمو والاستتقاق والتعريب والتصريف ، وقد ثبت بالحجة الدامغة التى قامت بها كلية طب دمشق منذ زمن بعيد نجاح التجربة ، واودت ما يفهم المعارضين وما يوضح أن لغتنا الحبيبة قادرة على الاطلاع باعباء التعليم الطبى والعلوم الاخرى .

الفصل العاشر

مولد المدرسة الاسلامية في علم الاجتماع

أعتقد أنه قد آن الاوان بمطالع القرن الخامس عشر الهجرى أن يقوم المسلمون بتأصيل العلوم باستمدادها من منابعها الاسلامية بعد أن عاشوا خلال هذه الفترة الطويلة يتعلمون ويطبّقون مناهج وافدة صاغتها طبيعة وظروف وتجديات مجتمعات أخرل تختلف عن المجتمع الاسلامى عقيدة ووجهة وثقافة ، وفرضتها محاولات احتواء خطيرة سيطرت على التعليم والثقافة لادخال المسلمين في اطار الفكر العالمى الاممى القائم على النظرية المادية وعلى المفهوم الاباحى .

فالمجتمع الغربى الذى صُدّر للعالم الاسلامى تجربته ، قد تشكل على نحو مختلف عن مجتمع الاسلام الذى كان قد عاش أكثر من ألفى عام في اطار رسالات السماء هذا المجتمع الغربى الذى تشكل ابان الامبراطورية الرومانية على نحو غاية في استعلاء السادة والامراء وذلة الطبقات المستعبدة ، وعلى نحو من الترف والاباحية والفساد والطغيان . مجتمع القياصرة والفراعنة والاباطرة والاكاسرة ، الذى كان يعبد الحاكم ويسجد له .

هذا المجتمع لم يلبث أن عرف الرحمة والسماحة عندما دخلت النصرانية فازالت كثيرا من غروره وغطرسته ، وأحلت محلها رهبانية ابتدعوها ما كتبها الله عليهم فما رعوها حق رعايتها ، فأصبح مجتمعا منفصلا عن الحياة ، راغبا الى العزلة منقطعا عن الدنيا .

ثم جاءت مرحلته الثالثة مع النهضة ، انقلابا آخر بالعودة الى الاستعلاء بالجنس والاستعمار والحضارة ، وانصرافا عن الدين جملة في محاولات متعددة ، لاقامة منهج حياة ونظام مجتمع يقوم على المطامع

والاهواء والتسلط ، منكرا حاجات الروح والنفس والمعنويات ، مما نتج عنه ما يعيشه الان المجتمع الغربى من صراع شديد بين الفرد والمجتمع وبين المجتمعات الرأسمالية والمجتمعات الماركسية ، وما يتصل من دعوات الى المادية والاباحية والوجودية والهيئية ، ومن اضطراب فى علاقات الاسرة والمرأة والشباب على النحو الذى يهدد كيان الحضارة كلها بالانهيار ويهدد كيان النفوس الانسانية بالتمزق •

فى اطار التحول الخطير من الرهبانية الى الاباحية ، وضعت مناهج علم الاجتماع الذى سيطر على الثقافة الغربية والذى نقله علماء الجامعات الغربيون الذين استقدموا لهذا الغرض فى بلاد العرب والمسلمين والذين سافروا الى الغرب من شباب المسلمين أمثال منصور فهمى و طه حسين ومحمود عزمى وعلى عبد الواحد وافى وعبد العزيز عزت •

وقد تلقى هؤلاء علوم الاجتماع على قادة مدرسة العلوم الاجتماعية ، التى كانت قد ظهرت فى فرنسا فى العشرينات ، والتى ظلت مهيمنة على مناهج الاجتماع حتى اليوم وهم دور كايم وليفى بريل وموسى وفوكونيه ، وهى مدرسة تقول بأن قواعد الاخلاق ليست الا ظواهر اجتماعية ، لا نستطيع فى علاجها شيئا ، وكل ما يجب علينا عمله هو أن نرصدها لنستخرج منها قواعد عامة ، وأن الانسان مادة فحسب ، وان مبادئ الاخلاق التى هى ظواهر اجتماعية ، انما تملأ على الافراد دون أن يكون لهم دخل فى بنائها أو فضل الايمان بها ، وان ارادة الانسان الحرة التى يعتز بها ليست الا وهما لان المرء لا يملك لنفسه شيئا وانما هو مسير بغرائز وقوى •

ولا ريب أن هذا المفهوم لا يتفق مع الدين المنزل ولا الفطرة البشرية وأنه يحاول أن يهدم مفهوم الاخلاق الدينى الذى عرفته الاديان السماوية جميعا وأن جماعة مدرسة العلوم الاجتماعية اليهود انما يسرون فى نطاق المخطط الذى رسمته الصهيونية لهدم الارادة الفردية والاخلاق والاسرة •

وتقوم نظرية مدرسة العلوم الاجتماعية المادية ونظرية دارون على مفهوم الفلسفة ونظرية فرويد ، وتحاول أن تخضع مفهوم العلوم الاجتماعية الى النظرية التجريبية المطبقة على المادة من ناحية أو على مفهوم الحيوان من ناحية أخرى ، ولا ريب أن ذلك كله يختلف مع مفهوم العلوم الانسانية المتصلة بالنفس والروح والافلاق مما لا يمكن اخضاعه لمناهج العلم المادى .

ذلك أن الجوانب النفسية والروحية والوجدانية التى تشكل السلوك والاحاسيس والتصرفات انما تتصل أساسا بالعقائد وترتبط بالايمان بالله ، ولقد وجدت هذه الدعوى معارضة شديدة وأثبتت الاساث العلمية عجز المناهج التجريبية المطبقة على المادة عن تحقيق نتائج صحيحة بالنسبة لمشاعر الانسان وعواطفه وأخلاقه وتصرفاته .

وتستهدف النظرية الاجتماعية المطروحة القضاء على الشخصية الفردية قضاء تاما ، بدعوى خضوع الفرد للتجربة الاجتماعية التى تقول بأن الانسان محكوم بعدة عوامل ، هى التى تدفعه فى طريق الحياة ، وهى بذلك تحاول القضاء على قاعدة وطيدة فى الاسلام وفى المجتمع الاسلامى : وهى قاعدة الارادة الفردية والمسئولية الفردية والالتزام الاخلاقى .

كذلك تحاول هذه المدرسة انكار أصالة قيام الاسرة منذ العهود البشرية الأولى ، وفى مفهوم الاسلام ان الاسرة تكونت فى بداية البشرية ولم يخل منها جيل من الاجيال .

ولا يعترف الاسلام بأى نظرية عن تطور العائلة أو القول بأن المرأة كانت مشاةة فى عهد البشرية الاول ، فالقرآن الكريم يقرر صراحة أن نظام الاسرة نظام أصيل فى الطبيعة البشرية .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » النساء : ١

ولا ريب أن مدرسة العلوم الاجتماعية تستهدف التشكيك في نظام الأسرة ، توطئة للدعوة الى القضاء عليه على النحو الذى يحدث الآن في المجتمعات الغربية •

وقد جرت محاولات للقضاء على الأسرة على مر التاريخ ، ولكنها عجزت عن ذلك وسيظل نظام الأسرة ثابتا مكيئا على مر الازمان وسيظل أى نجاح يتحقق لخصومه في القضاء عليه ، عملا جزئيا يسقط بمرور الزمن ، ولا يأخذ صفة الشمول أو الاستقرار •

وتنتلق نظرية علم الاجتماع من مسبقة فرضية هى أن الانسان مادة وجسم وأنه ليس له قوى أخرى (شأنها في ذلك شأن علوم النفس والتحليل الفرويدى) ولا ريب أن مثل هذه العلوم الاجتماعية والنفسية انما تخضع لاهواء الفلاسفة ومزاجهم الشخصى وهى نتاج عامل واحد من عدة عوامل تسيطر على المجتمعات والفكر الشرقى ، هذا العامل هو العصر وأحداثه •

وأغلب هذه العلوم تعتمد على الاسطورة الاغريقية وتتخذ منها تصورا عاما للحياة ، ومع أنه قد تكشف لمدرسة العلوم الاجتماعية أن الظاهرة الانسانية ليست كالظاهرة الطبيعية وأنها من نوعية مخالفة ، وأن الظاهرة الاجتماعية ليست شيئا ملموسا يقاس كما تقاس الظاهرة الطبيعية فان هناك خطة للاصرار على الخطأ وقد أشار العلماء التجريبيون الى أن الظاهرة الانسانية لا تخضع للمقياس المادى وتشذ عنه وتتميز بحرية باطنة فيها ، ولا يمكن التنبؤ بمجراها أو وقت وقوعها ، وأن الظاهرة الانسانية أقرب الى الذات ، والانسان ذات وليس موضوعا ، بالرغم من هذا كله فان أصحاب الفلسفات المادية ما زالوا يخدعون ويعالطون •



وفي الجامعات المختلفة في العالم الاسلامى درست مواد علم الاجتماع بنقولة ومترجمة من كتابات الغربيين ، الذين قايسوا هذا العلم وفق مفهوم

الخطرية الليبرالية الغربية والأساتذة الأجانب الذين كانوا يقدمون هذه المادة في الجامعات العربية كانوا ينتقون المدرسة التي ينتمون إليها فالمخرجون من الجامعات الفرنسية كانوا يتبعون منهج المدرسة الفرنسية وكذلك المتخرجون من الجامعات الانجليزية والأمريكية ، كل حاول توجيه دراساته ومؤلفاته وفق الثقافة التي تخرج فيها والولاء الخاص بها ، لذلك لم تكن الاصاله على وجه العموم واضحة •

والاصاله لا تظهر على العموم الا عند محاولة دراسة النظم الاسلاميه ومقارنتها بالنظم الاوربيه الحديثه أما فيما عدا ذلك فهي ترديد للأفكار النوافده ، وكل الكتب التي صدرت عن علم الاجتماع في هذه الفترة متأثرة بمؤلفات أصحاب النظريات العضويه التصوريه التي كانت سائدة في أوربا — على حد تعبير الدكتور شحاته سعفان — مثل كتاب نقولا حداد الذى وصف بأنه أول مؤلف باللغة العربيه في علم الاجتماع وكذلك كتابات سلامه موسى وطه حسين وكلها متأثرة بنظرية التطور ، وقائمة على حدود المفهوم المادى للفرد ، وتقوم على أن الانسان حيوان خاضع لشهوتى الطعام (ماركس) والغريزة (فرويد) ، وأنه مسوق بهاتين الشهوتين في كل تصرفاته ، وهو مفهوم لايعترف بالقيم المعنويه والروحيه ، ولا يحفل بأثر الدين ودعوته في تغيير نظم المجتمع ، كما أنه متأثر بمفاهيم جمهوريه افلاطون التي تقوم على أساس الاعتراف بالفصل بين السادة والعبيد وضروره وجود مجتمع العبوديه في خدمة السادة وقد أقر أرسطو هذا المفهوم •

ماذا يريدون ؟ :

هذا من ناحيه ، من ناحيه أخرى فقد أكد الباحثون (علم الاجتماع) القائم اليوم في المجتمعات العالميه ، ليس علما قائما بذاته يعمل على النحو الذى يفرضه العلم الصرف ، ولكنه يعمل في خدمة النظام الغربى وما يتصل به ، من تثبيت سلطانه ونفوذه في عالم المستعمرات أو البلاد الخاضعه له

اقتصاديا ، ومن هنا فقد أشار باحثون كثر الى أن علم الاجتماع الامريكى مثلا لم يقف عند حدود مجتمعه بل تعداه الى بحوث استهدفت مقاومة التغيير فى العالم الثالث وضرب الحركات التحريرية •

وأثبت علماء آخرون ارتباط البحث الاجتماعى فى الغرب بأدوات السياسة والقوة العسكرية ، وأن بحوث علم الاجتماع تستخدم كوسيلة فى الفراغ العالمى وتثبيت تبعية العالم الثالث للنظام الرأسمالى فكرا وتوجيها •

كذلك ففى الاتحاد السوفيتى نجد أن جانبا كبيرا من الفكر الاجتماعى موجه نحو كشف مآسى وتناقضات المجتمع الرأسمالى على وجه العموم وأن الباحثين السوفيت يدرسون قضايا المجتمعات النامية بهدف كشف أثر الرأسمالية والاستعمار على أوضاعها وتغييراتها ، ومعنى هذا أن علم الاجتماع فى الغرب ليس علما أصيلا وانما هو علم موجه ، فهو فى داخل المجتمعات الغربية لخدمة أهداف النفوذ والسيطرة ، وفى داخل المجتمعات الماركسية لكشف عوامل أو أخطار السيطرة الغربية ، ومعنى هذا أن علم الاجتماع الآن بصورته الحالية هو علم تبرير الواقع ، وأنه ملتزم بتوجيهات الايدولوجية والحزب •

ويقول الدكتور عبد الباسط عبد المعطى الذى يكشف هذه الحقائق فى كتابه : (اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع) •

ان دور كايم وفيير ومن قبلهما أوجست كونت ، أرادوا جميعا التنظير لصعود الرأسمالية الاوربية والمحافظة على منجزاتها وتبنى توجه ليبرالى غالى فى الفردية التى هى جوهر المشروع الرأسمالى ، وان الرواد لعلم الاجتماع لم يكونوا قادرين على وضع نظرية عامة شاملة ، وأنهم خضعوا لمجتمعاتهم ولتحديات عصرهم وبيئتهم فى حدود فرنسا وألمانيا ، وبذلك جاءت ملاحظاتهم متعايشة مع هذا الواقع متحددة به •

كما أن هؤلاء جميعا كانوا منظرين للطبقات الحاكمة والمسيطرة ،

فتحول العلم لديهم الى تحكم ذى بعد واحد ، قضى على واحدة من خصائص العمومية ؛ أى نسيج البناء الاجتماعى بطبقاته وجماعاته وقطاعاته • وانهم اتخذوا جميعهم موقفا تبريريا من أوضاعهم الاجتماعية . وتلك أقوى مقاتل علم الاجتماع الذى نقله المسلمون فى مدارسهم وجامعاتهم ، وحاولوا أن يصوغوا مجتمعاتهم على ضوءه الكتيب •

كذلك فقد أشار الدكتور عبد الباسط فى أحدث دراسة عن علم الاجتماع تأثر هذا العلم بمنهج العلم الطبيعى ، كما أشرنا من قبل ، كذلك فقد أنكر الباحثون أن علم الاجتماع قادر على الوصول الى قواعد عامة للتطور الاجتماعى •

ويرى الباحثون أن علم الاجتماع — على هذا النحو — يمكن أن يكون علما إنسانيا ويمكن أن يكون ضد الانسان وبمعنى آخر أنه يمكن أن يسهم فى حل المشكلات ويمكن أن يؤكد التخلف ويخدم الاقلية •

وقد بلغ الأمر أن يقول أحد علماء الاجتماع « هوارد بيكر » الى جانب من نقف : هل نأخذ جانب المسيطرين أم الخاضعين : الحكام أم المحكومين ، وليس أقسى من هذا التساؤل ليكشف أمام أبصار المسلمين فساد تجربة علم الاجتماع الذى يخضعون له منذ أكثر من سبعين عاما •

فساد منهج أوجست كونت :

وفى مراجعة لفكر الاربعة الكبار فى علم الاجتماع : أوجست كونت ودور كسايم وماكس فيير وليفى بريل ، نجد أن القاعدة الاساسية هى : نظرية دارون التى تقول ان الانسان حيوان ناطق وتدرجه فى نظام الحيوان ، وتفرض عليه أحكامه متجاهلة جوانبه الروحية والمعنوية ، وهى أساس النظرية المادية ، بالاضافة الى نظرية فرويد فى الجنس والتفسير المادى التاريخ الماركسى •

ولا شك أن القانون الذى وضعه أوجست كونت وأطلق عليه اسم (المراحل الثلاث) قد فشل فشلا ذريعا ووجهت اليه انتقادات جمة ذلك لأنه نجاهل ظاهرة الدين الموحى به والقادر على تغيير المجتمعات ، ويقف عند النصرانية ولم يجد من الشواهد التاريخية ، ما يؤيده عمليا فضلا عن خضوعه لفكرة التطور المطلق الذى لا يعترف بالثوابت •

وكذلك يقوم الاطار الفكرى لمفاهيمه على أساس الفلسفة الوضعية التى تحكم المجتمع على أساس القوانين الطبيعية التى لا تتغير وهو يؤمن بأن الفرد شئ لا قيمة له •

ويهدف علم الاجتماع عنده لان يكون أداة للمحافظة على الواقع القائم وتأكيد السلطة الحاكمة ، ولذلك نادى بالحد من حرية التفكير وهل عندما قبض نابليون على ناصية السلطة بيد من حديد ، ونادى بضرورة محاكاة علم الاجتماع للعلوم الطبيعية ، وقد حرص على أن يكون علم الاجتماع الوليد أداة محافظة وتبرير ، وهو يرى أن على الانسان أن يتواءم مع ما هو قائم ، فليس له من ارادة ولا يجب أن تكون له ، وأن العيب كل العيب فى الانسان وأخلاقه ، لا فى الظروف المحيطة به ، وهذا تصور — كما يقول الدكتور عبد الباسط عبد المعطى — ليس ضد الانسان فحسب بل هو مشوه ومزيف لتاريخ الانسان •

مذهب دور كايم ضد الفطرة :

وكان دور كايم قد انتقل بعلم الاجتماع نقلة حاسمة الى أفق التلمودية ، التى صيغت مفاهيمها فى قوالب علمية مرتين : فى نظرية فرويد (النفس والاخلاق) وفى نظرية دور كايم (الاجتماع) •

فدعوة دور كايم تقوم على الجبرية المطلقة للفرد فى اطار المجتمع واقرارها بعجز الانسان عن تغيير المجتمع وضرورة خضوعه له ، وقوله أن العامل الفعال التى يؤثر فى المجتمع هو البيئة الاجتماعية ، وهو الغناء

كامل لدور الفرد ، وقد شهد له الباحثون بالتناقض والخلط ، وكان يثير التساؤلات ولا يجيب عليها ، ويتركز خطؤه في دعواه أسبقية المجتمع على الفرد ، وخضوعه لفكر البرجماتية والنفعية . وتسير كتاباته المتنوعة في مسار تأكيد ضرورة انصياع الانسان لما هو قائم ولما هو محيط فالظاهرة الاجتماعية اجبارية والزامية وان دراساته في نظر كثير من العلماء وأراءه يعوزها كثير من الصدق العلمى .

ومن أخطائه اعتباره الجريمة هى الفطرة والاسرة هى الشذوذ وهو خليط من جميع المذاهب المادية الماركسية والفرودية والبرجماتية وبه تحول علم الاجتماع الى دراسة الظواهر دون أن يكون له أثر في تغيير المجتمع ولا شك أن من أكبر أخطائه دعواه العريضة بأن المجتمع هو الذى أنشأ العقيدة وأن الدين لم ينزل من السماء ، وانما أوجدته الجماعة على النحو الذى حمل لوائه الدكتور طه حسين ودعا اليه في الثلاثينات .

ولا ريب أن مفاهيم دور كايم اليهودى ربيب المذهب الماركسى أصلا والنظرية المادية ، معارض تماما لكل القيم الاساسية التى تقوم على الفطرة ، والتى جاءت بها الاديان في منهجها الربانى القائم على الاصاله وعلى التكامل بين المادة والروح .

وقد بدأت خطوات التبعية في العالم الاسلامى لمفهوم علم الاجتماع الغربى ، عندما قدم الدكتور منصور فهمى أول رسالة في فلسفة الاجتماع اجامعة باريس ١٩١٣ تحه اشراف اليهودى ليفى بريل ، عن حالة المرأة في التقاليد الاسلامية ، وقد صاغها في اطار المدرسة الفرنسية الاجتماعية ، التى كان عميدها دور كايم ، وقد وقع تحت تأثيرات تفسير كثير من المستشرقين المتعصبين ضد الاسلام فانتت رسالته مجافية تماما لقواعد الاسلام وما يجب أن يتصف به المسلم ، اذ تناول سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعدد زوجاته بكثير من الخلط والفساد وقال ان المرأة بعدد الاسلام ساء موقفها لانها أصبحت تعامل كفرد لا كقريبة ، وقال ان محمدا

(صلى الله عليه وسلم) يشرع للجميع ويستثنى من ذلك نفسه ، ومضى يتحدث عن ذلك كله بأسلوب المستشرقين ، واحتوى حصل من الرواية نقداً لأكثر من موقف للنبي صلى الله عليه وسلم . ولحياته الزوجية والاجتماعية ، وقال ان الاسلام هو الذى فرض الحجاب على المرأة والاستقرار فى المنزل (وقد رجع الدكتور منصور فهمى عن هذه الآراء فيما بعد وكتب عن الاسلام كتابات رائعة) وقال : انه وقع تحت تأثير المستشرقين اليهود ، كما وقع الدكتور طه حسين فى آرائه عن أن الدين خرج من الأرض كما خرجت الجماعة ومحمود عزمى الذى كان يفرق بين مفهوم الاقتصاد السياسى ومفهوم الربا فى الاسلام ويقول : اذا ذكر الاقتصاد فلا يذكر الدين .

كما أعلن طه حسين أن ابن خلدون غير كامل الاهلية العلمية ، ونقده نقداً جارحاً وأعلن عدم اعترافه بأن ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع أو حتى مبشر بعلم الاجتماع الحديث ، مخالفاً بذلك الاغلبية الساحقة لعلماء الاجتماع المعاصرين الذين أعترفوا لابن خلدون بفضل السبق والاصالة ومنهم توينبى البريطانى وفريرو الايطالى وجملبو فتر البولندى وذلك جرياً وراء التبعية لرأى اليهودى دور كايم فى ابن خلدون حقداً وغلوا .

كذلك فان الدكتور على عبد الواحد وافى الذى وكل اليه انشاء قسم الاجتماع فى الجامعة المصرية ، ظل والى اليوم خاضعاً لمفهوم دور كايم والمدرسة الفرنسية ، وهو الذى روج له وقدم مفهومه بالعربية فى كتاب ضخيم ولقد كان كل أساتذة الاجتماع على هذا النحو ومن جاء بعدهم عبد العزيز عزت والساعاتى والخشاب ، فقد تعاملوا على فوكونيه وماسينيون وكان هؤلاء يبحثون عن المفكرين المسلمين الخاضعين للفكر اليونانى أمثال ابن مسكويه الذى تأثر فى بحثه باخلاق بأفلاطون فى جمهوريته وبأرسطو فى كتابه الاخلاق .

وقد خضع الدكتور حسنى الساعاتى والدكتور مصطفى الخشاب

لمفاهيم علم الاجتماع الغربى وتلقاه على أيديهم عشرات من المثقفين فى العالم العربى ، وقد عالجوا جميعا المجتمع العربى الاسلامى على أنه مجتمع محكوم عليه بنظام علمانى خالص فى اقتصاده وسياسته وقوانينه ، فلم يكن هناك ما يفتح الباب أمام المفاهيم الاسلامية فى علم الاجتماع وقد أحيا هؤلاء دراسات أوجست كونت صاحب المذهب الوضعى وسان سيمون وفكر المدرسة الفرنسية (دور كايم وليفى بريل) كما عتوا بالانثروبولوجيا والأساطير والفلكلور على اعتبار أنها المادة التى تصنع منها المجتمعات البدائية ، وجروا شوطا طويلا وراء مفاهيم علم الاجتماع الغربى الوافد الذى لم يكن يلتقى مع الفكر الاسلامى فى أى أساس من أسسه ما عدا بعض علامات بسيطة أظهرت مفهوم الاسلام . منها كتابات الدكتور حسن سغفان عن رفض المجتمع الاسلامى للنظرية الماركسية فى تفسير التاريخ ، وقد قال أحدهم : ان كل ما لدينا من علم الاجتماع هو من صناعة الأربعة الغربيين الماديين أوجست كونت وهربرت سبنسر واميل دور كايم وماكس فيبر .

فجر جديد لعلم اجتماع اسلامى :

ولكن الامور لم تكن لتمضى على هذا النحو بعد أن علت صيحة حركة اليقظة الاسلامية بالعودة الى منابع ، والبحث عن الاصاله وترشيد الفكر وتحريره من التبعية وتصحيح المفاهيم ، وهى الدعوة التى تعالت فى العقدين الاخرين من القرن الرابع عشر ، والتى امتدت الى كل جوانب البحث والثقافة ، وخاصة فى مجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية ومن ثم ظهرت خيوط رقيقة من الدراسات التى استحصدت وقويت ، وخاصة ما قدمه الدكتور مصطفى محمد حسنين فى كتابه « نحو علم اجتماع اسلامى » الذى صدر منذ عشر سنوات .

ويرى الدكتور مصطفى حسنين أنه حيث يجعل دور كايم الظواهر الاجتماعية أساس الدراسة وتجعل المدرسة الانجليزية والامريكية النظام الاجتماعى

أساس الدراسة ، فان الاسلام يجعل من واقعات العمران البشرى موضوع الدراسة ، وأن كثير من علمائنا قد أخطأوا في ظنهم أن واقعة العمران البشرى — كما عرفها ابن خلدون — هى بذاتها الظاهرة الاجتماعية عند دور كايم ، ولكن طبيعة الواقعة الاجتماعية تختلف في وظيفتها وبنائها الاجتماعي اختلافا جوهريا عن وظيفة المظاهر الاجتماعية وبنائها الاجتماعي ، وان واقعة العمران البشرى — كما قدمها ابن خلدون نسيج وحدها في الوظيفة والتركيب الاجتماعي على السواء ، وان دور كايم أهدر كل تقييم أخلاقي حتى أنه يقول : ان الجريمة ظاهرة ضرورية وهى ليست ظاهرة مقيدة ، ولا ريب أن هذا لا يستقيم اطلاقا مع النهج الاسلامي في النظر الى مجتمع المسلمين ، بل هناك ما هو أسوأ ، فان دور كايم ينتهى في نظريته في الظواهر الاجتماعية الى القول بأن اصل الاديان أصل أرضى يرجعها الى الطبيعة .

وهناك فارق كبير وعميق بين المدرسة الاسلامية والمدرسة الاجتماعية يكشف عنه الدكتور مصطفى حسنين (ذلك ان ابن خلدون يربط بين قيام الواقعية الاجتماعية ووظيفتها ربطا شديدا ، اذ جعل العمران هو هدفها وغايتها ، واذا كان الاسلام قد شد بين صالح الفرد وصالح الجماعة في نطاق واحد وجعل كل مصلحة منها تساند الأخرى وتدعما فان ابن خلدون على أساس الفهم الاسلامي كان يتبنى واقعات العمران على أساس ما تحققه من مصلحة للجماعة والأفراد على السواء .

ويشير الدكتور مصطفى حسنين الى أن بحوث دور كايم ، وان جعل موضوعها ، العرب في شمال افريقيا وبلاد الشام والبدو بصورة عامة ، كانت تتجه الى وصف هذه الجماعات على انها (بدائية) متخلفة بالاضافة الى آراء دور كايم المرفوضة في الدين الوضعي .

من أجل هذا رأى الدكتور مصطفى حسنين أن يرجع الى أساس المدرسة الاجتماعية الاسلامية التى أرسى دعائمها ابن خلدون ويقول : انه

لابد لنا ونحن أصحاب المنهج الاصيل الاول اذا أردنا مقاومة هذه الافكار الهدامة ولكي نصلح أمرنا ، ونعود الى الاصاله ، أن نؤكد على منهجنا في التفسير وأن نصد كل رأى مخالف بنفس الأسلوب الذى يتخذونه في محاربتنا ، أنهم يقولون : انهم أصحاب أسلوب علمى ونحن نقول لهم : ان لنا أيضا أسلوبنا العلمى المكين ، وأسلوبنا العلمى قائم على هذا العلم الذى هو فقه الشريعة الاصيل قرآننا وسنة رسولنا — صلى الله عليه وسلم — ، أسلوبنا واحد غير مسبوق بمثله ، لم يتبدل ولم يتغير ، هو القرآن الكريم وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك ما قام الدليل الشرعى عليه بأنه طاعة الله ورسوله •

الفصل الحادى عشر

دراسات النفس والأخلاق من التبعية الى الأصالة

لا ريب أن الدراسات الحديثة فى مجال النفس والأخلاق ، التى تقوم الجامعات فى العالم الاسلامى على تقديمها للشباب المسلم ، تمثل مجموعة النظريات التى طرحها الفكر الغربى ، والتى هى فى الحقيقة تمثل التحديات التى يواجهها المجتمع الأوروبى والأمريكى فى العصر الحديث ، ولا تمثل تحديات المجتمع الاسلامى ولا النظرة الاسلامية فى هذه المسائل والقضايا .

والباحث المسلم حين يدرس أو يستوعب هذه النظريات يعتقد أن هذا المفهوم المطروح فى النفس والأخلاق هو الاجابة الوحيدة عن كل هذه القضايا والتحديات ، بينما للإسلام مفاهيمه وإستجاباته التى تختلف اختلافا عميقا ، والتى تتصل بمجتمعه وبالنفس الانسانية الاسلامية العربية — وبكل نفس على الاطلاق .

ومن شأن هذا أن يجعل المسلم يواجه الحياة والمجتمع بمفاهيم باطلة وأن يظن أن الاسلام ليس لديه حلول واجابات لمثل هذه القضايا .

مقدمات للتنبيه :

ولذلك فان من ألزم الواجبات أن تسبق هذه « المناهج » الدراسية « مقدمات » تبين « الأصالة الاسلامية » وتكشف عن أن هذا الذى يدرس ما هو الا بمثابة نظريات قابلة للصواب والخطأ ، وليست حقائق عامة ثابتة ، ذلك أن (العلوم الانسانية) ليست لها صفة « الثبات » التى تعرفها العلوم التجريبية ، ولأنها تتصل بالمواطف والمشاعر وأهواء النفس فانها تختلف ، ولأنها تتصل بالعقائد والتقاليد فانها تتباين بين مجتمع وآخر . ولما كان المجتمع الاسلامى يقوم على قاعدة الايمان بالله الواحد ، (م ١٠ — سموم الاستشراق)

ويلتمس في تفسير أحداثه وتحدياته مفهومه الاصيل المستمد من « القرآن الكريم » والسنة النبوية ، فان من الخطر تصور أنه محاصر في مفاهيم بعيدة كل البعد عن ذاتيته ومشاعره وبيئته .

فاذا كانت هذه النظريات قد طرحتها تحديات ليست موجودة في المجتمع الاسلامي ، وانها لم تستطع على وضعها الحالي أن تستجيب للنفس الغربية في حل مشاكلها ، فان التماس فهمها ودراستها في المجتمع الاسلامي من شأنه أن يكون بعيد الاثر في افساد النفس البشرية المسلمة ، وتسميم منابع الخير فيها .

ولقد يكون الامر أقرب الى النظرة العلمية ، حين تطرح هذه المذاهب على أنها مذاهب غربية لبيئة غير بيئتنا ، وأن يقال انها نظريات ، أى وجهات نظر لفلاسفة وباحثين ، قابلة للصواب والخطأ ، وأنها ليست الكلمة الاخيرة ، وليست الحقيقة العلمية الثابتة ، وأنها محاولة ستنقلوها محاولات ، وأن الزمن يلاحقها بالتغيير والتبديل .

ان أى نظرية يقوم بها فيلسوف أو مصلح تتمثل فيها حقائق هامة :
أولا : ان هذه النظرية هى فرضية افترضها هذا الفيلسوف بناء على نظرتة الى الأمور وثقافته ومكونات شخصيته .

ثانيا : انها نظرية تتصل اتصالا تاما بالتحديات الخاصة لشخصية هذا الفيلسوف وبيئته وعصره ومجتمعه وظروف معينة قائمة أمامه .

ثالثا : ان الانسان على أعلى درجة من التفكير والنظر ، لا يستطيع أن يخرج عن أبعاد وجوده البشرى والعقلى والنفسى ، ولا يستطيع أن يشرع للمجتمع الانسانى كله .

ومن ثم فان ما يقدمه « الفكر البشرى » هو فرض يقبل الخطأ

والضوابط ، وقد يصلح لمجتمع ولا يصلح لآخر ، وينفع في عصر ولا ينفع في جميع العصور .

ولقد اعتورت النظريات والمناهج أسباب القصور وحل بها التناقض ، واحتاجت الى الاضافة والحذف ، على مدى قريب من ظهورها ، وذهب بعضها وانطوى عجزا وفسادا ، وليس أدل على ذلك من مذاهب الفرويدية والوجودية المطروحة في مجال علمي النفس والاخلاق ، ونظرية دور كايم ومدرسة العلوم الاجتماعية المطروحة في مجال الاخلاق والاجتماع .

وجملة القول أن نظريات الفكر الغربي في النفس الانسانية المطروحة في مناهج الجامعات في البلاد الاسلامية وآفاق الثقافة ، تختلف كل الاختلاف عن مفهوم الاسلام ، وتتعارض مع طبيعة النفس البشرية التي قدمتها لنا (الأديان) وأضاء مفهومها (الاسلام) على نحو كاشف صريح يقوم على أساس الفطرة البشرية الجامعة بين أشواق الروح ورغبات الجسد والتي تتحرك دائما رفعة الحس وقوة الايمان .

ومن هنا فقد تركت « مفاهيم النفس » الوافدة أثرا بعيد في اثارة جو الشك والاضطراب والقلق والتمزق ، لأنها بدت وكأنها حقائق علمية ، بينما لم ترد على أنها نظريات ووجهات نظر لفلاسفة ، لهم أهواؤهم ومطامعهم ، ولهم تحديات مجتمعاتهم ، ومن ورائهم تحديات أخرى تقوم عليها اليهودية العالمية ، وتستهدف بها زلزلة الاخلاق والسكينة والامن النفسي وادخال العالم كله في اتون التمزق والصراع كمقدمة لتحقيق أهدافها .

ولعل من أخطر مفاهيم علم النفس المطروحة الآن في أفق الفكر الاسلامي والدراسات الجامعية ، هو التعميم والقصور والانشطارية والتجزئة ، وأخطرها جميعا « الارضية المادية » التي ينطلق منها الفكر ، سواء في لونه الغربي أو لونه الماركسي ، وهذه السمات جميعا يتسم بها

الفكر الغربى اليوم فى كل معطياته المحدثه ، ومراحله الاخيرى ، وخاصة القول بأن « الجنس » هو أساس الدوافع النفسىة جميعا ، وأن الإنسان «مقسور فى اطار « الجبر » الذى تفرضه هذه الغريزة على كل تصرفاته ، بحيث يعجز عن أن يكون له ارادته الخاصة القادرة على الاختيار وعلى التغيير .

ومن خلال هذه الفرضية الجزئية حاول (فرويد) ومدرسته استخلاص مفاهيم تتعارض تماما مع مقدرات النفس الانسانية وأعماقها البعيدة ، وخاصة فيما يتصل بحركة التوازن القائمة بين العقل والغريزة ، وبين النفس والجسم ، وبين الروح والمادة .

وحين يفترض (فرويد) أن الشهوة الجنسية هى الحافز الأول لنشاط الإنسان ، فانه يضع قاعدة خطيرة هى :

اعلاء الجانب الغريزى فى الإنسان ، ورد كل العوامل عليها تحت اسم « حيوانية الإنسان » .

ومن هنا يذهب الى القول بأن النشاط ذهنى والاجتماعى والفنى والدينى ، له أساس جنسى ، ويمضى الى القول بحب الام وكرهية الأب عند الرجل ، ويعتمد فى ذلك على أسطورة يونانية قديمة هى (أسطورة أوديب) التى تحولت على يديه الى مركب ، وكذلك فيما يتصل بحب الأب وكرهية الام عند المرأة ، ويعتمد فيه على أسطورة أخرى هى (أسطورة الكترا) .

ويمضى فرويد فيقرر أن الإنسان فى جوهره : حيوان كغيره من الحيوانات ، وأن غرائزه وميوله الفطرية وحاجاته العضوية هى أساس سلوكه فى الحياة .

وهكذا نجد أن أخطر ما تقدمه مفاهيم النفس فى المنهج الغربى للوافد

من آراء ، انما تدعو الى معارضة مفاهيم الدين في مغالبة النفس ومجاهدة
الاهواء ، وعدم الخضوع للدوافع المدمرة للكيان الانسلى .

غير أن الدين الحق حين دعا الى المغالبة والمجاهدة لم يدع الى الكبت
أو الاسقاط ، أو تحريم هذه الرغبات الحسية بل اعترف بها ودعا الى
مارستها وتحقيقها فى اطارين :

الأول : اطار النظام الاجتماعى وقوانينه الحافظة من أخطاء الزنا
والاباحية .

الثانى : اطار الضوابط التى تحمى الطبيعة البشرية من التحال
والانهيار .

فالاسلام أساسا لم يحرم الرغبات الحسية بل اعترف بها ، ولكنه نظم
الممارسة فى اطار كريم ، ومتوازن مع حاجات الانسان الاخرى ، بحيث
تتحقق أشواق الروح ورغبات الحس فى وقت واحد ، دون طغيان من
أحدهما على الآخر ، وليس على هذا الاسلوب الذى يدعو الى الانطلاق
الحر غير المقيد الذى تدعو اليه المذاهب النفسية والاجتماعية الغربية .

هذا فضلا عن وصف الرغبات الحسية بأنها عوامل الكبت ، وأنها من
مصادر الخطر العقلى والجسمانى ، ومن هنا تجيء الدعوة الى اطلاقها ،
ولكن ذلك يرجع فى الواقع الى واقع المجتمع الغربى نفسه فى تعامله مع
عقائده الدينية وتقاليده الاجتماعية ، وهو ما لا نجد له شبيها فى المجتمع
الاسلامى .

ومن هنا يمكن القول بأن « مناخ » علم النفس المطروحة مفاهيمه فى
مناهج الدراسات الجامعية العربية ليس اسلاميا ، وليس صحيحا ، وليس
أصيلا ، بحيث يعطى النفس حاجتها وسلام مفهومها وليس قادرا على أن
يجررها .

ومن هنا نجد ذلك الاضطراب الذى يجتاح مجتمعات الشباب ، من حيث أنه يظن أن ما يدرسه هو حقائق علمية ، أو أضواء كاشفة ، أو أنوار هادية الى فهم الحياة والتحرك فيها ، ومن هنا يخسر المجتمع الاسلامى خسارة ضخمة ، نتيجة الضحايا الذين يقعون فى الشرك ، ويفسد اتجاههم نتيجة اعتمادهم على تلك المفاهيم المسمومة •

ولو أن هذا الشباب وهذه الاجيال وجهت الى فهم القيم الاسلامية فى النفس ، وعرفت أن ما تدرسه فى هذه المناهج ليس علما وليس يقيناً خالصا ، لتمكن أن تنجو من الهزيمة والفساد الذى أصاب كثيرا من النفوس •

ولقد كان حقا علينا أن نكتب فى مقدمات المناهج لشبابنا ، أن مناخ المفاهيم النفسية التى بين أيديهم انما يستمد استجاباته من تحديات معينة ، هى خلاصة تاريخ العلاقات الاجتماعية فى مجتمعات أوروبا والغرب ، والتى استمدت مضامينها من جو الرهبانية واضفاء الكراهية على العلاقة الطبيعية بين الرجل والمرأة ، حيث بالغت النصرانية الغربية فى فرض القيود على النشاط الحيوى ، وأنكرت حق الفرد — لا فى مزاولته ، بل فى الاحساس بالرغبة فى هذا النشاط ، حيث لا تكتفى بوضع القيود على الميدان العملى ، بل تتعداه الى مجال الشعور النفسى على سبيل الالتزام •

وهذا يعنى معارضة الطبيعة البشرية ، وقمع الجسد ومقاومة رغبة النفس وامتهان الجسد ، كوسيلة لا وسيلة غيرها للارتفاع بالروح ، وقد صاحب هذا الاتجاه :

تلك الدعوة الحارة الى الرهبانية والزهد ، وما اتصل بالاديرة من أحداث وأهواء ، وما يرتبط بهذا من عدم اباحة الطلاق ، كل هذا قد أدى الى مفهوم وواقع كلاهما متعارض مع الفطرة البشرية — هذا المفهوم والواقع مع تحدياته وآثاره الخطيرة — كانت نظرية فرويد هى رد الفعل الطبيعى لها •

ولم تكن نظرية فرويد الا مجموعة من الفروض التى استقفاها من تجربته مع المرضى والشواذ والمصابين ، وليس مع الاصحاء أو الاسوياء ، رمى وجهة نظر معينة لم تثبت طويلا فى مجال التجربة ، حتى قال كثير من الباحثين : ان فرويد أقرب الى المتنبئين منه الى العلماء ، وأنه يلقي بنظرياته وآرائه دون أن يقدم لها البرهان العلمى أو السند الواقعى ، وأنها تقوم فى أغلبها على الافتراض ، ثم تصديق ما يفترض ، فيبنى عليه كأنه حقيقة علمية ، لا يأتيتها الباطل •

وقد أثبتت الدراسات العلمية بما لا يقبل الجدل ، أن الدافع الجنسى يأتى فى مرتبة أدنى من كثير من الدوافع الأخرى ، كالدافع الى طلب الهواء أو الشراب أو الطعام •

ثم ان الدافع الجنسى يخضع للقربية ، بمعنى أننا نستطيع تربية الانسان على العفة ، بحيث يضبط دافعه الجنسى ويتحكم فيه ، وبذلك تكون العفة أمرا ليس ممكنا فحسب بل ضروريا •

ويقول الباحثون : ان نقطة الضعف الأساسية فى فرويد كعالم : هى انه اتخذ من دراسة نفسه ودراسة طفولته قاعدة للتعميم ، والوصول الى قوانين عامة وقد ترك فرويد من كتاباته عن نفسه وعن حياته ، ما يثبت أنه كان يتخذ من تحليل أحلامه وهواجسه ومشاكل صباه — كيهودى فى النمسا المتعصبة ضد اليهود — قاعدة لكل تصميماته •

ويقول الباحثون ان « فلسفة فرويد » تمتاز بأنها ميكانيكية جبرية ، فانها تنظر الى الانسان على أنه آلة عديمة الحرية ، خاضعة كل الخضوع لقوى خفية ، لا يمكن التغلب عليها الا بالحيلة ، وأن فرويد أسرف فى كل ظاهرة سلوكية الى الغريزة الجنسية •

بل ان فرضيات فرويد لم تكن موضع قبول من العلماء العاملين فى حقل علم النفس ، بل على العكس من ذلك ، كانت موضع المعارضة •

وقد عارض يونج وأدلر نظرية فرويد في الجنس ، ورفضاً رأيه في الغريزة الجنسية ، وفي الطفولة وفي عقدة أوديب •

أما أدلر : فانه نبذ أهمية الغريزة الجنسية النبذ كله ، وأرجع تكوين الشخصية ونشأة الامراض العصبية الى مجرد الرغبة في القوة والتعويض عن نقص الكيان •

ويعتقد إدلر أن حافز (تأكيد الذات) وليس (الدافع الجنسي) هو القوة السائدة الايجابية في الحياة •

ويرى يونج : أن الجنس ليس هو الدافع الحقيقي ، ولكن هو الرقى والسيادة والرغبة الملحة في التفوق ، وأن الحب الجنسي ليس الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذه السيادة ، وأن هناك وسائل أخرى لا علاقة لها بالحب الجنسي •

ويرى أدلر : أن الشعور بالنقص أهم في عوامل الامراض العصبية من الأمور الجنسية التي بالغ فرويد في ابراز خطورتها •

ويقول يونج : ان آراء فرويد ذات جانب واحد وغير ناضجة تمام النضوج ، وأن مصدر سرور الطفل في الحصول على الغذاء هو (اللبن) ولكن يجب أن لا يوصف بأنه جنسى أبداً ، وذلك باعتبار أن الدافع الجنسي لم يتميز بعد عن الميل الابتدائي للحياة ، وينكر يونج أن (اللبن) جنسى بكليته وهو يعتبر أن اللبن هو ارادة الحياة •

وقد أجمعت الابحاث التي كتبها أقرب الناس الى فرويد ، ومنهم صديقه ومترجمه الدكتور أرنست جونز : على أن فرويد لم يكن (سؤى) الطبيعة أو الصحة ، وأنه كان عرضة للاغماء على أثر بعض المفاجئات ، وكانت مرارة الطبع خلّة ملازمة له في علاقته بغيره ، وكانت لاحلامه وجوه خفية ترمز الى دلائلها في سريرته الباطنة وكانت له ضروب من القلق تنم عن باعث من بواعث الحيرة المكتومة الباطنة •

وكانت أظهر حالاته الخاصة أنه يحارب التشبث بالعقائد الديئية والعادات والتقاليد الخلقية ، ولكنه يتشبث بالتفسير الجنسي للعقائد والعادات ، شيئاً يفوق في اصراره وشدته تعصب المتعصب للدود لمذهبه ودينه .

وقد تبين أن فرويد كان مجموعة من هذه العقد النفسية الى آخر حياته ، وكان ينسى الاسماء منها اسم أحد معارفه : الدكتور فرويد . . وكان يتتبع أوراقه التي تدخل في ترجمة حياته فيحرقها ، وكان في طفولته ينسى نفسه ليلاً في فراشه (يبول في فراشه) ، وكان يخشى من السفر بالقطار ، ويحضر الى المحطة قبل موعد قيامه بنحو ساعة وكان دائم العزلة ، ولا يسمح لأحد أن يصاحبه طويلاً .

واليوم نجد أن العلماء قد مزقوا (نظريات فرويد) في مؤتمرات عديدة للعلوم النفسية : منها مؤتمر شيكاغو ١٩٥٦ ، حيث كشف العلماء بوضوح عن فساد نظريات فرويد ، وقال الدكتور برسيغال ينال مدير معهد النفسيات بولاية إلينوا :

ان آراء فرويد لا تضيف شيئاً الى القيمة الانسانية ، لانه يرد الانسان الى أغوار العقل الباطن ، ويهمل جانبه المنطقي والشاعر ، وأنه لم يكن يفهم المرأة ولم يكن يتذوق الموسيقى ولا يحس جلال العقيدة .

وقال آخرون : ان مصادر فرويد هي حوالى مائة مريض التقى بهم وليس بين مصادره سوى واحد ، وهذا كله من شأنه أن يكشف فساد الاعتماد على آراء فرويد في تقديم منهج لعلم النفس .

كذلك اعتمدت دراسات الاخلاق على مجموعة أفكار يونانية قديمة ، وتراث روماني ونصراني ، وقوام الفلسفة الاخلاقية الغربية الحديثة :

هي نظريات الصراع بين البشر وبين الله (سبحانه وتعالى عما يقولون

علوا كبيرا) الاسراء ، والخصومة بين الالهة والناس ، فالالهة تنتقم من الناس في وحشية وعنف ، لتنفرد وحدها بالقوة ، وهذا الأساس الفاسد هو الذى يقوم عليه المفهوم الغربى والمسرحيات والقصص .

وقد اتصل هذا المعنى الاغريقى بالفكر الرومانى ، الذى يقيم فلسفته على أساس (أن أهل روما هم السادة والناس جميعا خارج روما عبید) .

ومن ثم علا مذهب المنفعة ، وقام كل شئ على أساس القوة وعبادة القوة ، اعتقادا بأنها وحدها مصدر الثروة ، وكانت الفكرة المسيطرة فى احتكار القوة واستغلال الامم لمصلحة روما (وهو ما يطبق اليوم بين الشمال والجنوب) وبين الاستعمار والدول النامية ، التى يطلقون عليها المتخلفة ، مع أنها هى المالكة الحقيقية للثروة التى ينتهبها الغرب .

والنظرية الثانية التى استمدت منها النظريات الاخلاقية الغربية هى : « الرهبانية » القائمة على تعذيب الجسد ، بحسبانها مثالا كاملا فى الدين والاخلاق ، والاحتباس فى الأديرة والغاء الزواج ، وهو تضاد للفطرة الانسانية وتقيد للطبيعة ، وكان من نتيجة هذه المعاكسة تفسى حركة الاباحية والمادية العاتية .

وقد ورثت الحضارة الأوربية المعاصرة هاتين النزعتين ، وتطورتا حتى جاء عصر النهضة فأعلى من قدر الانسان حتى أصبح معبودا ، ثم ظهرت نظريات دارون وماركس وفرويد ، وكلها تحاول أن تفرد الجانب المادى وبالاخرى الجانب الحيوانى فى الانسان بالحياة ، وتنكر جانبه الروحى .

ومن هنا تحول مفهوم الاخلاق الذى جاءت به الأديان الى أنسانية شديدة ، ودعا ميكافيللى الى السلطة الاوتقراطية كوسيلة لترويض الانسان الذى وصفه بأنه مطبوع على الشر ، وانه أقرب الى الحيوان منه الى الملائكة ، كما دعا الى أن الغاية تبرر الوساطة .

ثم دعا فرويد الى اطلاق الغرائز الجنسية وعدم تقييدها ، وكان هذا مستمدا من الاخلاق اليونانية ، ثم أعلن دور كايم : أن نظام الاسرة والجماعة ايس نظاما فطريا ، ثم أعلنت الماركسية أن الاخلاق خاضعة للظروف المعيشة لكل مجتمع •

وهكذا حاولت النظرة الغربية أن تجرد الاخلاق من فكرة الالتزام والواجب والضمير الخلقى ، بينما لا يمكن أن توجد الاخلاق كقوة فاعلة في المجتمع ، دون فكرة الالتزام ، بحسبان أن الالتزام هو العنصر الاساسي أو المحور الذي تدور حوله المشكلة اخلاقية •

ان زوال فكرة الالتزام يقضى على جوهر الحكمة العملية التى تهدف اليها الاخلاق ، فاذا انعدم الالتزام انعدمت المسؤولية ، واذا انعدمت المسؤولية ضاع كل أمل فى وضع الحق فى نصابه ، واقامة أسس العدالة •

ومفهوم « الالتزام » يقتضى أن تكون الفضيلة قوة فاعلة ، اذا ملأت نفس المرأ حفزته الى العمل النافع والى النشاط المستمر ، حيث تتحول الفضيلة من قوة معنوية فى نفس الى قوة حية ، ويكون (الخير الاخلاقى) بمثابة سلطة ملزمة يتقيد بها الجميع •

وقد دعا (القرآن الكريم) الى الالتزام الخلقى ، وكشف عن أن النفس الانسانية عرفت منذ تكوينها الاول معنى الخير والشر ، « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » سورة الشمس — وان النفس الانسانية قد ألهمت الحدس الخلقى فعرف طريق الفضيلة والرديلة « وهديناه النجدين » سورة البلد •

وقد تنحرف الطبيعة الانسانية نحو الشر ، ولكن الانسان قادر على أن يردّها ويستعيد قدرته وسيطرته على قيادها ، وفى النفس قوة كامنة

تهى النصيح « النفس اللوامة » وتحدد للانسان ما يجب عمله وما يجب تخاشيه ، هذه السلطة التى تسيطر على قدراتنا وعلى غرائزنا هى أسمى جزء فى نفوسنا •

وقد واجه مفهوم الاخلاق الغربى .الوافد تحديا خطيرا بالنسبة للفكر الاسلامى ، وما جاءت به الاديان ، وخاصة فى دعوته الباطلة الى فصل الاخلاق عن الدين ، ذلك أن مصادر الاخلاق كانت دائما مرتبطة بالاديان نابعة منها ، وأن أى عمل أخلاقى لا قيمة له ، اذا لم تكن حركته قائمة فى اطار العقيدة •

وكان من أكبر أخطاء مفهوم النظرية الاخلاقية الغربية قولها بالخطيئة وأن النفس شريرة فى أصلها ، وقد جاء مفهوم الاسلام مقرا أن الانسان يولد على الفطرة ، وأن أهله هم الذين يوجهونه الوجهة التى يرونها وأن الانسان قابل لكل من وجهتى الخير والشر ، وأن بناء الارادة وقرار فريضة الالتزام الخلقى ، هو الذى يمكن من التوجه الى الخير « قد أغلح من زكاها وقد خاب من دساها » سورة الشمس — وقد عنى القرآن الكريم بايقاف المشاعر النبيلة ودعا الى الخير وإثارة مشاعر الاخوة والكرامة والرحمة •

كذلك كان من أخطر أخطاء النظرية الاخلاقية الغربية : القول « بتطور الاخلاق » والواقع أن الاخلاق ثابتة ، وأن الذى يتطور ويتغير هى التقاليد والعادات لأن الاخلاق جزء من الدين لا يتغير ، لاتصالها بالفطرة الانسانية الثابتة على مدى ازمان ، وان التقاليد هى من صنع المجتمع واذلك ففى تتغير وتتغير •

ومن هنا فان الاخلاق الاسلامية : تتسم بسمه الثبات : وثبات الاخلاق من ثبات القيم العليا ، التى قدمها الاسلام فى اطرار واسعة ، ولم يسمح بتجاوزها ، وان أتاح لها فرصة الحركة فى ظل الضوابط

والحدود ، التى جاءت سمحة يسيرة بتقرير عامل الزمن ، ومراعاة الظرف والوسع والطاقة والتوبة .

وهنا تتمثل « وسطية الاسلام » وواقعيته فى ارتباط المطلق بالنسبى والمثالى بالواقعى ، ومن نقطة ثبات الاخلاق ، يتبين الفارق بين الاخلاق والتقاليد ، فالاخلاق ثابتة لانها جزء من الدين الموحى به ، وهى بذلك شطر كيان متكامل ربانى المصدر انسانى الهدف .

أما التقاليد فهى وسائل عارضة من صنع المجتمعات لا من صنع الله ، تختلف وتتغير باختلاف الزمن والبيئة .

مظاهر الثبات :

ويبدو ثبات القيم الاخلاقية فى قواعد الحلال والحرام والخير والشر ، والحق والباطل ، ويتجلى ثبات القيم فى العلاقة بين الرجل والمرأة ، وبين الاسرة والابناء .

ويخضع لقانون الثبات : الانسان نفسه فى طبيعته وتدرجه من الطفولة الى الشباب الى الكهولة ومن ثبات القيم : ثبات حقيقة الموت . وهكذا نجد أن اتخاذ مفهوم النظرية الاخلاقية الغربية فى دراساتنا وجامعاتنا له أثر بعيد فى تخريب النفوس الشابة ، التى تتصور أن هذه النظرية هى حقيقة يمكن اتخاذها مصدرا للسلوك بينما هى فى مجموع فروعها تتعارض مع الفطرة ، وتختلف مع مفهوم الدين الحق ، وان من شأن الاعتقاد بها والتماسها فى التطبيق أن تصل بالانسان الى شئ غير قليل من التمزق والاضطراب النفسى والغربة ، لانه يفصل الانسان عن الفطرة والاصالة .

وشر ما تقدمه هذه النظرية من خطر هو تراخى مفهوم (الالتزام الخلقى) الذى هو فريضة حقيقة من شأنها أن تحقق بناء الشخصية الانسانية على أساس متين وقادر على فهم الحياة والتكامل .

ان أبرز مفهوم الاخلاق في الاسلام : « الالتزام الخلقى » الذى يتمثل فى الدعوة الى اتباع القواعد العامة ، التى أمر الله بها ، مع ترك جرية التصرف والاختيار للمرء فى نطاق التفاصيل ، التى تعرض تبعها لتغير ظروف الحياة •

ومع ذلك فان القانون الاخلاقى فى القواعد لا يدعى أن هناك طريقة واحدة لفهم القاعدة ، أو أن هناك طريقة واحدة لتطبيقها •

ومن مضمون هذه النظرية أنه بالالتزام الخلقى فى مفهوم الفكر الاسلامى ، نجد حلا جذريا للمعضلة التى أثارها الفلاسفة الغربيون ، لانها تقوم على وسطية الاسلام وتكامله وقدرته على الحركة ، دون أن يجنح الى الجمود أو التعصب أو الانحراف ، ذلك أن قوام الاخلاق فى الفكر الاسلامى هو : الحرية والاختيار •

فلا أخلاق بغير حرية ، كما لا تكليف بغير اختيار ، لذلك يقرر الاسلام أن المكره اذا فعل ما يكره عليه له عذره وقد سمي الاسلام (حرية الارادة) : الكسب والاختيار ، وجعلهما مناط التكليف ومدار العمل الخلقى ، ومن حرية الاختيار أن يكون العمل الخلقى متصفا بالطوعية والانبعاث من أعماق النفس ، حتى يكون صادرا عن ارادة طيبة فى حب الخير والحق والفضيلة •

ولعل أخطر ما تردده النظرية الغربية فى الاخلاق : انفصالها عن الدين والدعوة الى أخلاق منفصلة ، وتلك نظرية خطيرة يعارضها الاسلام الذى يقوم مفهومه على التكامل بين القيم ولا يفصلها ، فليس هناك أخلاق منفصلة عن الدين •

ذلك : أن المسؤولية الاخلاقية هى مسؤولية جزاء ، والجزاء من الدين ، فلو تقرر فى النفس أن ليس هناك دين ، فمعنى هذا أنه ليس هناك جزاء ، وهناك لا تكون للاخلاق قيمتها الحقيقية المندفعة من أعماق النفس •

وقد أجمع كثير من الباحثين على أن العالم في العصر الحديث قد تضخم عقله وضعف روحه ، فالاخلاق لم ترتق ارتقاءً مناسباً مع تقدم العلوم ، بل أن الفلسفات فتحت باباً من الوهم في الاستهانة بأخلاقية العلم ، وإن تقدم العلوم لم يضمن تقدم الاخلاق ، ذلك أن الانسان قد أصابته لوثة من الغرور ، نتيجة توسع مجال الكشف والاختراع على الظن بأنه صاحب الفضل فيه «أنما أوتيته على علم عندي» سورة القصص— ولم يدر أنه من عطاء الله تبارك وتعالى ، ومن ثم : فقد أعلن خطأ ونكراً أن البشرية أصبحت راشدة ، وليست في حاجة الى توجيه الدين ، ثم كانت انطلاقة الغرائز واللذات ، عاملاً مؤشراً على فكرة الالتزام الخلقي ، وغلبة مذاهب المنفعة والانانية ، بالإضافة الى عزل الاخلاق والدين عن مجال التربية والتعليم في الغرب ، كل هذا أدى الى عزل الاخلاق عن حركية الحياة والمجتمع . وهذا مصدر « أزمة الانسان الغربي الحديث » .

وفي هذا يقول العلامة « جود » أستاذ الفلسفة الانجليزية في كتابه (سخافات المدنية الحديثة) : « ان المدنية الحديثة ليس فيها توازن بين القوة والاخلاق ، ومنذ النهضة ظل العلم في ارتقاء والاخلاق في انحطاط ، وقد غلب على الفكر الغربي طابع التحرر المطلق في مجال المجتمع والمرأة والفن ، وظهرت الدعوة الى غلبة النزعة الجمالية على النزعة الاخلاقية ، وطغى فكرة الفن للفن » .

ولا شك أن هذه الحركة كانت رد فعل أكيد لمفاهيم المسيحية الغربية في الاخلاق ، هذه المفاهيم التي قامت على أساس الحرمان والرهينة وتعذيب الاجساد بما يعوق الفطرة ، مما خلف انفجاراً طائفاً في الدعوة الى التحرر ، فالتحلل ، وظهور مذاهب تجدد الدعوة الى الاباحة الاخلاقية « الابيقورية القديمة » بحسبان أن اللذة الجسمية هي الغرض الاسمي من الحياة وإن العقل والتفكير هي أكبر معول في هدم الانسانية .

وكذلك كان ذبوع نظرية (فرويد) في السلوك الجنسي ، وظهور

الوجودية ، بمثابة رد على تحدى الحربين العالميتين الاولى والثانية ، وكل المذاهب الفلسفية تظهر في مواجهة تحديات ، وهي تحديات متموجة بالنزعة الإبيقورية ، تظهر في مواجهة النزعة الرواقية ، واللاحاد يظهر في مواجهة الجمود ، والتحلل يظهر في مواجهة الرهبانية ، والزهد يظهر في مواجهة الترف ، ويرى الباحثون أنه لا توجد نظرية طبيعية تظهر من فراغ .

ولقد حاولت هذه المذاهب اطلاق حرية الانسان اطلاقا كاملا ، والسخرية من (الالتزام الخلقى) بحسبان أن المجتمع عدو للانسان ، وقد قامت هذه النظرية على أساس [القلق ، الضياع ، العدم] وكلها نظريات وفلسفات مرتبطة بواقع المجتمع الاوربي وظروفه بين الحربين العالميتين وبعدهما .

ومن هنا نجد أنها لا تصلح أساسا للثقافة العامة أو الدراسة الجامعية ، من حيث أنها تمثل فكر أمة أخرى في ظروف أزمة اجتماعية وأخلاقية وانسانية ، ومن حيث أنها لا تتصل بقيم الفكر الاسلامي ، وتعتمد على المفهوم المادى . فضلا عن معارضتها للفطرة ، ومن حق المسلمين أن يقدموا وجهة نظرهم في الاخلاق والنفس جميعا .

ذلك أن الفكر الاسلامي في مفاهيمه الاساسية يستطيع أن يواجه الحياة الحديثة وتحديات الحضارة ، على خير مما يواجهها به الفكر الغربى ، لانه يقوم على فكرة متكاملة جامعة بين الروح والمادة ، وليست مادية صرفه ، ولأنها تتصل بالفطرة الانسانية ولا تتعارض معها ، ولأنها ربانية المصدر ، وليست بشرية من أهواء الناس وشهواتهم ، فان من شأن معطيات المفهوم اخلاقي الاسلامى : أن يحفظ الشخصية الانسانية سليمة من عوامل الاضطراب والقلق والضياع والتفسخ ، ويعطيها الى ذلك قدرتها على الصمود أمام الاخطار ويمنحها الارادة القادرة على التغيير .

لقد قدم الاسلام للاخلاق مفهوما جامعا عميقا ، يقوم على أساس

الربط بين الدين والاخلاق • فالاخلاق معرفة وعمل ، والمبادئ الاخلاقية أساس الواقع تستهدف تكوين وازع داخلى لمقاومة دافع الشر ، وهى ليست مجرد وعظية نظرية ، بل هى مبادئ ايجابية محكمة بنيت على تقوم على الالتزام والتقوى •

ولقد عادل الاسلام بين الانطلاق والانضباط ، وأعطى المسلم « الاستطاعة » : « فاتقوا الله ما استطعتم » آية : ١٦ التغابن) ورفع عنه القسروالاضطرار والخطأ : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم » الاحزاب : ٥ •

وفى هذا المجال يدعو مفهوم الاخلاق الاسلامى الى : اتقاء الشبهات ، وأعلن أن الحلال بّين والحرام بّين وأن بينهما أموراً مشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، وأن البر ما اطمأنت اليه النفس والاثم ما حاك فى الصدر ، وخشيت أن يطلع الناس عليه •

وهكذا يحتضن الفكر الاسلامى مفهوما غاية فى الوسطية والمرونة والاعتدال والتكامل •

وبالنسبة للالتزام الخلقى ، فهو يقضى باتباع القواعد العامة مع ترك حرية التصرف والاختيار للمرء فى نظام التفاصيل تبعاً لتغير الظروف ، وتلك قاعدة مرنة فى الاختيار والتصرف وفيها جانب الاجتهاد الشخصى •

اختلاف بّين :

ومن هذا كله نجد أن مفاهيم النفس والاخلاق الاسلامية تختلف اختلافًا واضحًا وعميقًا عن مفاهيم الفكر الغربى ، التى يدرسها أبناءنا

واخوتنا في عديد من الجامعات والكليات ، تحت اسم غرويد وسارثر وماركس
ودور كايم وديوى •

ولا مانع من تدريس هذه النظريات على أنها نظريات وفروض
تقبل الخطأ والصواب وأن للإسلام ازاءها وجهة نظر ومفهوما واسما
عريضا مستمدا من الفطرة وأقرب الى العلم والاصالة منها جميعا •

(١) الايتورية : نسبة الى الفيلسوف الاغريقى ابيتور الذى كان يقول
بحرية اللذة .

(٢) الرواقية : مذهب مناقض للايتورية .

الفصل الثانى عشر

حضارة التوحيد وحضارة الوثنية

ان مفهوم « الحضارة » المطروح فى مناهج الدراسات الجامعية والمدرسية ، يدور كله فى فلك الحضارة الغربية ويقوم على مجموعة من المسلمات التى يراد فرضها على العقلية الاسلامية والفكر الاسلامى ، على نحو يخلق التبعية العقلية والاجتماعية ، ويستهدف القول فى مجموعه : بأن هناك حضارة واحدة عرفتھا البشرية ، بدأت فى أرض اليونان وانتهت اليوم فى الحضارة الغربية ، وان كل حضارة ظهرت بين ذلك فهى امتداد لهذه الحضارة وجزء منها ، وأن الحضارة الاسلامية ما هى الا رافدة من روافد الحضارة الغربية ، وهو غير الحق ، وقد حفلت الدراسات المختلفة المقدمة فى مناهج الدراسة بالثبتهات التى تحاول أن تغض من شأن الحضارة الاسلامية ، وتوجه اليها الاتهامات والشكوك .

فهم ينسبونھا الى العرب مرة وينسبونھا الى انها نتاج الفكر اليونانى أو القانون الرومانى مرة أخرى .

طرحت تلك المفاهيم التى تغض من شأن الحضارة الاسلامية فى أفق كل الدراسات والمناهج ، فى دراسات القانون ودراسات الفلسفة ، ودراسات العلوم ، فى محاولة لانكار فضل العرب والمسلمين والقول بأنهم أقاموا حضارتهم على فلسفة اليونان وأنهم لم يقدموا شيئاً للبشرية .

وقد وضعت جميع النصوص التى كتبھا المتعصبون على الحضارة الاسلامية بين أيدي الشباب المسلم ، من أمثال ما كتب رينان وجلدسيهر وماسنيون ، بينما حجبت الكتابات المنصفة التى كتبھا جوستاف لوبون وكارليل ودرابر وغيرهم .

بل لقد وصفت هذه المنصفة بالسذاجة والخلط لأنها تقول الحقيقة وتحول دون هدف الاحتواء الذي يفرضه التغريب .

حضارة التوحيد :

وقد انطلقت ابحاث الحضارة المطروحة في أفق الفكر الاسلامي من منطلق الاستعلاء باللون أو الجنس ، تقول هذه النظرية : ان هناك حضارة عالمية واحدة ، وان العرب والمسلمين كانوا حلقة من حلقات هذه الحضارة .

والواقع أن الحضارة الاسلامية — بالرغم من أنها أخذت الخيوط الأولى لما كان معروفا في العالم القديم من علوم — فانها ابدعت حضارة جديدة لها ذاتيتها الخاصة وطابعها المميز ، وان الاسلام قد قدم مفهوما جديدا « للتحضر » يختلف عن مفهوم « المدنية » المادى المرتبط بالعمارة والصناعة والرياضيات والفلك والجغرافيا ، ذلك الذي قدمه الاسلام ، انما هو بمثابة الوعاء الذي تصاغ فيه المدنية من بعد وتصهر فيه العلوم ، ذلك هو التوحيد والايمان بان الله تبارك وتعالى هو الخالق والزارع والصانع ، وهو القائم بقدرته من وراء الكون كله ، ساعة بعد ساعة ولحظة بعد لحظة ، وأنه هو الذي أنشأ هذا الكون من العدم وأنه أقام له قوانين ونواميس يتحرك من خلالها الى أجله المحتوم .

وقد اطلع الله تبارك وتعالى البشرية على بعض هذه القوانين والنواميس حين جاءت رسالة الاسلام بالقرآن تضع هذه المفاهيم بين يدي الانسان لينتفع بها في سعيه الى استكناه الكون واستخراج ثروات الأرض ، وان هذه الدعوة التي وجهت الى البشرية بالنظر الى السموات والأرض .. والتفكر فيهما : كانت منطلق « التجريب » الذي عرفه المسلمون وحاكموا اليه كل الفكر القديم الذي عرفته حضارات بابل وفارس والفراعنة واليونان والرومان ، فصححوا اخطاءهم ورفضوا ما كان منه قائما على السحر والخرافة ، وحولوا خلاصة هذا التراث القديم الى مادة خام صنع منها

ومن غيرها « المنهج العلمى التجريبي » الذى قدمه العلماء المسلمون للبشرية .

هذا فى جانب العلم ، أما فى جانب الحياة فقد قدم الاسلام مفهوم المساواة والاخاء الانسانى ووحدة البشرية كلها لادم ، وادم من تراب وأنه لا فضل لعربى على عجمى ولا لابيض على أسود الا بالتقوى وبذلك شجب الاسلام النزعة العنصرية وقضى على مفهوم العبودية الذى قامت عليه حضارات الفراعنة والفرس والرومان .

هذا هو اطار الحضارة الذى اقامه الاسلام لتصاغ فى اطاره المدنية المادية القائمة على العمارة والصناعة والرياضيات والفلك والجغرافيا ليكون ذلك كله خالصا لله (تبارك وتعالى) مستهدفاً إقامة المجتمع الربانى القائم على العدل والرحمة والكرامة .

ومنذ جاء الاسلام فان حوض البحر المتوسط قد انشطر الى حضارتين : فقد برزت حضارة لها طابعها وذاتيتها وتشكيلها الروحى والفكرى والنفسى والاجتماعى ومن خلال الاسلام قامت حضارة لها مضمونها الاجتماعى ولها نظريتها الخاصة ولها أسلوبها فى المعرفة ولها منهجها العلمى التجريبي الذى قدمته الى البشرية كلها ثم قامت عليه الحضارة العالمية الحديثة .

هذا التميز الخاص بالحضارة الاسلامية قد عرفه رجال تشؤوا فى اطار الحضارة الغربية ، وقارنوها بالحضارة الاسلامية :

يقول الاستاذ ليوبولد غايس : « ان الحضارات المختلفة قامت ونشأت رويدا رويدا من تراث الماضى ، بما حوى من ضروب الرأى وتيارات الفكر ، التى استغرقت فى تبلورها الى شكلها الخاص وكيانها المحدد أمادا طويلة من الزمن ، وقد انفردت حضارة الاسلام وحدها بانبجاثها الى الحياة دون سابق عهد أو انتظار ، وقد جمعت فى فجر نشأتها كل المقومات الاساسية

لحضارة مكتملة شابة ، فقامت في مجتمع واضح المعالم له نظرتة الخاصة الى الحياة ، وله نظامه التشريعي الكامل ، وله فهمه المحدد لعلاقات الافراد بعضهم ببعض داخل هذا المجتمع •

ولم يكن قيامها ثمرة تقاليد زخر بها الماضي ولا وليدة تيارات فكرية متوارثة ، ولكن هذه الحضارة كانت وليد حادث تاريخي فريد ، هو تنزيل القرآن الكريم وكان مردها الى رجل فذ في التاريخ هو « سيدنا » محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — •

فلقد أدرك الذين آمنوا بالاسلام واتبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم ، وصدقوا بالقرآن فاتخذوه قاعدة حياتهم ، ان الدين الجديد الذي جاءهم به القرآن : يتطلب منهم هجرة بائنة الى ما جاءهم به • عما توارثوه من عقائد الحياة وما الفوه من مناهج السير فيها ، فكان قبولهم لما جاء به بداية حدث جديد في حياة البشر وتاريخهم •

اذا أنهم أدركوا أن الاسلام وقد جاء نظاما شاملا للحياة قد اغتتح حقا حضارة جديدة ، وما كان دوره ليقتصر على التمهيد لغيره من الحضارات والارهاص بها فتبينوا كما تبين من جاء بعدهم : أن مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إيذانا ببداية عهد جديد بكل ما ينطوى عليه البدء من حقائق ومعان •

ولن يفهم من هذا أن الاسلام قد قطع كل صلة بين حضارته وبين الماضي ، فهذا فهم لا يقبله العقل أو يستسيغه لان كل كائن عضوي لا يمكن أن يوجد دون اسلاف وأباء ، فلن ندهش اذن حين نرى أن ما جاء به رسول الله « صلى الله عليه وسلم » على ما هو عليه من جدة في النظر الى الكون والحياة ومن استحداث نظام اجتماعي كامل يتضمن كثيرا مما جاءت به الاديان ويتحدث عن كثير من الفضائل الخلقية التي كانت لدى من سلف قبله ، ولم يتنكر لهذه الفضائل والحقائق أحد من أهل الاسلام ، بل لقد كان القرآن ذاته أصرح ما يكون اعترافا وتسليما •

والقرآن الكريم هو الذى دعا الى العلم والعقل والبرهان ، فحقق قيام « منهج التجريب » وهو الذى دعا الى وحدة البشرية والاخاء الانسانى فحقق تحرر الانسان من عبودية الاباطرة والاكاسرة ، وللقرآن هو الذى دعا الى التوحيد فحقق تحرر العقل الانسانى من الوثنية وعبادة الاحجار .

هذا هو التميز الواضح الذى يقطع بأن حضارة الاسلام لم تكن حلقة فى حضارة سابقة أو لاحقة ، ومنه يتكشف زيف الدعوى بالقول بأن العرب والمسلمين لم يكونوا فى وجودهم التاريخى الضخم الذى انفردوا به الف سنة كاملة على الاقل . (منذ بزوغ الاسلام الى ظهور النهضة الاوربية الحديثة عام ١٥٠٠ م) الا جزءا من حضارة البحر المتوسط ، أو مرحلة من مراحلها ، بل كانت حضارة الاسلام « وجودا ذاتيا قائما بالحق » شطر البحر المتوسط ولا يزال يشطره الى حضارتين .

ولا ريب أن الحضارة الغربية الحديثة ، حين أخذت منهج التجريب الاسلامى ، قد سجلت على نفسها أنها تنطلق من حيث قامت الحضارة الاسلامية فى هذا الجانب وحده ، دون أن تأخذ بمفهوم الاسلام المتكامل فى الإخاء البشرى أو صياغة العلم والحضارة فى « بناء المجتمع الربانى » الذى دعت اليه أديان السماء ورسم الاسلام منهجه كاملا .

وهذا الفهم الواضح الصريح يرد زيف دعاوى الفهم الذى اعتمدته المناهج الدراسية والجامعية والذى يقول (الحضارة العربية) ولا يقول (الحضارة الاسلامية) هى حضارة سطحية ظاهرية انتجتها عقول أوربية ومنابع يونانية فارسية هندية وحيثما وجد الانسان ظاهرة من ظواهر الحضارة فى البلاد العربية فلا بد من ارجاعها الى عقلية أرية وانتاج غير سامى .

وقول ماسينيون : ان كبار رجال الحضارة الاسلامية لم يكونوا ذوى دم عربى محض بل موالى مستعربين ، قول غير دقيق ، وقد رد كثير من كتاب العرب والمسلمين على هذه الاتهامات .

يقول الدكتور جواد على : ان هذه النظريات لا قيمة لها أبدا ، اذا لم تدعم بالنصوص والبراهين ، كما أن الاستشهاد بحادثة أو رواية لا يتخذ حجة للحكم به على أمة ، وانى أستطيع أن أجعل الامة الجرمانية أمة همجية بربرية خاملة لم تنهض الا اخيرا بالاستناد الى النصوص الجرمانية نفسها ، وعن طريق مجموعة من المصادر والمنابع عن التاريخ الجرمانى •

ويستطيع كل مؤرخ أن يفعل ذلك فى تاريخ أى أمة ، وأعتقد أنه لو كانت الامة العربية قوية فى الوقت الحاضر لكانت النظرية على عكس ذلك تماما ، ويقول : ان الحضارة الاسلامية ليست حضارة عنصرية ، وقد اشترك فيها كل الذين اعتنقوا الاسلام بصرف النظر عن اجناسهم ، فان القرآن واللغة العربية التى شكلت الفكرالذى صنع الحضارة ، ولقد جاءت حضارة الاسلام بعد حضارات العبودية الفارسية والفرعونية والرومانية ، وعبادة الفرعون والقيصر وكسرى لتتقدم للبشرية الاخاء البشرى والعدل والرحمة ، وترفع العبودية عن العقيدة وعن علاقة الانسان بالانسان •

وبذلك فهم يختلف أشد الاختلاف عن الحضارات اليونانية وغيرها وعن الفكر اليونانى وغيره •

ولكن هذه الحضارة استطاعت أن تصهر فى بوتقتها ما كان موجودا فى العالم من ومعارف بعد أن امتحنتها واستصفتها وادخلتها فى بوتقة « التجريب » الذى هو المنهج الذى صنعه المسلمون ، وقدموه للبشرية وقامت عليه الحضارة المعاصرة ، وان ما وجده المسلمون لدى اليونان لم يكن سوى نظريات بعضها صحيح وبعضها خاطئ ، فضلا عن الخرافات والاساطير التى استبعدها المسلمون تماما •

ومن ناحية أخرى فان منطلقات الحضارة الاسلامية وغاياتها تختلف عن منطلقات الحضارات السابقة عليها من فرعونية وفارسية ويونانية وما تلتها من حضارات الغرب الحديثة •

ولذلك فان محاولة فرض مفاهيم عامة وقوانين شاملة للحضارة البشرية ، تحاكم اليها الحضارة الاسلامية ، من شأنه أن يكون قاصرا ،
لانه يعجز عن استيعاب ذلك التباين الواضح في المنطلقات والغايات
التي يمثلها الاسلام :

أولا : في مسألة التقدم :

فالاسلام يفهم التقدم على غير ما تفهمه الحضارة الغربية ، وهو
لا يقر التقدم المادى الخالص ، ولا يرى تضحية القيم الاساسية من
أجل هذا التقدم المادى ، ويقرر الاسلام ان الرقى مادى وروحى معا ،
وان كليهما لا يعارض الآخر ، وانهما وجهان للحياة الانسانية يتكاملان
معا ولا يصلح احدهما دون الآخر •

وان التقدم الاسلامى مفهوم متكامل أساسه « انسانى » جامع
للمعنويات والمادة ، والتقدم المادى وحده ليس في نظر الاسلام تقدما
كاملا ، والاسلام دعوة الى التقدم في اطار الاسلام والايمان وسيادة
الانسان على الكون تحت حكم الله •

ثانيا :

ان طابع الحضارة الاسلامية اخلاقى في أساسه ، وان ثمة ارتباطا
وثيقا بين الحضارة وبين الايمان بالله ، بينما لا ترى الحضارة الحديثة
أن « الاخلاقية » أساس من أسسها ، وتستبدل بها (النفعية) والتبرير
القانونى الذى قدمه ميكافيلى ونظرية الذرائع لديوى •

ثالثا :

يقوم المفهوم الاسلامى للحضارة على التكامل ، بينما تقوم الحضارة
الغربية على مفهوم تجزئة الكون والطبيعة « والفصل بين العالم وصانعه » •

رابعا :

تقوم الحضارة الاسلامية على مفهوم العدل الشامل للبشرية
كلها ، بينما تقوم الحضارة الغربية على مفهوم التحيز بالعدل للجنس

الابيض وحده ، مع النظر الى باقى الامم على انها أقل درجة من ناحية
العنصر أو الكفاية •

خامسا :

فصل الاسلام بين العقيدة التى يجب احترام حريتها عند الآخرين ،
وبين المصالح الدنيوية التى تعتمد على الكفاية والامانة ، والتى لا تميز بين
دين ودين ، فى سبيل التعاون ، لتحقيق المثل العليا الانسانية بينما
لا تعترف الحضارة الغربية بعقائد ولا حريات الآخرين •

سادسا :

يقوم مفهوم الاسلام على « الاخاء البشرى » بينما يقوم مفهوم
الحضارة الغربية على مفهوم العنصرية والصراع بين القوميات ، ويقيم
مفهومه الاستعمارى على أساس اباداة الاجناس المقيمة ، واستبعاد
الاجناس المهاجرة •

وقد أشار كثير من الباحثين الى : أن عقلية الرجل الابيض مسممة
بالتعصب العنصرى ، والتفوق العنصرى ، ورسالة الرجل الابيض ، وان
الثقافة الاوربية لم تتخل قط عن نصرانيتها وتعصبها •

ومن أخطر مفاهيم الحضارة الغربية انها رفضت مزاحمة المسلمين
لها فى أوربا فقالت : ان المسلمين يجب أن ينتهوا عند جبال البيرنيه •

يرفض المفهوم الاسلامى للحضارة الكثير من مقاييس الحضارة
الغربية التى لا تتفق مع الفطرة أو القيم أو واقع الحياة :

١ — يرفض الفكر الاسلامى فكرة التفوق لبعض الامم ، وهى
التى تهدف الى فرض تفوق موهوم للجنس الابيض أو للجنس اليهود ،
والمعروف ان هذه النظرية قد تعين فسادها وزيفها ، والحقيقة العلمية
أن الاجناس كلها شاركت فى بقاء الحضارات الانسانية •

٢ — يرفض الفكر الاسلامى فكرة التفسير المادى للتاريخ ويرى

أن الاقتصاد عامل من عوامل متعددة تصنع التاريخ ، وان للاحداث التاريخية جانبين مادي وروحي ، وقد تبين خطأ القول بأن الحضرارات والحروب والمجاعات وقيام الدول وسقوطها ، يرجع الى العوامل الاقتصادية المجردة أو صراع الطبقات •

٣ - رفض الفكر الاسلامى الصراع بين ايديولوجية الحرية وايديولوجية العدل ، حيث قدم الاسلام مفهوما جامعا للحرية والعدل ، بعيدا عن انحرافات الرأسمالية التى تؤله الفرد ، والماركسية التى تؤله الجماعة •

ان الدراسة الاصلية للعلاقات بين الحضارة الغربية وبين الحضارة الاسلامية ، تكشف عن ان النفوذ الاجنبى (استعماريا وصهيونية وماركسيا) حاول أن يتخذ من أدوات ووسائل الحضارة الغربية سلاحا لهزيمة المسلمين والحيلولة دون نهضتهم أو الوصول الى مكانهم الحق ، ووجه كل اسلحته الحربية والعلمية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية الى العالم الاسلامى ، على تعبير أحد رجالهم — الفريد كانتول سميث بقصد اذلاله وتحقيره وأثعاره بالضآلة والخنوع كما حاول أن يتخذ من سلبيات الحضارة عاملا من عوامل الهزيمة للمسلمين •

بل أنه حجب عن المسلمين كل ايجابيات الحضارة وخاصة العلم والتكنولوجيا واغرق العالم الاسلامى فى جوانب الفساد والتحلل والمغريات وفى مقدمتها « الخمر » •

يقول هنرى دى كاسترى : أن أحد سلاح يستأصل به العرب والمسلمون ، وأمضى سيف يفتك بهم هو الخمر ، وقد جربنا هذا السلاح على أهل الجزائر فأبوا أن يتجرعوه ، فتضاعف نسلهم ، ولو قبلوه لأصبحوا أذلاء ، وكذلك سلطت الحضارة الغربية الربا على المسلمين فاستأصلت ثرواتهم وامكانياتهم الاقتصادية •

ان من اخطر مقاتل الحضارة الغربية ، استعلاء عناصر التحلل

والانطلاق من اطار الضوابط ، وكذلك استعلاء فكرة الحرب والابادة .

يقول رومان رولان : ان هذه الحرب نزاع دنس تتزوج أوروبا المجنونة وهى تسير الى حتفها كهتلر الذى قضى على نفسه بيديه ، أن القتال لم يتوقف يوما واحدا ، منذ نشبت الحرب الاولى عام ١٩١٤ .

وطبيعة الحضارة الغربية طبيعة حربية واتجاهها الى انشاء وسائل الحرب أكبر من اتجاهها الى وسائل العمران وقد استغلت فيها سيطرة الآلات .

يقول هنرى فورست : ان عصر الآلات هذا نعيش فيه كى يظل كشبح الوحش بتهديد الهائل على طريق الرقى الانسانى . وقد صرنا جميعا منقسمين الى طوائف وأصبحت شخصيتنا تخبو وتختنق وتتضاءل الى حد عظيم .

وان الفكر الاسلامى ليرفض هذه الانحرافات التى تمر بها الحضارة الغربية ، والتى توردها مورد الهلاك ، فقد حملت الناس على الانصراف عن المعنويات الى الماديات ، ودفعتهم الى ذلك الاندفاع وراء تملك الاشياء والاستهلاك ، وهى نفس العوامل التى أدت الى سقوط الامبراطورية الرومانية . كذلك ضعف الروح الدينية عند الافراد والجماعات .

وقد بدأ هذا بعد الحرب العالمية الاولى وعلى اثر ويلاتها ، وظهور طابع الوحشية الذى القى ظلالة كثيفة على روح العدل الانسانية ، وبعد ذلك ضعف نظام الاسرة وتداعى صرحها ، وضعفت الروابط الاجتماعية لنقص القوانين وعدم وفائها بحاجات التضامن والتكافل الاجتماعى ، والاشتراكية المتطرفة تحت ستار الديمقراطية الكاذبة .

لقد حرص المسلمون فى مفهوم الحضارة على الحفاظ على « الذاتية الاسلامية » والشخصية الحضارية ، والتمسك بالاصالة والحيولة دون الانصهار فى اتون العالمية أو الاممية ، أو السقوط فى مصيدة الاحتواء الخارجى ، ولم يكن شغل المسلمين الشاغل على مدى التاريخ انشاء

شخصية حضارية ، بل كان هدفهم حماية الشخصية الاسلامية الحضارية من ان تذوب وتتلاشى في شخصيته حضارية أخرى ، ولقد كانت صحيحة قادة الفكر الاسلامي والحضارة الاسلامية أن المسلمين ليسوا في حاجة الى أن تصرعهم هذه الحضارة المادية ، وليس من مصلحتهم أن يذوب وجودهم في خضمها كذلك فان أبرز أخطاء المفهم الغربي محاولة محاكمة الاسلام الى واقع المجتمع الاسلامي المعاصر والخلط بين الفكرة الاسلامية الربانية وبين التطبيق البشري المتناقض ولا ريب أن المنهج العملي الاصيل يفرق تماماً بين الامرين : بين حكم الاسلام في شئ وموقف المسلمين منه : أى الفرق بين قوانين الاسلام وتطبيقات المسلمين •

وتختلف الحضارة الغربية عن مفهوم الحضارة الاسلامية في أمور اساسية ورئيسية :

أبرزها ايمان الحضارة الغربية بالربا ونسبية الاخلاق والتطور المطلق ، بينما يقيم الاسلام حضارته على الاخلاق الثابتة باعتبارها جزءا من الدين لا ينفك عنه ، ورفض الربا رفضا تاما ، والايمان بالتطور في إطار جوهر الثبات •

وللإسلام موقفه من المرأة وعملها واختلاطها وارتباطها بالمجتمع ، وله موقفه من مفهوم الترف والرفاهية ومن مفاهيم اللباس والزى ، ومن التفرقة بين رجولة الرجل ، وأنوثة المرأة ومن تعرية الجسم وستره ، ومن مختلف قضايا الخمر والميسر والاباحية •

والاسلام يرفض هذه الجوانب من الحضارة الغربية التي تقوم على وثنية الترف والتحلل والتعرية ، ويفرق بين الحضارة وبين العلم المتحرر •

ويرفض الاسلام الاتجاه الذي يحاول به بعض الباحثين استعمال مفاهيم الاسلام بتأويل النصوص أو تبرير الحضارة في وضعها الحالي ،

فالإسلام لا يقر الواقع الفاسد ولكنه يطالب الحضارة بأن تعدل نفسها لتتفق مع قيمه وتتحرك في إطاره .

إن الحضارة الغربية قد خرجت عن نوااميس الحضارات الصالحة للبقاء ، فقد عقت الفطرة واستعملت العلم في سبيل الإباحة والقتل الجماعى ، وقد عجزت عن أن تتجاوب مع تماسك القيم في علاقات الأمم والشعوب ، وهى تتجه الآن الى الانهيار والدمار .

لقد بدأت الحضارة الغربية دورتها منذ أوائل القرن الخامس عشر حين كانت الحضارة الاسلامية قد أوشكت أن تبلغ نهاية الدورة التاريخية لها ، فحملت منذ ذلك الوقت الى اليوم في سبيل هدفها الذى اتخذته عنوانا لها « الرغاهية » وقدمت في هذا المجال معطيات باهرة لاسعاد الانسان الغربى مهما كانت الوسائل ، ولكنها واجهت التحديات الخطيرة التى أدخلتها مرحلة الازمة لعدة أمور :

أولا : لأنها ربطت الحضارة بالاستعمار ، وجعلت من الشعوب والأمم النامية مصدرا لخدماتها وسوقا لمنتجاتها وقد جرى ذلك في كل حركات الاحتلال والغزو والسيطرة السياسية والعسكرية .

ثانيا : لأنها عزلت نفسها عن المفهوم الانسانى الكامل الجامع بين الروح والمادة .

ثالثا : لاستغلالها الجنس الأبيض صانع الحضارة الذى لا يقهر (في تقديرهم) وتجاهلها الدور الذى قامت به الحضارة الاسلامية في بناء المنهج التجريبي .

رابعا : لغلبة الطابع المادى الصرف وأسلوب التعامل الربوى اليهودى والسيطرة الاقتصادية والغزو الفكرى .

خامسا : معاملة الاجناس المختلفة معاملة عبودية ، واحتجاز الكرامة الانسانية والحرية والرفاهية لاهلها وحدهم .

وقد شهد بهذا الانحراف كثير من الباحثين الغربيين المنصفين : تقول الكاتبة الفرنسية « مدام سنت بوانت » :

« انى اتهم المدينة الغربية بأنها قصرت فى القيام بالمهمة التى ترعى أنها ألقيت على عاتقها فى الاجيال الاخيرة ، أعنى المهمة التى ترمى الى نشر تعاليم الانسانية وتعميمها على وجه الأرض بحيث تؤدى الى الاتحاد .

ويمكن للانسان أن يعبر عن هذه المهمة العظيمة بوسيلتين لا غيرهما وهما وسيلة حب الذات ووسيلة حب الغير ، أما الغرب فانه لم يقع اختياره لها جريمة ، وكان ذلك سبب ضياعه وأضمحلال نفوذه ، لأن الوسيلة التى لجأ اليها ملعونة ، أن الانانية تقضى على الخير ، وتلتهم كل بر ، لقد أراد الغرب أن يوجه العالم ولكن تحت سلطانه ومصاحته ، والعالم لا يساس الا بالعدل ، وبالحب والاخاء ، وبرد الحقوق الى أهلها .

ولكن الغريب لجأ الى القوة الفاشمة واعتمد على القوة وحدها وعبث بالشرائع الدينية وخالف تعاليم المسيح عيسى عليه السلام الذى أمر بمحبة الناس جميعا .

لقد أضاء « الشرق » دياجير أوروبا بنور تعاليمه وما هذه العلوم التى يفخر بها الغرب الا من علوم الشرق ، وليس الذى يحجب النور عن الانظار هو مدينة الشرق القديم ، بل الوثنية الغربية ودين القوة وحب الذات والانانية التى يعمل بها الغرب ، لقد اختار الغرب الرذيلة على الفضيلة ، وانه بالتجائه الى الوسائل التى لا تعرفها الانسانية فقد أثبت أن مدينته فشلت .

ويعنى هذا أن الحضارة الغربية انحرفت عن طريق الاصاله ، حين

عجزت أن تتحرك حركتها داخل اطار الربانية والالتزام الاخلاقى وتقدير مسئولية الانسان وجزائه ، ولقد عجزت عن المحافظة على القيم الانسانية للحضارات ، فهمى قد قامت أساساً على المادية ثم تطورت مفاهيمها فى ظل عوامل ذات فاعلية الى تغليب مفاهيم اطلاق الغرائز ، وتقدير « حيوانية » الانسان ثم اندفعت الى تقرير الحرية على النحو الذى حطم كل الضوابط والقيم والحدود التى من شأنها أن تحمى الوجود الانسانى عن أن يدمر نفسه أو يدمر مجتمعه •

ولعل « الدوس هكسلى » حين يصور هذه الزاوية يكشف عن حقيقتها فى وضوح حين يقول :

ان الحضارة قد دفعت الناس الى التمرد على حياة الروح .
والاندفاع وراء المادة وقصرت جهودهم على المتع والرغبات ، وأعرضت بهم عن المثل العليا •

وان اندفاع العالم الى الاستمتاع قد شاع فى أقوال المؤلفين ، والشعراء والمثليين فى سبيل الدعاية للحياة المستهتره والاباحية ، وقد بالغوا فى مدح الحرية والتوسع فيها ، حتى أصبحت مردولة مبغوضة كالسم الذى ينقلب داء بعد أن كان دواء •

وان المثل العليا حقيقة زاهية لا شك فيها ، لأنها ضرورية للعالم .
وهى الوسيلة الوحيدة للقضاء على الفلسفة المادية التى أعجب بها هواة اللذات والباحثون عن مسرات الحياة بأنواعها ، وان النفوس البشرية لتضيع فى سبيل هذه اللذات وتفقد الثقة بالفضائل ، وقد أجمعت أرقى العقول فى سائر الأزمنة والامكنة على أن غاية الانسانية هى السلام والمحبة والعدل ، ومن المحبة الاخوية نشأت فكرة الوطنية ، وهى فكرة اذا لم تفهم على حقيقتها جلبت الشقاء على جميع الاوطان » •

ان الفوارق العميقة بين وجهة الحضارة الغربية ووجهة الحضارة

الاسلامية ، تفرض على المسلمين ان يواجهوا دراسات الحضارة المطروحة في أفق الفكر الاسلامى بحذر شديد ، لأنها تحاول خداعهم عن حقيقة مفهوم الحضارة الاسلامى : ان أخطر انحرافات الحضارة الغربية في مفهومها هو ما يغلب عليها من اطلاق الشهوات وما تحمله من هوى في مواجهة شرعة الحق ، وما تؤمن به من استعلاء على العناصر الملونة ، وهى تطرح في آفاق الأمة — التى كانت موضع نفوذها بالاحتلال أو بالسيطرة الاقتصادية — مفاهيم تستهدف تدمير قيمها وقواها المعنوية ، وأفساد شبابها وتبديد ثرواتها بالترف والانحلال لتظل الأمة الاسلامية عاجزة عن امتلاك ارادتها واقامة منهجها الحق •

وقد جاء من دعاة الحضارة الغربية من قومنا من يدعون الى تقبل الحضارة الغربية خيرها وشرها ، وما يحمد منها وما يعاب ، وتلك دعوة باطلة مسمومة مردودة على قائلها ، فالمسلمون لهم مقاييسهم في فهم الاقتباس والنقل من الحضارات والثقافات ، وهم يرفضون هذه الدعوة الى احتوائهم والسيطرة عليهم وتذويهم في أتون العالمية الاممية بينما هم يؤمنون باخلاقية الحضارة وربانيتها •

وقد جعل الاسلام للاخلاق المكان الأرفع عناية ، وتعتبر مكارم غاية الدين الحق ، وثمره لوسائله المختلفة وقد عمد الاسلام الى حياطة هذه الضوابط بتحريم ينباع الثلاثة للشروع : الخمر والميسر والزنا تحريما لا هوادة فيه ، مع ايجابية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر •

واباح الاسلام لكل انسان أن يستعمل حقه الطبيعى في كل ما لا ينافي القانون العام ولا يجافى ناموس الاخلاق أو ما علم من الدين بالضرورة •

ويقرر الاسلام أن العلم وحده لا يكفى لوضع حد لشروع العالم وآثامه ، والعلم وحده لا يكفى للخلاص من الصعاب المحيطة به من كل

جانب ، وان الحضارة يجب أن تقوم على المعنويات وتوفق بين العلم والروح ، كما تلائم بين العقل والقلب ، والحياة لا تكون آمنة يسودها رحمة وسلام اذا اعتمد العلم هذه الأوضاع •

يقول الدكتور قدرى حافظ طوقان :

« لقد استغل العلماء العلم بعيدا عن قوى الروح والقلب ، فأعلوا من شأن العقل والعلم علوا كبيرا ، وحكموا العقل في القلب ، كما حكموا العلم في الدين ، فنتج عن ذلك ما نراه من فوضى خلقية وحروب طاحنة رهيبية ، فاستأسدت الغرائز ، وأسرفت المطامع ، فإذا آلة العلم تتجه نحو التدمير والتخريب ، والفتك والتقتيل ، حتى أصبحت القوة مقياس تقدم الأمم وعظمتها •

والمسلمون لا يقبلون تغريب الحضارة بحجة غلبة الغرب وسلطانه في العصر الحديث فان هذا الغلب هو مرحلة مؤقتة لن تستمر ، لأنها لا تستمد وجودها من الحق ، ولأنها تخالف الفطرة وتعارض سنن الكون والحضارات ولذلك فانها لن تلبث أن تسقط وهي تمر الآن بمرحلة « الأزمة » •

ولقد أشار كثير من الباحثين الى هذا المعنى « لو أخذنا بمقياس الغلبة في تقويم الحضارات لاختلت موازين القيم ، لأننا سنحكم بالفضل لكل غالب مهما كانت حضارته ، وقد رأينا شعوبا مغلوبة . حكم لها العلماء والمؤرخون بالفضل على الأمم الغالبة ، كذلك فان الحضارات الانسانية لا تقاس بالتقدم الحربى والعسكرى . وانما تقاس بما تضيفه الى البشرية من قيم التقدم والرقى ، ولن ينخدع المسلمون بما فرضه الاستعمار من قيم هذه الحضارة •

وان أبرز وجوه التعارض بين هذا المفهوم الذى يدعى اليه المسلمون والعرب وبين مفهومهم الاصيل ، أن وجهة النظر الوافدة تستمد منطلقها من نظرة مادية خالصة لا يعرفها الفكر الإسلامى الذى يربط بين الروح

والمادة والعقل والقلب في اطار مفهوم جامع ومنظور متكامل ، هو في ذاته دين ومنهج حياة ونظام مجتمع ، ومن ثم فأن الدعوة الى نقل الامة الاسلامية الى الحضارة الغربية عن طريق الانتاج العلمى الوافد من الغرب هي دعوة مضللة •

على العالم الاسلامى تيسير وسائل نقل التكنولوجيا وأساليب التقدم في مجالات الزراعة والصناعة ، والكشف والبحث في أعماق المحيطات وتفجير الصخور واستخراج الثروات المدفونة ، هذه الدعوة يجب أن تكون حرة وغير مرتبطة بأى دعوة أخرى الى نقل أسلوب العيش الغربى بما يستهدف القضاء على الضوابط الاخلاقية والدينية والادبية ، وهى قيم قام عليها المجتمع الاسلامى في عقائده وعاداته وحياته الاجتماعية •

ان حاجة المسلمين اليوم الى العلم التجريبي والتكنولوجيا ، ولهم بعد ذلك أسلوب عيشهم ، ومنطلق حركة هذا العلم في اطار قيمهم ومفهومهم الذى يقوم على بناء المجتمع الربانى الخالص المحرر من العبودية والعنصرية والاستغلال •

١ — افترء ما سينيون — الذى ارتفع بين أقرانه من رهبان اليسوعيين بدراسته العربية — منبعة الحقد الصليبي وليس ضعف الأمة أو قوته ، ومصيبتنا في انه اقى تسامحا منا عامة ونفاقا من ضعاف نفوس عملاء الحضارة الفرنسية « المجلة » •

٢ — وهذه النزعة يهودية الأصل نابعة من قول الله تعالى عن حالهم « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الاميين سبيل » ال عمران : ٧٥ والاميون ، تعنى الاميين في قصدهم وهى الامم التى خالفتهم ، وهذا مصدر العنصرية في الحضارة الغربية جمعاء « المجلة » •

٣ — وهكذا آذننا الله تعالى بحرب الربا •• « فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » البقرة •

الفصل الثالث عشر

النظام الاقتصادي الإسلامي في مواجهة النظامين الرأسمالي والماركسي

ان المفاهيم التي طرحها « علم الاقتصاد » الذي تدرسه جامعاتنا ومعاهدنا على طول العالم الاسلامي وعرضه لا تتجاوز المذهب الغربي الرأسمالي ، أو هي وليدة المذهب الماركسي ، وكلاهما يشكل وحدة تامة ذات جذور مرتبطة الى الحد الذي يمكن القول معه بلا حرج بأن النظرية الماركسية هي رد فعل للنظرية الرأسمالية وامتداد لها وان العالم كله يدور في فلك نظام اقتصادي ربوي مرتبط بالاحتكارات العالمية ونفوذ الرأسمالية وسلطان اليهودية العالمية التي نظمت مفاهيم الاقتصاد السياسي وتحركاته على النحو الذي يحقق لها السيطرة على الموارد المالية العالمية •

ولقد سقط العالم الاسلامي في بوتقة الاقتصاد الربوي منذ أن وقع تحت النفوذ الاستعماري الغربي الذي سيطر على موارده واقتصادياته وأرصده المالية ، فحال بينه وبين تطبيق المفهوم الاسلامي للاقتصاد من حيث سيطرة المصرف الاجنبي ووسائل التصدير والاستيراد الاجنبية ، حيث اصطنعت كل أسباب التعامل التجاري والزراعي من خلال النظام الربوي •

ومن شأن هذا الوضع أن يصور لشبابنا ومتعلمينا ان دراسة علوم الاقتصاد الغربي على النحو الذي تدرس به ابتداء من « آدم سميث » وجون ستوارث مل ، انما هو المنطلق الوحيد لفهم الاقتصاد العالمي ، بينما يجهل شبابنا كل ما يتصل بالمفهوم الاسلامي للاقتصاد ، الذي تكون قبل ذلك بأكثر من ألف عام عندما كتب القاضي أبو يوسف « كتاب الخراج » - في منتصف القرن الثاني الهجري - وما تبعه من دراسات دقيقة ترسم المنهج الاقتصادي الاسلامي الاصيل ، والذي هو الطريق الوحيد لهذه الامة ولا طريق غيره •

وإذا كان العالم كله الآن يقف موقفاً جديداً خارج نطاق الرأسمالية والشيوعية حتى نرى (جيسكار ديستان) يعلن رفض الاشتراكية الماركسية المتبعة في الكتلة الشرقية ورفض الرأسمالية الليبرالية المنتشرة في أوروبا ، ويدعو الى طريق جديد للحياة الاقتصادية في فرنسا والعالم ، وهو نفس الاحساس الذي يمر الآن في العالم الاسلامي ، بعد أن وجد فشلاً شديداً نتيجة التجربة التي قامت بها بعض الاقطار في الارتباط بالنظام الرأسمالي أو النظام الماركسي . وهم يملكون منهجاً يجمع بين خير ما في المنهجين ويدفع شر النظامين .

ونحن حين نراجع نصوص الاقتصاد السياسي نجدها ليست عامة ولا دقيقة ولا محكمة ومع ذلك فهي تدرس في الجامعات الاسلامية على أنها قوانين ثابتة وتتنظر الى علم الاقتصاد السياسي على أنه علم مقدس .

والواقع أن نظريات الاقتصاد السياسي ليست الا وجهات نظر قدمها بعض العاملين في هذا المجال ، وفي ظروف وتحديات مجتمعات وعصور ، وهي ليست قوانين ثابتة وليست لها صورة الحقيقة المطلقة لأنها ليست مماثلة لقوانين الطبيعة من حيث عمومها وسلامتها ، وهي أيضاً ليست قوانين عامة وشاملة التطبيق ، فهي تتغير بتغير الزمان والمكان وقد قام بصياغة هذه الفكرة دعاة المدرسة التاريخية التي أنكر أغلب كتابها وجود قوانين طبيعية وأخذوا علم الاقتصاد على أنه علم قوانين التطور الاقتصادي في الشعوب المختلفة .

ويقول أوجست كونت : ليست للقوانين الاقتصادية انضباط قوانين العلوم الرياضية والطبيعية بل هي كباقي قوانين العلوم الاجتماعية ، قد تنطبق أو لا تنطبق ، وتكاد أبحاث علماء الغرب أنفسهم تجمع على أن الاقتصاد الوضعي أقله علم وأكاره فكر .

ويقول الدكتور عيسى عبده — رحمه الله — : ان ما يسمى بعلم الاقتصاد السياسي : « اليسير منه علم ، أما الوفرة منه فقد أحاطت الفكر

البشرى بضباب من الشك والخلاف والخروج من تجربة الى أخرى ،
واختراع أنماط من العلاقات التى تربط الناس بعضهم ببعض •

لذلك يجب الحذر عند تقدير هذه الدراسات المستحدثة فما هى ثروة
تضاف الى المخزن من المعرفة وانما هى تراحم فيما بين النزعات الفردية
والنزعات الجماعية وأغلبها فلسفة ثائرة أو ظالمة •

والمادة الاقتصادية تتألف من ستة عشر قسما ، واحد منها فقط تكتمل
له خصائص العلم ، أما الباقي فهو اجتهاد من عند الناس ، دافعه وحاده
المصلحة الشخصية والسلطان ، ومن ثم ايقاع الظلم بالآخرين ، أو أستغلالهم
اذا ما توافرت فرصة فى هذه الاقسام مستمدة من المفاهيم التى اتفق عليها
المستحدثون لهذا النوع من الدراسات أمثال شارل جيد ، وشارل ريست ،
ومارشال ، واريك رول ، وشامبتر • ، فاذا بهم : رجال أعمال
يريدون تسخير النظرية العلمية لتبرير أساليبهم ووسائلهم الى الثراء
السريع ورجال سياسة يريدون من وراء البحث الذى يقومون به أن يخلعوا
على مجارى السياسة العالمية مسحة ولو رقيقة من مظاهر العمل لخير
الانسانية ، ورجال حكم تمرسوا بفنون القيادة والتوجيه من أجل الوصول
الم نوع من الاستقرار والامن ولو الى حين ، وان حصادا كهذا لا يقدم
للانسانية الا مزيدا من أسباب الخلاف •

ان علماء الزمان فى أرفع مستويات العلم لا يزالون فى خدمة
السياسى والحاكم والزعيم والداعية الى مذهب دون مذهب ، لا عن اقتناع
ولكن من أجل قوته وقوت عياله •

ويقول الدكتور عيسى عبدة : أن لنا أن نختر بين أن نظل سادرين فى
متابعة هذا النضال وبين أن نفيق ويقول : لقد آن لنا أن ننظر الى هذا
الاقتصاد المستورد من الغرب ومن الشرق نظرة محايدة متحررة ، حيث
ينبغى أن تكون الدراسة المقارنة من العلم بما عند الناس من خطأ وصواب ،

وأنه لمن نكد الدنيا على الجنس البشرى أن تراجعت الامة الاسلامية عن مكانتها من الصدارة وان غفلت عن تراثها فخلا الميدان للفكر والرأى وحدها فى ميادين ما كان للعقل فيها مجال الا مستهديا بالاصول التى أوحى بها خالق الانسان •

ومع هذا كله فان جامعات العالم اسلامى تدرس الاقتصاد الرأسمالى والاقتصادى والاشتراكى واذا درست الاقتصاد الإسلامى ألت به الماما سريعا •

•• وفى كلية متخصصة للاقتصاد ككلية الاقتصاد والعلوم السياسية لا توجد أى اشارة لدراسة الاقتصاد الإسلامى ، ومن هنا فقد حق على الشباب المثقف أن يتعرف الى هذه الارضية التى تعينه على فهم المذاهب التى يدرسها فى ضوء الاسلام •

ان المثقف المسلم يجب أن يدرس النظام الرأسمالى فى ضوء المفهوم الإسلامى ، كما يدرس النظام الاشتراكى فى ضوء الاسلام ، فالإسلام ليس شيوعيا ولا رأسماليا ، ولا هو مركب منهما ، « فالرأسمالية » حصاد تطور تاريخى اتسم بكثير من صور العبودية والاحتكم ، ولم يكن قاصرا على نواحى الاقتصاد فقط ، بل تعداه الى مختلف نواحى الحياة البشرية فالرأسمالية حياة وفلسفة واقتصاد واجتماع ، وقد كان أبرز مفاهيم الرأسمالية اطلاق الحرية الاقتصادية بدون قيد أخلاقى الى الحد الذى أدى الى الانانية الفردية وقرار العنصرية والاعتراف بالطبقية فى التركيب الاجتماعى •

ولما كان من أبرز خصائص النظام الرأسمالى اعطاء أكبر قدر من الحرية الاقتصادية للأفراد ، دون تدخل من الدولة لوضع قيود على الانتاج والاستهلاك ، فقد أدى ذلك الى السعى الى تمزيق المجتمع الى طبقتين متباينتين :

الأولى : رأسمالية اقطاعية ، والثانية ذوى الدخل المحدود من العمال والفلاحين ، كما أدى الى تركيز الثروة في يد فئة قليلة مستبدة ، والى انتشار البطالة والاحتكارات الطبيعية والصناعية التى تتكون وتستغل المستهلك والطبقات الفقيرة •

ومن أخطر عيوب هذا النظام الاستعمار لكل بقعة فى الأرض تحوى خامات من خامات الانتاج أو مادة من المواد الأولية للصناعات الثقيلة والخفيفة ، والذي تركز عليه سياسة الدول الرأسمالية •

وقد عجزت التجربة الرأسمالية عن تحقيق الاستقرار الاقتصادى فى الوقت الذى أعلن فيه الاقتصاديين أن السياسة الاقتصادية الحرة قد أدت الى تكوين احتكارات ضخمة ، قضت على المشروعات المتنافسة واستأثرت بالسوق وحددت الأثمان عند مستويات مرتفعة استغلت بها المستهلكين وارهقهم لصالح المحتكرين (١) •

وأبرز المشكلات التى تواجه النظام الرأسمالى اليوم :

١ — مشكلة التضخم المالى وما نتج عنها من تضائل فى المقدرة الشرائية •

٢ — المشكلات الناتجة من ازدياد عدد العاطلين عن العمل •

٣ — المشكلات الناتجة عن أزمة البيئة •

وقد أشار كثير من الباحثين الى أن النظام الرأسمالى الذى طبق منذ مطلع القرن السادس عشر قد أسفر عن أخطاء وعيوب انسانية وسياسية واقتصادية وأن كتاب أوربا فى خدمة الرأسماليين يعملون على اشغال الحرب فى كل مكان كى يجد الرأسماليون متنفسا لهم يتحركون فيه •

وقد ازدهرت الرأسمالية فى منتصف القرن الثامن عشر مع بداية الثورة الصناعية ولكنه بقيام الحرب العالمية الأولى بدأ « تدهور الرأسمالية »

بظهور الكساد والأزمات المالية نتيجة ظهور الاحتكارات الكبرى وسيطرة قلة من الأفراد على سوق المال ووسائل الانتاج ، وتدخل بعض أفرادها في السياسة وبذلك أصبحت الرأسمالية طريقا للاستعمار الأوربي وكان من أخطر اتجاهات الرأسمالية اتجاهها الى انتاج الكماليات دون الضروريات ، وقد أدى انتشار سيطرة الرأسمالية الى انفجار الثورة الشيوعية ١٩١٧ كرد فعل عنيف ضد رأس المال المستبد في المجتمع الأوربي خاصة وأن أوربا يومئذ كانت ما زالت تستخدم الأيدي العاملة الأوربية ولم تستخدم العمالة الوافدة الرخيصة الأجر •

ويقول ماكزى : ان من عيوب الرأسمالية أنها تقوم على نظام مفسد للأخلاق يجعل من الشراهة والأنانية فضيلة اذ يبيع المراحات والمنافسات التي تحيل البشر الى معمة فاشية ، تتنازع فيها الأفراد حق الحياة حيث تكون الغلبة للقوى أو النصاب أو المحتال وتتكدس الثروات في الأيدي الثمرة • وأشار الى العلاقة بين « الاحتكار » وبين الرفاهية الاجتماعية وأشار الى ظهور الاحتكارات في الغرب وانتشارها بقوة وتأيد القروض وبالتقدم العلمى في أساليب الصناعة مما أدى الى صراع الطبقات في ظل النظام الرأسمالى والى الأزمات الاقتصادية التي تقوم لأسباب تتعلق بذاتية النظام الرأسمالى وخصائصه حيث أن قوى معينة من داخل النظام تعمل على تفجير الأزمة نتيجة الاختلال في التوازن بين الانتاج والاستهلاك •

كما أشار الى خطر التطور المستمر في انتاج أسلحة الحرب نظرا لزيادة نسبة الربح فيها عن غيرها من أنواع الانتاج (٢) •

ولقد كان من أثر ارتباط النظام الرأسمالى بالاستعمار أنه فرض النظام الاقتصادى الغربى في البلدان الاسلامية التي استعمرها ، ثم تبين أن هذا النظام لم يزددهر في تلك البلدان وأن الضمير الاسلامى لم يقبله ولم يجسد فيه ما يرضيه أو يسعده ، ولذلك فان العالم الاسلامى يستجيش

بالدعوة الى « نظام اقتصادى اسلامى » مستمد من جوهر عقيدته ومن واقع مجتمعه •

ولقد وقف الفكر الاسلامى منذ اليوم الأول من النظام الرأسمالى موقف المعارضة والتباين وكشف عن أخطاء هذا النظام وفساده :

أولا : من حيث ان الاقتصاد الرأسمالى قام فى الغرب على الاستغلال والاحتكار والمعاملة الربوية ، وكلها أمور نهى الاسلام عنها ، فالاسلام يحرم الربا والغش والاستغلال والاحتكار ، كما أنه لا يطلق المنافسة لتنشط من وحى الغرائز ، وانما يبيحها فى نطاق مثالياته وأخلاقه •

ثانيا : حق الملكية الذى أقره الاسلام ليس الحق المطلق كما يصوره الاقتصاد الغربى ، بل يفرض الاسلام على المالك طائفة من الالتزامات الايجابية والالتزامات السلبية ، فكل شئ ملك لله ، والانسان مستخلف وهناك التزامات سلبية هى تحرير ماله من الحرام ، وتحريره من الغو فى التدبير والامتناع عن الربا ، ولتشريع الاقتصاد الاسلامى أثره العميق • فهو يبقى على نزعة التملك وهى نزعة ضرورية للنمو الاقتصادى ولكنه فى الوقت نفسه يحيط هذا الحق بطائفة من الالتزامات كحق الفقير فى الزكاة ، وعدم اكتناز المال أو احتكار مصادر الدخل •

ثالثا : يحرم الاسلام السعى فى طلب الرزق ويقرر حق تكافؤ الفرص ويقدس العمل الصالح ويحيط هذه الغريزة الفطرية بسياج من دستور سلوكه الاقتصادى الذى يحمى المسلم من تجاوز الحد المرسوم فى ابتغاء الرزق ويضبط من غلواء الحافز الذاتى نحو المزيد من الكسب ، وفى ضوء هذا يسرى العرض والطلب سريانا تلقائيا دون أن يقع فى محظور الاحتكار •

رابعا : علماء الاقتصاد المعاصر يضغطون كل الضغط على الاتجاه المادى فى اقتصادهم ، وقد ساروا فى الطريق حتى تجاهلوا أبسط قواعد

الأخلاق وأوضح معايير الخير والشر التى فرضتها جميع الأديان السماوية ، فكان لهذا التجاهل آثار بعيدة المدى فى النشاط الاقتصادى للبشر ، وأصبحت كل التصرفات الاقتصادية مباحة طالما كانت تؤتى نفعا ماديا ، وما دامت لا تصل إليها يد القانون الوضعى مهما اختلفت فى ثناياها من غش فى المعاملات واضرار بالغير وسلب لماله ، وقد أحيطت النظرية الاقتصادية بأقنعة كثيفة حجبت كل اعتبار خلقى أو انسانى أن ينفذ الى هيكلم المادى •

خامسا : يقوم الاقتصاد المعاصر على دعامتى المال والعمل وفى الاقتصاد الرأسمالى يكون للمالك السلطان المطلق فيما يملك بغير أى قيد عليه أما الاسلام فيفرض طائفة من التكاليف والالتزامات على المالك لمصلحة المجتمع وهذه التكاليف والالتزامات قابلة للقبض والبسط •

سادسا : من أسباب فساد النظام الرأسمالى أنه لا يوجد فرق جوهري بين البيع والربا ، فهما لا يختلفان فى نظامهما فحسب ، بل هما بمنزلة اللحمه والسدى التجارة والربا كل منهما يستلزم الآخر ، أما الاسلام فانه قد أحل البيع وحرم الربا ، « ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا » البقرة •

سابعا : كان لقيام النظام الرأسمالى على اكتناف المرابين وأصحاب المصانع وملاك الأرض فى جانب فى مواجهة العمال والمزارعين والمدنيين فى جانب آخر ، أثره العميق حيث انقسم المجتمع الى طبقتين وانعدمت روح التعاطف والمساواة والتكامل •

وقد وضحت مساوىء الرأسمالية فى أوربا من اضطراب المجتمعات والأزمات الاقتصادية والبطالة وصور الاستغلال الرأسمالى والاحتكار وسوء توزيع الثروات التى أدت الى ظهور الثورات الاجتماعية حتى ولو كانت غائسلة •

ثامنا : لم يعتبر الاسلام المشكلة الاقتصادية كما تصورها الرأسمالية مشكلة قلة الموارد أو عجز الطبيعة عن تلبية الحاجات ، وانما ردها الى الانسان نفسه وجشعه وسوء تنظيمه الاقتصادي ، وما جاع فقير الالبما أترف به غنى ، وان سوء توزيع الثروة انما جاء نتيجة تسلط الأقوياء عليها ، وقد سخر الله ما في السموات والأرض جميعا منه للانسان وجعل العمل عبادة كما جعله أمانة ومسئولية •

تاسعا : قرر الاسلام الحرية الفردية في اطار العدالة العامة الشاملة وجعل توطيد الحرية الفردية قضية أساسية وجعل الانسان مترواحا بين الذاتية والغيرية ، والتفاعل بين شطري فطرته ، وأداء حق غيره عليه وحقه على الغير دون اهمال حق الغير ابتداء ، وهذه العدالة هي الضمان لممارسة الحرية الفردية دون انحراف أو عدوان ، وجعل الاسلام ملكية المال ذات وظيفة اجتماعية مقيدة في حالة حيازتها العامة والخاصة •

والاسلام يوفق بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة ، فيتم تحقيق المصلحة الخاصة في اطار المصلحة العامة •

عاشرًا : وازن الاسلام بين حوافز الفرد ومطالب الجماعة ونسق بين الفردية والجماعية ودعا الى التوازن بين حرية الفرد ومصلحة الجماعة •

وقد عاد الاسلام بأروع معادلة توازن موازنة سوية بين الفرد والجماعة اذ أقام التكافل الاجتماعي على أساس الاخوة الاسلامية وهي طراز فذ من التعاطف الانساني جب العنصرية ، وقضى على التفرقة الطبقية وحرر العقيدة من التعصب المقيت ، وكفل للمرأة حقوقها الاجتماعية والاقتصادية وعالج سوء توزيع الثروة معالجة عادلة تحول دون تكديسها في يد فرد أو أفراد قلائل « كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » ودون أن يقضى على نشاط الفرد وميله الغريزي للمبادرة والابداع وأقام التنافس على أساس القدرة والعدالة معا ، وأستطاعت تجربة الحكم الاسلامى

في صدر الاسلام أن تثبت نجاحها الباهر في إيجاد مجتمع متوازن تتكيف فيه ارادة الفرد مع صالح الجماعة •

حادى عشر : الاسلام لا يقر المذهب الفردى الذى ولد في أحضان الرأسمالية الصناعية ، هذا المبدأ الذى لا يفرض أى التزامات ايجابية على الدولة • بينما يعتبر حق الملكية في الاسلام غير مطلق ، اذ يعد بمثابة وظيفة اجتماعية •

فالمالك عليه أن يستعمل هذا الحق وفق ما تمليه مصلحة المجتمع ، أو ما تمليه مصلحة الفرد ، ولكن في غير اضرار بغيره وفي الحدود التى رسمها الله تبارك وتعالى في القرآن •

وهناك قيود غير مباشرة وضعت على حرية الملكية تشمل فرائض على الانفاق وعلى التملك ، تهدف الى الحيلولة دون تضخم الثروات ودون تركيز للمال في أيدي طائفة خاصة من الناس ، كما فرضت الزكاة التى تعد أحد أركان الاسلام كما تعد أحد أركان ما يطلق عليه التكافل الاجتماعى ، حيث لم يجعل الزكاة منه على مستحقها بل هى حق لهم ازاء القادرين •

١ — ان المؤسسات الاحتكارية الدولية التى يقوم عليها الاقتصاد الغربى تشتري خامات الانتاج كالنفط والمطاط والمنجنيز والفوسفات ولألومنيوم •• الخ أو تستولى عليها ثم تبيعها صناعات فنية بما يوازى عشرات الأضعاف لثمن التكلفة وهذا يصور خطورة المبدأ الذى قامت عليه فضلا عن تهريبها من نقل المعارف التقنية وخصوصا بالنسبة للشعوب التى تمتاز بالذكاء •

٢ — الحق ان سياسة تسويق الأسلحة الحربية كانت لعبة الاحتكار

في الدولة النامية التي بدأت تمتلك ثروة نتيجة تملكها لمصادرة الثروة في أراضيها وهي لعبة ذات حدين أولها ايهاام تلك الدولة بقدرتها على تملك سلاح تظهر به قدرتها ، والثاني وهو الهدف : امتصاص المال الذي تدفعه الاحتكارات ثمنًا لمواد الخام التي تشتريها من الدولة النامية وأظهر مثال على هذا ما تستهلكه الحرب العراقية الايرانية من سلاح وبشر دمرت اقتصادها والمستفيد تجار السلاح « المجلة » •

٣ — هي في الحقيقة ايجابية لانها تحقق التوازن وثبات المصادر على أسس العدالة الاجتماعية •

الفصل الرابع عشر

النظام الاقتصادي في الاسلام

(٢)

بين الاسلام والماركسية

قدمنا في الفصل السابق عرضا للفاهيم التي طرحها علم الاقتصاد وكيف سقط العالم الاسلامي في بوتقة الاقتصاد الربوي ، وأوضحنا عيوب النظام الرأسمالي وموقف الفكر الاسلامي من هذا النظام ، ثم كشفنا عن أخلاقيات الاقتصاد الاسلامي من حيث عدالة التوزيع والتكافل الاقتصادي ، وعدم اقرار الاسلام للمذهب الفردي الذي ولد في أحضان الرأسمالية الصناعية •

ونواصل البحث عن الاسلام والماركسية :

المثقف المسلم في حاجة الى أن يدرس النظام الماركسي « الاشتراكي أو الشيوعي » في ضوء المفهوم الاسلامي من حيث ان الاسلام ليس رأسماليا وليس اشتراكيا ، وانما هو نظام متميز خاص يختلف عنهما •

وأكبر ميزاته أنه نظام رباني وليس من صنع البشر ، وإذا كان النظام الرأسمالي قد قام بناء على ظروف خاصة بالمجتمع الأوربي في القرن السادس عشر ، فان النظام الماركسي جاء بمثابة رد فعل لهذا النظام فهو جزء منه ، وقد أكد المؤرخون أن ماركس ومذهبه انما هو بمثابة رد فعل لحالة المجتمع الأوربي ، فمفهوم الماركسية هو شطر مكمل للنظرية الرأسمالية •

وأبرز خصائصه : تقوم على أساس امتلاك الدولة لمختلف وسائل

الانتاج من صناعية وزراعية وثروة طبيعية وخدمات عامة ، فلا وجود للملكية الفردية ولا مجال للحرية الاقتصادية الا بمقدار ما يمنحه المجتمع للفرد •

وتطالب المذاهب الاشتراكية من الناحية الاجتماعية بتحقيق المساواة بين الأفراد • وتجعل النظرية الماركسية قيمة ، أى سلعة ، بحسب ما يبذل فى انتاجها من عمل •

وتقوم الشيوعية على الايمان بالمادية المطلقة وكراهية الأديان والحقد ، فقد أعلن ماركس أنه لا يؤمن بغير المادة ، وأن كل شئ فى الوجود ان هو الا أثر من آثار المادية •

والمادية تعنى عدم الايمان بالغيب كما تعنى انكار الاله ، وهى ترفض منازع الأخلاق والتقاليد ونظام الأسرة والزواج ويزعم ماركس أن الدين وسيلة من وسائل الاستغلال ، اخترعه أصحاب الثروة والمسيطرون على مصادر الانتاج لتخدير الشعوب حتى يسهل استغلالها ، وتحارب الماركسية الأخلاق بدعوى أنها سواء أكانت فردية أو جماعية ، فما هى الا أثر من الآثار الاقطاعية ، وكذلك تحارب الأسرة وناموس الزواج •

وتفسير الماركسية الحياة الانسانية من خلال التفسير المادى والاقتصادى ، وتقوم على فكرة الكراهية والحقد والصراع بين الطبقات واستعمال العنف لايجاد ما تسميه المساواة •

ويشير بعض الباحثين الى أن الاشتراكية العالمية (الماركسية) هى فكر مادى يسعى الى التسلط عن طريق نقل المال الى ما يسمى ملكية الدولة ، ويسعى الى النفوذ فى الحكم عن طريق مخاطبة الناس عن طريق المعدة وحدها ، وبأرقام الطعام والكساء وحدها ، وليس عن طريق الفكر أو المنطق ، فضلا عن طريق القلب والايمان والحب الاجتماعى والتعاطف •

والاشتراكية فى عالم اليوم أو الماركسية أمر واحد يطلى بألوان متعددة للتصويه والخداع ، ومن المستحيل أن يتقرب ماركس وهو اليهودى التلمودى ، باشتراكيته الى خير البشرية ، فيقدم نظاما مثاليا للحياة الانسانية أو يؤمن بسلام حقيقى للنفوس •

وينعقد الاجماع على أن الدعامة الأساسية فى الماركسية (اشتراكية + شيوعية) هى اللادينية المطلقة ، ويقوم المذهب على انكار وجود الخالق وانكار البعث والنشور والجزاء الحساب ، وأن الكون مادة فى مادة •

يقول ماركس : لا وجود لله ، الحياة مادة بحتة ، ويرى فى الأديان جميعها مخدرا للعقول يجب التحرر منه فكل دين عندهم هو أغنيون الشعوب ، وعنده أن رسالة العمل الشيوعية هى : القضاء على الدين والداعين اليه •

وينكر المذهب الشيوعى « الأسرة » ويعمل على انحلال روابطها :

يقول انجلز : ان الأسرة هى وضع من أوضاع المجتمع لا نضوج فيه ولا جدوى ، ولا محل لاستبقاء هذا الوضع وتأييده الا بالقدر الذى تستطيع استغلاله لمصلحة الدولة ، فالطفل لا يولد لابويه بل يولد للمجتمع •

ترى الشيوعية أن الاسرة تنمى أحاسيس الاثرة الذاتية وحب التملك ؟

كذلك تفسر النظرية أحداث التاريخ من حروب وثورات وقيام دولة وأنظمة وسقوطها ، تفسيراً مستندا الى العوامل الاقتصادية ، وما هى الا تعبيرات عن شىء واحد هو الحياة الاقتصادية •

ونظرا لمعارضة (الماركسية) للفطرة وطبائع الاشياء ومصادرة

الطبيعة الانسانية وتجاهل الروح وانكار رسالتها الحققة فان المذهب لم يجد تقبلا صحيحا ، ولم تلبث أن تكشفت تناقضاته وظهر قصوره في التطبيق ، مما دعا الذين قاموا بتطبيقه الى اجراء تعديلات متصلة لمواجهة هذا القصور •

وقد تبين أن المذهب الماركسى عاجز عن استيعاب النفس الانسانية وتحقيق هدفها الحقيقي من الحياة . وأنه تجاوز في تفسير المجتمع أو التاريخ كثيرا من الحقائق القائمة الواضحة •
ويمكن أجمال المذهب الماركسى فيما يلي :

أولا : لا تزيد الماركسية عن أنها فلسفة مرحلة وردود فعل للرأسمالية أدعت الاصلاح فخربت ، وقد اعتمدت النظرية في أساسها على نظرية علمية ثبت فشلها الآن ، تجاوزها العلم التجريبي ، وأنها قامت أساسا في ظل طغيان العلم ، وفي ابان الظن بأن العلم قادر على أن يقول الكلمة الاخيرة في كل شيء ، ثم تبين للعلماء أن العلم محدود القدرة ، وأنه لا يستطيع تجاوز ظواهر الاشياء ، وأن ماركس أنشأ نظرية — ادعى أنها كلية — في ضوء حالة اجتماعية عرضية ، لم تلبث أن تغيرت ، وهى بدايات التصنيع ، ولم يلتفت الى تأثير العامل السياسى فى الوضع الاجتماعى ، وامكانية تأثير التوازن الروحى •

وحاول لينين أن يكمل ما نقص ويعدل ما اضطرب لجعل النظرية شاملة العالم كله ، بعد أن كانت فى تقدير ماركس لاوروبا وحدها ، وقد كان ماركس يتوقع أن تحدث الثورة الشيوعية فى دولة متقدمة صناعيا تعارضت النظرية اللينينية مع أمها النظرية الماركسية ، من حيث أن ماركس كان يتوقع ان تحدث الثورة فى دولة متقدمة صناعيا لا فى دولة زراعية اقطاعية الى أقصى حد •

ومن ثم فان أكبر مقاتل النظرية الشيوعية أن ماركس قد نظر على ظروف تغيرت ، ولم يكن يتصور ما ستحدثه ثورة العلم والتكنولوجيا

في القرن العشرين ، حيث يدور المصنع بعقول الكترونية ، يجلس العامل أمامها ليدير أزرارها وخلفه نقابات العمال وقوانين التأمين ضد العجز والشيخوخة والمرض ، وفرض التعليم والعلاج ، لم يتصور مرونة ، الرأسمالية وقدرتها على التطور ، أما أكبر أخطاء الماركسية فإصرارها على أن تكون فكرا شموليا يحيط بكل شيء علما •

(ثانيا) : ان التجربة الشيوعية قد كشفت مع الزمن عن ثلاثة أخطاء كبرى :

الاول : اهدار الكرامة الانسانية وذلك بالقضاء على مفهوم فردية الانسان وحرية الخاصة وكرامته وقدراته التي تمكنه من الابداع والتقدم ، والطمأنينة على سلامة العيش والى القدرة على وضع مجتمعه في أوج الازدهار •

الثاني : تدمير الاخوة الانسانية : وذلك باثارة روح البغضاء والحقد بين الطبقات ، بما يحول دون نماء المجتمع أو حركته الجامعة واندفاعه نحو التقدم •

الثالث : اذلال الانسان وتحقيره ، وذلك يجعله أشبه بترس في آلة ليس له حق امتلاك كيانه الخاص ، ولا مقدراته الحرة على التفكير والحرية ، وخاصة فيما يتعلق بالقضاء على انسانية الانسان وقداسته الاسرة وحرية الفكر •

وقد سجلت هذه الاخطار الكبرى على التجربة الشيوعية أنها ضد الفطرة وضد تيار التقدم البشري ، فقد أثبتت التجربة الشيوعية في خلال أكثر من نصف قرن من التطبيق ، عجزها عن تحقيق هدف واحد من أهدافها • بل كانت في كل مرحلة تصدر تنازلات عن آرائها السياسية ، وتتقبل الواقع وتعديل النظرية ، وخاصة إلغاء الطبقات وإلغاء الدولة ،

ولم يتحقق مطلقا ولا جزئيا خلال هذه الفترة لشعوب المجتمعات الشيوعية الكفاية بين أفرادها أو الامن لمجتمعها •

(ثالثا) : وصف الماركسية بـإنها حقيقة علمية إنما هو كذب على العلم وعلى الاختصاص في وقت واحد ، لان الماركسية نظرية اجتماعية ، والنظريات الاجتماعية بعيدة الصلة عن الحقائق التجريبية العلمية •

فالحقيقة العلمية حقيقة ثبتت في معامل الكيميائيين ، أما النظريات فأنها مجرد تصورات وفروض ، لا تأخذ حكم الحقائق العلمية الثابتة •

ومن ذلك نظرية « فرويد » حول اعتبار الغريزة الجنسية أساسا للسلوك • ونظرية كارل ماركس ، بأن الملكية الفردية هي سبب بلاء البشرية •

والرد على القول بأن الشيوعية هي المصير العلمى للناس أو الحقيقة التى يؤيدها العلم لاسعاد البشرية ، أن هناك شعوبا لم تعرف الشيوعية ولا عاشت فى ظلها ، وهى تحيا على مستوى من الرفاهية وسعادة النفس لا تعرفه البلاد الشيوعية •

(رابعا) : تبين خطأ اعتبار الاقتصاد العامل الاساسى فى تفسير التاريخ ، ذلك لان هناك عوامل أخرى كثيرة متعددة ، لها أهمية أكبر من الاقتصاد فى تشكيل الاحداث والتأثير فيها ، والمعتقدات الدينية فى مقدمة هذه العوامل ، كذلك فهناك العواطف والشهوات التى تسيطر على حياة الرجال ، وتؤدى الى كثير من الحروب والتغيرات •

ويرى (أدلر) أن غريزة حب السيطرة تلعب الدور الاول فى التاريخ ولا ريب أن مختلف الظواهر : سياسية واقتصادية وأدبية تؤثر كل منها فى الاخرى •

وقد تبين أن (ماركس) اعتمد فى نظريته على متغيرات اقتصادية

وعلمية تكشف من بعد فسادها وسقوطها ، واذا كانت النظرية قد انسجمت شكلها في القرن التاسع عشر ، فانها لم تنسجم بعد ذلك مع الظروف الاقتصادية السائدة أو تتفق مع الظروف الاقتصادية السائدة اليوم ، بل ان البعض يرى أن النظرية لم تكن وليدة بحث علمي ، وإنما جاء البحث العلمي تبريرا ودفاعا عن النظرية وهو ما ثبت بطلانه على مسرح الواقع الذي يضعونه قرب ميزان الفكر الماركسي .

خامسا : من أكبر مقائل النظرية الماركسية اعتماد (ماركس) على النبوءة والمبالغة ، وانكار الذكاء الانساني كعامل من العوامل التي تميز الفرد عن الاخر في البيئة الواحدة .

كذلك أخطأ ماركس في تقديم المسادة على الفكر ، ولو أنه قال أن العلاقة بين الفكر والمادة علاقة متبادلة لكان أقرب الى الصواب .

كذلك أخطأ في مسألة « الحتمية » والحتمية لا تتفق مع ارادة التغيير ، والحتمية لا تجعل من الانسان ازاء تطور التاريخ الا مراقبا ، وهذا يتعارض مع مسؤولية الانسان الاكتسابية كما يقرها الاسلام .

سادسا : تعارض الماركسية الدين معارضة تامة ، ولكنها تحاول خداع الشعوب الاسلامية بدعوى التوفيق بين الماركسية والدين ، كأسلوب لغزو المجتمعات المتدينة التي ترفض الاحاد ، وهو أسلوب مرحلي للمتمويه ، فالماركسية أو الدين كل منهما يرفض الآخر رفضا قاطعا .

وقد وجدت الدعاية الماركسية تربة خصبة في البلاد المستعمرة المتطلعة الى التحرر لبث أخطارها اذ تقدمت الماركسية في تلك اللحظات الحاسمة وكأنها العلاج الناجع ، ثم تكشف من بعد ما تخفيه من تأمر .

التفسير المادى للتاريخ :

سابعا : فساد التفسير المادى للتاريخ فان للقيم الدينية والمعنوية

والاخلاقية وزنها وأهميتها في المجتمع ، ومن الخطأ تجاهل أثر تعاليم الانبياء والرسل ، وآراء الفلاسفة والحكماء ، التي ليست نتاجا للبيئة الاقتصادية وحدها .

والاسلام نفسه لم يأت نتيجة انقلاب في نظم الانتاج أو علاقات الانتاج في قریش ، وإنما جاء ظاهرة الهية مستقلة عن فعل البيئة لتصحيح انحرافات البشرية عن الخط الالهي . لقد جاء الاسلام في البداية مقررا المساواة في الفرص ، وضمان حد الكفاية للفرد ، وتحقيق التوازن الاقتصادي بين الفرد والمجتمع .

وجاء بمبدأ الملكية الخاصة والملكية العامة ، جاء بكل ذلك في الجزيرة العربية في وقت لم تكن فيه ظروف الانتاج تدعو اليه بحيث يمكن أن تقول ان ما حدث كان انبثاقا ، وتحدى بذلك منطق التفسير المادى من واقع اقتصادى أو رد فعل له . للتاريخ الذى يحتم انبثاق كل انقلاب سياسى من انقلاب مناظر في نظام الانتاج وعلاقاته .

ثامنا : الماركسية تستلزم الصراع والاسلام يقرر التدافع والماركسية تنكر الروح انكارا تاما ويجمع الاسلام بين المادة والروح .

تاسعا : ان التجربة التي أقامتها الماركسية في المجتمعات الشيوعية لم تحقق الكفاية بين أفرادها ولم يستطع النظام الاشتراكى تخليص المجتمع الاقتصادي من كل مساوئ الرأسمالية .

ولا ريب أن نظرية ماركس قاصرة على التاريخ الغربى وحده وفي بعض الجوانب فحسب في العصر الذى عاشه ولم تستطع أن تتجاوز الى أن تكون تطبيقا على التاريخ البشرى كله ، وهى لا تصلح كلية للتطبيق على التاريخ الاسلامى .

وقد اعترف الفيلسوف الماركسى — فيما سبق — جارودى بالحاد

الماركسية ، وأنها وارثة التراث الاحادى فى القرن الثامن عشر حيث تنبى
ماركس شعار بروميثوس « أنا ضد كل الالهة » •

وكان ظن الماركسية أن انهيار النظام الرأسمالى وشيك الوقوع ،
ولكن الرأسمالية فوتت على الشيوعية هدفها حين حققت للعمال آمالهم •

ويمكن القول بأن الرأسمالية والماركسية كلاهما قد صدر من
منبع واحد هو (المخططات التامودية) وان اسم تروتسكى يعنى الماركسية
بينما اسم روتشلد يعنى الرأسمالية وكلاهما يمثل تموجات العقلية اليهودية
فالتيار الرأسمالى والتيار الماركسى أبوهما واحد وهو التيار اليهودى
الصهيونى ونحن نجد الآن طبقة أصحاب رؤوس الأموال فى الرأسمالية
يهودا فى الصميم فى مواجهة طبقة عمالية ديكتاتورية يهودية أيضا ، وهكذا
نجد أن الماركسية شطر مكمل للرأسمالية وأن وجهة نظر ماركس فى الدين
مستمدة من فهمه للنصرانية وليس للدين بصفة عامة ، والنظامان يحاولان
تنازع السيطرة على العالم ويحاولان احتواء العالم الاسلامى بالفكرة
والمذهب والنظام ، وأيهما يفوز فان فوزه يهودى تلمودى •

وعلى العالم الاسلامى الذى يملك نظامه الخاص المستمد من رضى
السما أن يتجاوز هذه التبعية ، وأن يرتفع فوق لعبة الارجوحة ، كل
طرف يرتفع مرة وينخفض لصاحبه أخرى •

ومن حق المثقف المسلم أن يعرف حقيقة النظام الاقتصادى فى
الاسلام فالاسلام نظام وليس نظرية وهو نظام كامل لا ينغزل فى الاقتصاد
عن بقية النواحي التى تعالج الانسان والمجتمع •

أولا : ليس الاسلام نظاما شيوعيا لانه يقر الملكية الفردية ويحميها
وليس نظاما رأسماليا لانه لا يطلق العنان لرأس المال بل يحرص على
تجريده من وسائل السيطرة والنفوذ ، وليس من النظم الاقتصادية
المتطرفة الى اليسار لانه لا يمعن فى أضعاف رأس المال الفردى •

طالما يفسح له المجال للقيام بوظيفته في حدود الصالح العام بوصفه عاملا هاما من عوامل الانتاج وحيوية النماء في المجتمع •

ثانيا : أقام الاسلام بنيان اقتصادياته على دعائم ثمانية تعمل متضافرة لتحقيق المساواة بين الافراد والجماعات هي :

١ — تضيق نظام الملكية الفردية لخير الجماعة وفي سبيل الصالح العام •

٢ — يحترم الاسلام الملكية الفردية للأشياء الضرورية ويدخلها في نطاق الملكية الجماعية في الضرورة •

٣ — يحرم الكسب غير المشروع ويجعل الربا والفائدة من الاموال المحرمة •

٤ — يحرم استغلال النفوذ والسطاطان في سبيل الحصول على المال •

٥ — يحرم جميع المعاملات التي تنطوي على الغش والرشوة أو أكل أموال الناس بالباطل •

٦ — في سبيل قيام الملكية الفردية في نظام متزن حتى لا تطغى وتصبح ثروة مقدسة أوجد الاسلام نظام الميراث والوصية حيث يتكفل النظام الاول بتوزيع الثروات بين الناس توزيعا عادلا يحول دون تضخم الاموال وتجميعها في أيدي قليلة ويعمل على تذويب الفوارق بين الطبقات حيث تقسم التركة بين أقرباء الهالك فتتوسع بذلك دائرة الانتفاع من الملك الذي كان فرديا فأصبح جماعيا •

كذلك بالنسبة للوصية حيث يمكن لصاحب المال أن يوصي بجزء من ماله لاحد اقربائه الفقراء من غير الوراثين فان لم يوجد فلاى شخص يعرف فقره •

٧ — أمر الاسلام بالزكاة والصدقة حتى يأخذ الفقير نصيبه من مال الغنى وفى هذا حد لتصادد الملكية •

٨ — ينظر الاسلام الى التملك على أنه مجرد وظيفة اجتماعية ودينية يقوم صاحبها بانفاق المال على مستحقه « وأنقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » •

يقول الدكتور على عبد الواحد وافي :

يقرر الاسلام الملكية الفدية ويحيطها بسياج من الجماعة وبذلك أقام أمام القرد سبيل التملك والاحصول على المال ويشجع على العمل ويعطى لكل مجتهد جزاء اجتهاده من ثمرات الحياة ويفسح المجال أمام المنافسة والرغبة فى التفوق والطموح فيحقق تكافؤ الفرص بين الناس ، ويقلم فى نفس الوقت أظفار رأس المال ويحرره من وسائل السيطرة والنفوذ دون أن يشل حركته أو يعوقه عن القيام بوظيفته بوصفه عاملا هاما من عوامل الانتاج ويعمل على استقرار التوازن الاقتصادى ويقلل الفوارق بين الطبقات ، ويحول دون تجميعها فى أيد قليلة •

والمقصود بالمساواة فى الاقتصاد الاسلامى تحقيق تكافؤ الفرص بين الناس فينال المجتهد جزاء اجتهاده وثمره أعماله وبذلك يتحقق التوازن الاقتصادى وتتمحى الفروق الطبقيه ويحصل التقارب بين مختلف الطبقات حتى لا تتضخم الثروات وتتجمع فى أيد قليلة •

ثالثا : أقامت الرأسمالية قاعدتها على ملك الفرد المطلق ، وأقامت الماركسية قاعدتها على ملكية الدولة باسم الجماعة ملكا سوريا دون الفرد وهى ملكية زائفة ، بينما جمع الاسلام بين الفرد والجماعة عكسا وطردا ولم يغفل حق أحدهما ، وتقوم الشيوعية بالغاء الملكية الخاصة

متجاهلة الفطرة الانسانية وقوة غريزة التملك فيها ، وتقوم الرأسمالية باطلاق الملكية الفردية اطلاقا شديدا •

أما الاسلام فهو يجتمع بين الملكية العامة والملكية الخاصة في حدود وضوابط ، فقد أقر الاسلام الملكية الخاصة وفرض عليها عدة قيود وأوجد الملكية العامة بالقدر الذى تتطلبه احتياجات المجتمع ، وبينما اعتمدت الرأسمالية على الاستعمار والتسلط ، واعتمدت الماركسية على العنف والقهر اعتمد الاسلام على الفطرة والرحمة والاخاء البشرى العام ، وبينما تقرر الماركسية أن الفكر يسبق المادة يقرر الاسلام أن الفكر والمادة كلاهما يتبادلان الحركة ولا يسبق أحدهما الآخر •

وتعتمد الماركسية على الصراع بين الطبقات والصراع الدموى وسيلة لتحقيق أهدافها التسلطية ولا يقر الاسلام صراع الطبقات بل يرى تلاقيها وتكاملها وتعاونها •

ومن الحق أن يعرف شبابنا في مقاعد الدرس في المدارس والجامعات على طول العالم الاسلامى وعرضه هذه الحقائق ، ويؤمنون بأن للاسلام نظاما للاقتصاد يختلف عن النظرية الرأسمالية الليبرالية والنظرية الاشتراكية الماركسية وأن النظام في الاسلام أكثر شمولاً وعدلاً ورحمة ، وأنه من عند الله تبارك وتعالى خالق الانسان والعليم بتكوينه وتشكيله ، والجامع بين الروح والمادة العقل والقلب وبوصفه مسؤولاً ومسؤولية فردية أمام الله وملتزماً أخلاقياً أمام الجماعة ومؤمناً بالسعى لاقامة المجتمع الربانى ومسؤولاً بعد الموت بالبعث والجزاء الاخرى •

الفصل الخامس عشر

الفلسفة اليونانية والفكر الاسلامى

* فساد الادعاء بأن الفكر الاسلامى خضع للفكر اليونانى . . .

* مؤامرة نقل الفلسفة اليونانية الى الفكر الاسلامى فى العصر الحديث . . .

* * *

دعويان طرحهما التغريب والغزو الثقافى لتزييف أصالة الفكر الاسلامى ، القرأتى المصدر .

أما أولاهما : أن الفلسفة اليونانية هى مصدر الفلسفة العربية . .
وأما الثانية : فهى القول بأن المسلمين أخذوا الفلسفة اليونانية وبنوا عليها مفاهيم ومصطلحاتهم فى الفقه والنحو والبلاغة .

وقد ارتفعت الصيحة بأن أرسطو هو شيخ الفكر الاسلامى ، وأن المسلمين اعتبروه كذلك وان الازهر قد اعترف له بهذه المنزلة ، وبذلك دعا لطفى السيد وطه حسين وغيرهما ، ان اساس النهضة الحديثة فى العالم الاسلامى هى احياء الفلسفة اليونانية كمصدر لها ، متى كانت الامة الاسلامية قد أخذت هذه الفلسفة اليونانية أساسا لفكرها فى الماضى ، ولما كانت ثمرة الفلسفة اليونانية : الفلسفة الغربية الحديثة ، فإن على المسلمين أن يأخذوا فى العصر الحديث هذه الفلسفة الغربية بالتبعية .

ولا ريب أن هذه الدعوى باطلة ومضللة ، فان الفلسفة اليونانية ما كانت يوما أساسا للفكر الاسلامى ، وأن الفلسفة الغربية المعاصرة لن تكون أساسا للفكر الاسلامى الحديث ، الذى تحرر من مدرسة

التغريب التي كانت تعلی من شأن أراء المعتزلة وتراها مصدر النهضة ، لان الاعتزال فی مصدره كان يونانيا بينما كانت المدرسة الاصلية التي ظفرت بالزعامة الحققة فی العصر الاول ، وهی التي ستتتصر فی معركة هذا العصر ان شاء الله ، « المدرسة القرآنية » وحدها ، التي تستمد نهجها ومصادرهما من المنابع الاولى وحدها : القرآن والسنة • وليست فی حاجة الا الى جهد وجهاد ، ويومئذ ينصرها الله •

ومن يراجع تاريخ دراسة الفلسفة فی العصر الحديث ، يجد أن الجامعة المصرية القديمة بدأت بدراسات للكونت دي جلازرا الذي فاجأ تلاميذه العرب والمسلمين منذ اليوم الاول بأنه لا توجد فلسفة عربية ، وانما هذه الفلسفة المنسوبة الى (الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد) ، هي فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية •

وكان ارنست رينان قد ردد هذا فی كتبه ، على نحو يراد به انكار فضل الاسلام فی ميدان الدراسات العقلية، ونسارع فنقول أن الشيخ مصطفى عبد الرازق — شيخ الازهر الاسبق — ما لبث حين تولى تدريس الفلسفة فی الجامعة المصرية أن أعلن : أن الفلسفة الاسلامية تبدأ بالامام الشافعي ، فی كتابه (اصول علم الفقه) ، وأن الامام الشافعي هو أول الفلاسفة فی الاسلام ، وأن مقامه فی العربية هو بمثابة مقام أرسطو فی الفلسفة اليونانية ، وأن أمثال الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد ، هؤلاء هم المشاؤون المترجمون للفلسفة اليونانية الى اللغة العربية فحسب •

ولقد جاء ذلك بعد استشرت دعوى لطفى السيد ، الذي ترجم باسمه كتاب علم الاخلاق لارسطو (ترجمة بارتلمي سانتهيلير) وعلم السياسة ، وجاء طه حسين فأدخل اللغة اليونانية مادة أساسية فی كلية الآداب ، بغير ضرورة ملحة لذلك ، وتعاليت صيحة الفكر اليونانى فی مصر ، وترجمت مؤلفات وكتب ومسرحات وأساطير كثيرة بقصد غزو هذا الفكر الوثنى من جديد للفكر الاسلامى المعاصر ، وقد تحرج المسلمون فی الصدر

الاول من ترجمته ، واعتبروه ثقافة خاصة لليونان ، وعرفوا أنه مستمد من عالم الاصنام عند اليونان •

ولكن مدرسة التغريب كانت حريصة على اغراق المسلمين في هذا الاتون ، في نفس الوقت الذي اطرحت النهضة العلمية الاوربية منذ القرن الخامس عشر ، فلاسفة أرسطو ومنهجه اليونانى ، في مقابل الاخذ بالمنهج التجريبي الاسلامى ، الذى أنشأ الحضارة الغربية المعاصرة •

ولقد هاجم فلاسفة الغرب فلسفة أرسطو بنفس العبارات والنصوص التى عارض به منهجه آئمة المسلمين في القرن الرابع الهجرى ، حين أعلنوا : أن الفلسفة اليونانية تمثل (أرجانون) خاص للعبودية اليونانية والوثنية الاغريقية ، وأن هذا (الارجاون) مخالف لنهج الحضارة الاسلامية ، القائم على التوحيد الخالص وعلى الاخاء البشرى ، فقد حرر الاسلام العقل الاسلامى من الوثنية ، وحرر الانسان من العبودية التى عرفتها حضارات الرومان واليونان والفراعنة والفرس ، « جئنا نخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة رب العباد » — النعمان بن مقرن فأتاح نهاوند وشهيد معركتها — وفي نفس الوقت الذى أخذ الغرب فيه المنهج التجريبي الاسلامى لبناء حضارته ، فإنه أراد عن طريق حركة التغريب الغازية أن يربطنا بمنهج أرسطو الذى لفظته حضارة الغرب ، حتى ندور في هذه الدائرة المظلمة •

وقد حاول التغريبون تحسين هذه المؤامرة لنا ، حيث نجد « أستاذ الجيل » أحمد لطفى السيد يقول في مقدمة كتابه المترجم عن أرسطو : « مع أن نقل كتب الفلسفة لم يكن مقصورا على كتب أرسطو ، فان فلاسفة أرسطو هى التى غلبت على الفلسفة العربية وطبعتها بطابعها ، والواقع أن الفلسفة العربية ليست شيئا آخر غير فلسفة أرسطو طاليس بالطابع العربى ، وسميت الفلسفة العربية ، وبقيت صلة النسب بين الفلسفتين طيبة الى حد أن الجامعات الاوربية في العصور الأخيرة من القرون الوسطى

كانت تدرس الفلسفة العربية باعتبار أنها فلسفة المشائين ، أى فلسفة أرسطو » .

وقد علق الدكتور يعقوب صروف فى المقتطف (يناير ١٩٢٥) ، على هذا المعنى فقال : ان ما قاله الاستاذ — (يعنى : لطفى السيد) — يؤيده الكتاب الاوربيون الباحثون فى الفلسفة العربية ، واستشهد بما يقوله الاسيكس وليم رتس : ان ما يعرف بالفلسفة العربية ليس فيه من العربية سوى الاسم واللغة ، فهو فكر يونانى منظم ، عبر عنه بلغة سامية ، وحوار بالمؤثرات الشرقية ، وأدخل بين أهل الاسلام بمؤازرة الواسعى الصدر من خلفائهم ، بقى حيا بغيره جماعة من المفكرين — الذين لم يخشوا من المجاهرة بأرائهم على أن أمتهم أساءت به الظن واضطرتهم لهجره .

ثم ذكر لطفى السيد ما يراه سببا فى رجوع العرب والمسلمين والمصريين الى فلسفة أرسطو ، فقال « وكما ان النهضة الاوربية الحديثة عهدت الى درس فلسفة أرسطو عن نصوصها الاصلية ، فكانت مفتاحا للتفكير العصرى الذى أخرج كثيرا من المواهب الفلسفية الحديثة ، فلا جرم أن نتخذ نحن من فلسفة أرسطو — لا سيما أنها أشد المذاهب اثتلافا ، والطريق الاقرب الى نقل العلم الى بلادنا وتأقلمه فيها — رجاء أن ينتج فى النهضة الشرقية مثل ما أنتج فى النهضة الغربية .

وقال ان فلسفة المعلم الاول خالدة ، ما حدها وطن ولا أحنى عليها زمن ، فقد بنت عليها كل مدينة صروح مجدها العلمى حتى مدينتنا الجديدة .

هذا هو الاتجاه عام ١٩٢٥ ، فى نفس العام الذى تحولت فيه الجامعة الالهية الى جامعة رسمية ، وجىء بلطفى السيد الذى وصفه تلاميذه وأتباعه ، بأنه أستاذ الجيل ، رئيسا للجامعة ، وجاء طه حسين وغيره يدعون الى الايمان بفكر ووثنية اليونان وأرسطو .

فهل كان حقا (لطفى السيد) أستاذ الجيل ، صادقا فيما قال ؟؟ وفيما

دعا اليه العرب والمسلمين من اتخاذ أرسطو منطلقا الى النهضة الجديدة ؟؟ وكانت كتابات طه حسين وغيره من بعده ، دعوة ملحّة الى هذا الطريق ؟ أم أن الأمر كان فيه شبهة أو خدعة •

هل كان حقا أرسطو هو منطلق الحضارة الغربية في عصر النهضة وما بعدها ، أم أن أول عمل قامت به هذه النهضة هو نقص أرسطو وتزييفه والحملة على منهجه ، واعتبار منهجه عامل التجميد الذى عاش فيه الغرب معتقلا قرونا ، حتى جاء منهج التجريب الاسلامى ، الذى أطلق الطاقات على عصر العلم الحديث •

ندع هذا للباحثين ، لقد كان انبعاث مناهج علماء المسلمين انطلاقا من القرآن ، وهم الذين أنشأوا المنهج العلمى التجريبي ، الذى كان أول حجر فى بناء الحضارة والعلم بشهادة : درابر وبريفولت ، وجوستاف لوبون فى العصر السابق ، وسارتون وهونكة وجارودى وبوكاى وغيرهم ، فى العصر الحديث ، وآخر كتاب فى هذا الشأن عنوانه : « شمس الله تشرق على الغرب » وكتاب « أوروبا ولدت فى آسيا » •

اذن فلم يكن أستاذ الجيل — لطفى السيد صادقا ، ولم يكن عميد الأدب — (طه حسين) — أميناً حين نقلنا اليها هذا المعنى ، ذلك أن المسلمين نقدوا أرسطو أولا ، ثم جاء الغربيون فنقدوه ورفضوه ، والتمسو منهج المسلمين ، الذى رفعهم الى ذروة التكنولوجيا الآن •

اذن فلماذا هذا التعارض ؟ يسأل عن هذا « الاستشراق » والاستعمار ذلك بأنهم ، على حد تعبير الدكتور محمود قاسم : « نقلوا المسلمين الى أرسطو ، ونقلوا أنفسهم الى منهج المسلمين (جابر وابن الهيثم والبيرونى) ذلك أن أرسطو هو الذى سيضع المسلمين مرة أخرى داخل القوقعة المنطقية التأملية المظلمة « قوقعة المنطق الصورى » ويحرمهم من ثمرات منهج التجريب ، الذى سموه بلغتهم « براجماتيزم » والذى أنشأوه هم ونماه

الغرب • وهكذا نجد أن هذا المنطلق على يد طه حسين ، وجماعة من أتباعه ، يتسع ويمتد حتى يقرر : أن العرب خضعوا لمنهج اليونان وأرسطو في القديم ، ولما كان الفكر الحديث هو ثمرة فكر اليونان ، فإن تبعية المسلمين له لا تعد شيئاً جديداً ولا غريباً ، لأنهم كانوا تابعين لليونان ، فلا عجب أن يتبعوا ما جددته أحفاد اليونان • لم يكن أستاذ الجيل صادقا اذن ؟ ولم يكن الدكتور طه حسين صادقا في هذا ، فإن المسلمين لم يقبلوا أرسطو ولم يعتنقوا فكر اليونان ، وانما العكس هو الصحيح ، ذلك أنهم قاوموه ونقدوه وأبانوا عن وجوه الخلاف العميق بينه وبين منطق القرآن ، لقد تصدى لهم كثيرون ، من أبرزهم الغزالي وابن تيمية •

واذا كان الخلاف ما زال واسعا حول ما كتبه الفارابي وابن سينا ، وهل هو فلسفة اسلامية ، أو متابعة للمشائين اليونان من المشائين المسلمين ، فإن رجلا كريما قد ولى قسم الفلسفة في كلية الآداب ، هو الامام الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرزاق — شيخ الازهر السابق — قد فصل في هذا الامر على نحو صحيح ، ومن خلال دراساته في الجامعة نفسها ، وبالرغم من سيطرة طه حسين على عمادة كلية الاداب حين ذاك ، فإن الاستاذ الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، أعلن في حسم هذه القاعدة التي غيرت منهج البحث كله حين قال : « ان الفلسفة الاسلامية انما تلتبس في كتب المتكلمين والفقهاء ، وان الامام الشافعي واضع أصول علم الفقه ، هو أول الفلاسفة في الاسلام ، وان مقامه في العربية ، هو بمثابة أرسطو في اليونانية •

وبذلك نشأت « مدرسة الاصاله » ، في مجال الفاسفة ، وامتدت من بعد واتسعت وكان من أتباعها الخضيرى ومحمد عبد الهادى أبو ريده وعلى سامى النشار ، ومنذ ذلك الوقت صدر كتاب (تمهيد في تاريخ الفلسفة الاسلامية) عام ١٩٤٧ ، وقد كان منهجه قد تقرر قبل ذاك بوقت طويل •

وقد تحررت الفلسفة من التبعية الغربية ، وبرزت مدرسة الاصاله فيها ، وهو ما يزال عسيرا أن يحدث مثله في مجال الادب والنقد الادبى ، فإن التبعية لمذاهب النقد الغربى الوافد ما زالت قوية •

ولقد أثبتت « مدرسة الاصاله » في الفلسفة الاسلاميه — (عبد الرازق أبو ريدة ، النشر) — ان المنطق الارسططاليسى : — منهج الحضارة والفكر اليونانى — لم يقبل في المدارس العقلية الغربية ، وان المنهج التجريبي الاسلامى هو الذى عرفته أوربا — بعد قرون من مطلع حضارتها الحديثة — لمباينته للحضارة اليونانية . وان اكتشاف وجود هذا المنهج لدى المسلمين ، يفسر « روح الحضارة الاسلاميه » ، فالحضارة الاسلاميه حضارة عملية تجريبية ، تتجه الى تحقيق الفعل الانسانى ، في ضوء نظرية حية ملموسة كذلك .

وقد كشفت الابحاث المتعددة عن اضطراب خطير في المراجع التى اعتمد عليها الفارابى — وباعتراف الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا — « ان الفكر الذى نقل الى المسلمين من اليونان والاعريق ، لم يكن صحيح الاصول بل كان صورة زائفة دخلت عليها مفاهيم السريانية والتساطرة المترجمين وعقائدهم ، وكانت تهدف الى خدمة المفاهيم الدينية المسيحية ، ومن هنا كان فسادها وعجزها عن أن تعطى الفكر الاسلامى شيئاً .

ومن ناحية أخرى فقد تبين أن المقاومة للفلسفة اليونانية — ومذهب أرسطو بالذات — قد بدأت منذ أن تمت الترجمة ، وأن المعارضة بدأت منذ اليوم الاول ، ذلك أن الفكر الاسلامى كان قد تم تشكيله قبل الترجمة . على أساس قيمه القرآنية من التوحيد والاخلاق ، ومن الربط بين الوحي والعقل . لذلك فانه كان من العسير أن تنصهر فيه الفلسفة اليونانية أو ينصهر فيها ، خاصة وهى فلسفة مجتمع وثنى قام على العبودية واعلاء العقل وعبادة الجسد ، فضلا عن محاذير الترجمة من فساد وانتحال وتحريف النصوص . وان كانت طائفة من الفلاسفة أطلق عليها اسم المشائين المسلمين ، قاموا بمحاولة شاقة وعسيرة ، لادخال الفلسفة اليونانية في اطار الاسلام ، ولكن المحاولة فشلت تماما .

وكانت وقفة الامام الغزالي في وجه الفلسفة الالهية اليونانية. وقفة صارمة ، ردت السهم الى نحور أصحابه ، فقد كشف الفرق بين الفلسفة الرياضية والفلسفة الطبيعية ، وبين الفلسفة الالهية ، ورفض الاخيرة لأنها تتعارض مع التوحيد الخالص قاعدة الاسلام ، وأعلن أن الكلام في الطبيعيات برهاني ، أما في الالهيات فهو تخميني . وفي الفلسفة الالهية عارض الغزالي القضايا الكبرى الثلاث التي تقرها الفلسفة اليونانية ، وتختلف مع مفاهيم الاسلام .

ما يقولون به من قدم العالم ، وان الله (جل وعلا) لا يحيط علما بالجزئيات ، وانكارهم البعث ، وهاجم الفلاسفة الذين جحدوا الصانع ، وزعموا أن العالم قديم ، كالدهرية والزنادقة ، والذين قالوا أن النفس تموت ولا تعود ومن أنكروا الآخرة .

هذا وقد كشف الامام الغزالي بالنسبة للفارابي وابن سينا وجهة نظر أخرى ، حين عرفت روابطهم بالدعوات الباطنية الهدامة ، واخوان الصفا ، وغيرهم من الذين كانوا على اتصال بأعداء الدولة الاسلامية من قرامطة ومزدكية وغيرهم ، وفي كتبهم نصوص توحى بهذه الصلة .

آراء ابن تيمية

ثم جاء الامام ابن تيمية ، فاستحالت غربا ، فقد كشف كتابه : (الرد على المنطقيين) عن أن الفكر الاسلامي له منطق خاص ، مستمد من القرآن والسنة ، وقد استخرج منه قواعد هذا المنطق الجديد ، الذي أسماه : (المنطق الاسلامي) . وقال ان هذا المنطق كان فيه غنى للمسلمين عن العقلية الغربية في الحكم على الاشياء ، وفي الاستبصار والتأمل الفلسفي — المنطق التصوري — ورد على المنطقيين الذين استحكمت في عقولهم آثار الفكر اليوناني وطوابعه ، وعزلها عن الاقتباس من فلسفة القرآن والحديث النبوي ومنطقهما ، ومما قاله : ان ما عند أئمة النظار من أهل الكلام والفلسفة من الدلائل العقلية ، فقد جاء القرآن بما فيها من الحق ، وما

هؤلاء • ويقول الدكتور النشار :

هو أكمل وأبلغ منها على أحسن وجه ، منزها من الاغاليط الموجودة عند

كان ابن تيمية رائدا لكل الاتجاهات الحديثة في نقد منطق أرسطو ، من ارجانون فرنسيس بيكون الى الفلسفة الوضعية • وقد عني بنقد فلاسفة الاسلام كالفارابي وابن سينا وابن رشد ، وكل من وافقهم على التشيع لمنطق أرسطو ، وأشار الى عبث محاولتهم وعقم تجربة التلفيق عندهما (الفارابي وابن سينا) بين الاسلام والافلاطونية المحدثة ، ورأى أن هدف التلفيق هو هدم الاسلام من الداخل •

ومما عرف في هذا المجال — وهو كثير : كتاب (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) بقلم محمد بن ابراهيم الوزير الحسنى اليمنى الصناعى المتوفى ٨٤٠ هـ •

وبعد : فقد كان لابد لمدرسة الاصاله أن تواجه المدرسة التى ما تزال تعلّى من شأن المدرسة اليونانية ، والتى تبلورت بعد فى مدرسة طه حسين ، بيومى مدكور حيث يقول مدكور : أن ارجانون أرسطو أثر فى مختلف المدارس ، كلامية وفقهية وعلمية وفلسفية ، بينما يقول الدكتور النشار : أن المنطق الارسططاليسى ، قد نقل الى العالم الاسلامى ، وأثر فقط فى المدرسة المشائية الاسلامية ، وبقيت المدارس الاخرى المنبثقة عن النظام الاسلامى بعيدة كل البعد عنه ، تحاربه وتجاهده ، وكانت قد وضعت منطقا مختلفا تمام الاختلاف فى روحه وجزئياته •

ان سيادة منطق أرسطو انما بدأت حينما تداعى الفكر الاسلامى فى القرن الخامس ، فاختلط بما يسمى ، علوم اليونان ، لكن ذلك لم يوافق دوائر الفقهاء الآخرين ، ولم يوافق متكلمي الاشاعرة من ناحية ومتكلمي السلف من ناحية أخرى ، على استخدام هذا المنطق فحاربوه أشد الحارب •

ويقول الدكتور النشار : ان محاولة الفارابي كانت غريبة عن روح

الاسلام وعن تفكيره وعن منهجه العام ، وان فلسفة الاسلام انما تنبثق من الاسلام نفسه : عن القرآن وعن السنة ، لا عن محاولة للتوفيق والتنسيق والتلفيق ، وان فلاسفة الاسلام المشائين قد ابتعدوا عن الاسلام روحا ونصا • وعن المجتمع الاسلامى فكرا وعقيدة وحياة ، وأن الفلسفة المشائية ماتت فى العالم الاسلامى منذ عهد بعيد •

ويقول الدكتور النشار : ان مذكور يرى فلسفة اليونان غاية الغايات وان اليها يعود كل فكر ، ويرى أن فكرنا الاسلامى المعاصر ينبغى أن يرتبط بفلسفة أوروبا وحضارتها ، تحت تأثير الدعوة الخاطئة التى قدمتها مدرسة طه حسين ، على مسرح تفكيرنا ، والتى تقول أنه ما دام أسلافنا قد أخذوا بفلسفة اليونان ، وبما أن فلسفة أوروبا وحضارتها هى امتداد لهذه الفلسفة فعلىنا أن نأخذ من هذه المدرسة الاوربية كل شئ » أ • ه •

وهكذا تبين الرشد من الغى وسقط منهج الاستشراق •

آفاق البحث

الموضوع	الصفحة
الفصل الأول : اخطار المراجع الزائفة	٧
الفصل الثاني : تحفظات على دائرة المعارف الاسلاميه والمنجد والموسوعة	١٦
الفصل الثالث : تفسير التاريخ الاسلامى	٢٧
الفصل الرابع : أخطاء في تفسير التاريخ الاسلامى الحديث والمعاصر	٤٠
الفصل الخامس : قضايا مثارة في ضوء التفسير الاسلامى	٥٣
الفصل السادس : تحفظات على مناهج دراسة العلوم	٦٤
الفصل السابع : مناهج الاسلام في العلوم السياسية	٨٢
الفصل الثامن : القانون الوضعى والشريعة الاسلامية	١٠١
الفصل التاسع : من علمانية التعليم الى اسلامية التعليم	١٢٠
الفصل العاشر : مولد المدرسة الاسلامية في علم الاجتماع	١٣٢
الفصل الحادى عشر : دراسات النفس والأخلاق	١٤٥
الفصل الثانى عشر : حضارة التوحيد وحضارة الوثنية	١٦٣
الفصل الثالث عشر : النظام الاقتصادى الاسلامى	١٨٠
الفصل الرابع عشر : بين الاسلام والماركسية	١٩١
الفصل الخامس عشر : الفلسفة اليونانية والفكر الاسلامى	٢٠٣